nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محرد الهف



هِ زُمْرِيقياً الشرق



٤راسيات في تراريخ المفرب

© أفريـقـيـا الشـرق 1991

حقوق الطبع محفوظة الطبعة الأولى 1991

رقم الإيداع القانوني: 1991/444

محهد رزوق



General Organization Of the Alexandria Library (GUAL)

Bibliotheca Official Control

هُ \ُفريق**يا\لش**رق



تقديــم

اخترنا هذه المجموعة من الأبحاث لنشرها في جزء أول على أن نقوم بنشر الباقي في جزء ثان. وقد توخينا في اختيارها التنوع.

وهذه الأبحاث قسان:

_ قسم أعد خصيصا لندوات معينة (وطنية ودولية) _ وقسم آخر أعد خصيصا لنشره في مجلات مغربية وعربية.

وإن الأمل لكبير أن تفتح هذه المجموعة بعض أبواب البحث وأن تثير فضول الدارسين لمناقشتها وإبداء ملاحظاتهم حولها.

د. محمد رزوق الدار البيضاء نى 1990/6/20



قضية الرق في تازيخ المغرب (*)

مازالت قضية الرق بالمغرب لم تحظ بعد بالعناية الكافية من طرف الباحثين المغاربة والعرب بصفة عامة، مما ترك المجال مفتوحا للدراسات الغربية التي تنظر الى القضية بوجهة نظر أوروبية، أي في النهاية النظر الى تاريخ الرق في المغرب بنفس نظرتها الى تاريخ الرق في أوروبا، في حين أن الاختلاف واضح، ويظهر على الأقل ـ على مستويين :

على المستوى السياسي : إن وجود المغرب في افريقيا الغربية خلال القرن السادس عشر لم يكن أبدا بهدف جلب الرقيق، بل كان هدفه الأساسي حماية تلك المناطق من الغزو الايبيري، وتوحيد كلمة المسلمين، في حين أن العكس تماما كان بالنسبة للأوروبيين، اذ إنهم عندما خرجوا في حركاتهم الاستعارية في إفريقيا كان الرق من بين أهم أهدافهم الأساسية، وذلك لتصديره للعالم الجديد.

على المستوى الاجتهاعي: تختلف العلاقة بين العبد وسيده في المغرب عن العلاقة بين العبد وسيده في المغرب عن العلاقة بين العبد وسيده في أوروبا. فمعاملة المغاربة للعبيد كانت بصفة عامة معاملة إنسانية. (۱) فقد كان العبد جزءا من العائلة، حتى ان بعض العبيد يذهب الى حد رفض الحصول على الحرية. (۱) كها كان بإمكانه أن يصل الى المستوى العلمي لسيده، وربها يفوقه، فقد دعا محمد ابن عبد الكريم المغيلي بعض ممالكيه لمناظرة فقهاء فاس حول مسألة اليهود، إذ يذكر ابن عسكر في هذا الصدد: «ولما اختلف الفقهاء عليه تقدم على فاس لأجل المناظرة بحضرة السلطان الشيخ بن أبي زكرياء الوطاسي ثم المريني، فلها نزل بظاهرة فاس خرج الفقهاء الى لقائه والسلام عليه، وكان له ستة مماليك من السودان كلهم يحفظون مدونة البرادعي عن ظواهر قلوبهم، وكلهم فقهاء فلها استقر الجلوس بفقهاء فاس عنده، قال لاحد الماليك، واسمه الفقيه ميمون، تكلم مع الفقهاء في نازلة اليهود. . .» . (3)

أما بالنسبة للأوروبيين فالأمر يختلف تماما، فقد استخدموا الأفارقة للعمل في مزارع قصب السكر بأمريكا وعاملوهم بكل قسوة مما أدى الى افناء الكثير منهم، كما كان العبد مهمشا تماما بالنسبة للعائلة الأوروبية، فلم يكن بإمكانه أبدا أن يتدخل في شؤونها أو يشاركها بعض همومها المعاشية، ناهيك عن السماح له بمستوى معين من التعليم.

وسنحاول في عرضنا هذا أن نلم بالنقط الآتية :

أولا: دور الأوروبيين في الرق الافريقي.

ثانيا: الرق في مملكة سنغاى في عهد الاسقيين.

ثالثا: الرق في المغرب خلال العصور الحديثة.

- الرق في العهد الوطاسي.

- الرقيق المغاربة بالبرتغال.

- الرق في العهد السعدي : رقيق السودان الغربي.

- الرق في العهد العلوي: تجربة جيش العبيد.

أولا: دور الأوروبيين في الرق الافريقي:

تعتبر البرتغال فاتحة صفحة الرق في العصر الحديث رغم أنها كانت تحاول أن تتستر وراء عملياتها البشعة في إفريقيا بعوامل دينية. (4) وهكذا بدأت تبرز أهمية الساحل الغربي لافريقيا كمورد للرقيق، وظلت البرتغال تحتكر هذه التجارب البشرية لمدة طويلة قبل أن تنافسها فيها هولندا وفرنسا وبريطانيا. (5) غير أن لشبونة ظلت في هذه الفترة تحتوي على سوق كبير للرقيق يمد العالم الجديد كله بحاجته منهم. (6)

ومنذ أوائل القرن السادس عشر كان الرقيق قد أخذ يشحن إلى أمريكا، (7) والى كوبا في عام 1521، وقد بلغ عدد العبيد الذين بيعوا لهذا الغرض في سوق لشبونة (سنة 1539): 000. 10 عبد (8) ومن تم لم تستطع الجهود البرتغالية العادية ان تسد الطلبات المستمرة المتزايدة للرقيق وبدأ استغلال الأسلحة النارية للقنص. (9)

لقد كان الرقيق أغلى سلعة اكتشفتها القوى الاستعارية في افريقيا وأصبحت هذه السلعة الأساس الذي بنت عليه الدول الاستعارية اقتصادها ورخاءها. ((10) وكان الأوروبي لا يخاطر بالتوغل في الداخل، فاكتفى بالبقاء في المراكز الساحلية حتى يسلم له العبيد عن طريق الوسطاء ثم يتم نقلهم الى العالم الجديد، وقد تألفت شركات برتغالية بقصد الاتجار في الرقيق، وحصلت هذه الشركات على مراسيم من البلاط الملكى البرتغالي باحتكار التجارة في مناطق محدودة من الساحل. ((11)

وقد دخل الهولنديون والفرنسيون والانجليز والدانهارك هذا الميدان ليسدوا الطلبات المتزايدة للرقيق اللازم للعمل في مزارع القطن والدخان وقصب السكر في أمريكا مما أدى الى وقوع منافسة خطيرة بينهم، غير أن أرباحهم من هذه التجارة وصلت الى حد خيالى. (12)

وكانت سفن الرقيق البريطانية تقوم برحلة مثلثة، فتنقل المصنوعات الانجليزية لغرب افريقيا، حيث تستبدل بالرقيق. وبلغ عدد ما وصلل بين سنتي (1680 - 1706) الى الممتلكات البريطانية من الرقيق ما يقرب من مليونين ونصف مليون، وإذا عرفنا أن النظام الذي اتبع ترتب عليه أن ما يصل حيا من هذه السلعة لا يصل الى النصف، وإذا علمنا أن ما وصل المستعمرات الأوروبية كلها في قرن واحد قدر به 40 مليون افريقي ادركنا أن القارة الافريقية استنزفت ما يقرب من 80 مليون من أبنائها في هذا الميدان. (13) والبعض يقدر هذا العدد بها لا يقل عن مائة مليون. (14)

وخلاصة القول اذا كان الهولنديون يقولون أن مدينتهم العظيمة (امستردام) بنيت على عظام الزنوج، فليس بعيدا عن الصواب أن نقول بأن (لشبونة) و(ليفربول) قد بنيتا على عظام الرقيق الأسود ودمائه. (15)

هذا ما يتعلق إذن بدور الأورويين في الرق الافريقي، فلننظر الى المسألة من الجانب الوطني، أي في النهاية النظر إليها من الداخل، ولنأخذ كمثال مملكة سنغاي، في عهد الاسقيين، (16) وهي المملكة التي فتحها أحمد المنصور الذهبي كما هو معلوم.

كان العبيد يشكلون الفئة الثالثة في المجتمع، وكانت تقوم بجميع الأعمال في الحقول والمنازل، لحساب غيرهم، ومن هنا يصحُّ لنا أن نعتبرها طبقة الانتاج الأولى في مملكة سنغاي (١٦) . وقد تكاثر عدد أفراد هذه الفئة مع الزمن ، حتى أنه يمكن أن نقدر نسبتهم في المجتمع بها يزيد على النصف (١٤) . وهذه الكثرة جاءت بالدرجة الأولى من الفتح والتوسع، الذي رأته المملكة منذ أيام (سني على)، وتوسعت فيه أكثر منذ أيام الآسقي الحاج محمد الأول، وكان الفتح لا يتمُّ عنَّ طريق المصالحة، وانما يتم عن طريق القهـر والغلبـة، وينتهي باسترقاق مناطق بأكملها. فقد بدأ الاسقيا ألحاج محمد الأول حكمه بأن ورث عقب المعركة التي انتصر فيها على (سني بارو) ابن على أربع وعشرين قبيلة بكامل افرادها ذكورا وإناثا (19) وقد بقى هؤلاء طيلة أيام الاساقيا يعملون في الحقول الزراعية لحساب دار السلطنة، وقسم منهم اختصوا برعاية خيول البيت الحاكم وكان يؤخذ قسم من أولادهم كل عام، ويباعون في الاسواق وتشترى بأثمانهم خيول أخرى، وقسم منهم وهب للشريف الحسني وأولاده، فبقوا في خدمتهم طيلة عهد الاساقي. وكان هذا الشريف ورد على (كاق) في أيام الأسقى الحاج محمد الأول، ويقال ان سبب اعطائه هذه الهبة، كان مراعاة لنسبه وقرابته من النبي، وقد بلغ عدد أفراد هذه الهبة في البداية ألفا وسبعائة، ثم تكاثروا فيها بعد (20) وحين غزا الآسقي الحاج محمد الأول قبل ذهابه للحج مباشرة منطقة (زاغ)، اختار من سكانها خُلقا كثيرا للاسترقاق، وكانت هذه المنطقة قد اشتهرت بكثرة البنائين بها، ولذا فقد كان من جملة من استرقهم (خمسائة بناء، فذهب بالاربعمائة الى كاو لتخذهم لنفسه. . مع آلات بنائهم)، وأعطى احد اخوته وهو عمر كمزاغ مائة بناء، بعد أن تولى هذا ولآية الاقليم، وعزم على أن يبقى لنفسه وجنده وموظفيه وأتباعه مدينة تكون مقر عمله هناك (21).

ولما ذهب الاسقى الحاج محمد الأول لقضاء مناسك الحج ، بلغ عدد أفراد ركبه ما يزيد على الألف وخمسهائة شخص، كان بينهم من غير العبيد والخدم، أقل من مائة نفر (22).

وقد كانت البضائع النفيسة يتعامل فيها بالذهب وكانت البضائع المتوافرة بكثرة يتعامل فيها بالودع، وكان العبيد من الصنف الثاني يباعون ويشترون بالودع، وفي

كثير من الأحيان كانت تجرى المبايعات عن طريق المقايضة، وفي هذه الحالة يذكر الحسن الوزان (المعروف بليون الافريقي) أن ثمن الفرس، كان يساوي أحيانا خمسة عشر عبدا مقابل رأس واحد من الخيل، كما يزيد الحسن الوزان أيضا ان تغازى كان يعمل في أحواضها العبيد (٤٦) ، ويذكر ابن بطوطة حين مروره بكاو (في القرن الرابع عشر) أن الفرد كان حين يسير مسافرا او متنقلا كان يتبعه عبيده يحملون له امتعته معه (24) . ومن هذا كله يتضح أن العبيد كانوا يشكلون بعددهم جزءا كبيرا من الفئة الثالثة، وكانت تقع على كواهلهم معظم الاعمال، ولكنهم كانوا في أدنى درجات السلم الاجتماعي ، غير أن هناك ملاحطة أساسية وهي انه وان كانت هناكً طبقية واضحة في مجتمع سنغاي فإنها مع ذلك لم تكن دات حدود مغلقة بحيث لا يستطيع الفرد فيها الله يرقى من طبقة الى طبقة أخرى، (فعلى فلن) الذي أصبح مستشاراً لا سقيا الحاج محمد الأول وأمين سره كان في البداية عبدا له (25). وقد حدث أن أحد ملوك سنغاي استقبل موكب الحجيج على عادتهم في دلك وقبل يد أحد العبيد الدي كان بينهم ، فأراد أحد حراس الملك أن يؤدب العبد الدي مديده للاسقيا دون ان يعرف انه عده، فكان هذا سببا في ان الملك اعتق ذلك العبد، واعتق خمسين من قبيلة أمه، وحمسين نفسا من قبيلة أبيه أيضا وأسقط عنهم جميع وظائف السلطية (26). وجاءت عجوز إلى الاسقيا داود تطلب منه أن يبيع أولادها _ كانوا عبيدا له _ اذا باعهم، الى مكان واحد، وأن يهمهم اذا أراد ذلك، الى مكان واحد، حتى لا يتفرقوا، فأجابها الملك: «لقد اعتقتهم شكرا لله» وكتب لهم وثيقة بعتقه لهم، شهد بها الحاضرون، وأصبحوا من ذلك الحين أحرارا (27) وكانت درجة العبد أو الخادم الاجتماعية ترتفع بارتفاع درجة مالكه أو مستخدمه، ومن ذلك أن زناجية الشريف الحسني على مولاي أحمد بن عبد الرحمن اقر الاسقيا الحاج بن داود والي اقليم تندروم ان يعفيهم من جميع وظائف السلطنة احتراما لمقام سيدهم

كما أن عبيد الأمراء والولاة وخدامهم، كانوا يرتكبون من أنواع الاعتداء والتسلط ما لا يجرؤ غيرهم من العبيد والخدم على اتيانه، فقد حدث في أيام الاسقيا الحاج محمد الأول ان اعتق جماعة من الدين كان قد استرقهم (سني علي)، وقد جاء في عهد لهم بالعتق : «... ويمسك كل جائر وفاجر جوره من جندنا وقدمنا الجائرين وعبيدنا ورسلنا، فلا يقر بضيم ولا بتحقير وتصغير. . . » (29) وعلى عكس ذلك، فإن عبيد النبلاء وخدامهم لم يكن يحق لهم ان يتجاوزوا حدودهم تحاه عيد

وبملوكي بقية النبلاء، كما أن عبيد وخدم بقية الافراد العاديين، لا يجوز لهم ان يأتوا من الاعمال ما يجوز لغيرهم من العبييد او الخدم الذين ينتمون الى الطبقات العليا، فقد حدث في عهد السلطان محمد بأن أن خلافا نشب بين نبيلين من الأساقي سببه أن أحدهما سرق عبده ملحفة جارية الآخر، وقد رفض صاحب الغلام تسليمه ليعذبه صاحب الجارية حتى يعترف بذنبه أمامه، فقام صاحب الجارية بهجوم مباغث على خصمه، وقد تطور هذا الخلاف الى نزاع بين الاساقي فني فيه خلق مشاغث على خصمه، وقد تطور هذا الخلاف الى نزاع بين الاساقي فني فيه خلق كثير، ووقعت معارك وخلافات أدت الى اضعافهم جميعا (٥٥). هذه هي وضعية العبيد الافارقة بافريقيا نفسها، فلننظر الى وضعيتهم في منطقة اخرى، ولنختر أوروبا نفسها التي استرقتهم، ولننطلق من وضعية العبيد المغاربة بالبرتغال كنموذج.

ثالثًا : الرق في المغرب في العصور الحديثة :

الرق في العهد الوطاسي :

عرف المغرب في العهد الوطاسي ازمات سياسية واقتصادية واجتهاعية خطيرة هزت المجتمع المغربي بعنف (١٤) ، وادت به بالتالي الى الرضوخ عند اقدام المحتل ، اذ عرض المغربي نفسه كبضاعة له مقابل لقمة خبز تنجيه من الموت المحقق بسبب الجوع . وتورد المصادر البرتغالية والاسبانية المعاصرة مناظر مروعة لذلك ، مشيرة بتفصيل الى عمليات البيع والأثمنة . ونورد كمثال ما يذكره المؤرخ البرتغالي المعاصر بتفصيل الى عمليات البيع والأثمنة البشعة اذ يقول في هذا الصدد : «مع انتشار المجاعة بدأ المغاربة يأتون بكثرة الينا للحصول على ما يقتاتون به ، وكان يبيع بعضهم بعضا ، فالأب يبيع أبناءه ، والأخ اخوانه . . . وهذا شيء لم ير ويسمع به قط . . . (32) .

وقد لاحظ أيضا أن النساء كن يبعن بسهولة من طرف آبائهن وأخواتهن ، غير البرتغاليين كانوا يفضلون شراء المغربيات الجميلات صغيرات السن (33) . أما الرجال فكان يختار منهم الأقوياء للعمل في الزراعة ومختلف الاشغال الشاقة (34) .

ان عدد المغاربة الذي كان يباع كبير جدا، حتى ان المصادر البرتغالية تعطي ارقاما مرتفعة جدا، ولم يعد (العبد المغربي) في نظرهم يساوي شيئا. (35) ويحكي

في هذا الصدد نفس المؤرخ ان أخوين عرضا عليه نفسيها، فاشترى أحدهما ودفع الأجر للآخر، وقد قيل له آنذاك بأن الخبز الذي سيأكله هذا المغربي أغلى منه بكثير. (36)

وقد استنكر ابن يجيش التازي هذه الوضعية استنكارا شديدا، وصاح في الناس يدعوهم للجهاد «عباد الله، ما هذه الغفلة العظيمة، التي أضحت على القلوب مقيمة ؟ وركنت اليها النفوس فأصبحت من الرشاد والتوفيق عديمة، أما علمتم أن أعداءكم باحثون عليكم، مستغلون لكل حيلة في نيل الوصول اليكم. . . (37) . ثم يسترسل في تسجيل هذه الوضعية قائلا : «قد أبدلوا بعد العز والفرج ذلا وحزنا، واستولى عليهم الكرب والترح حسا ومعنى، قد اوثقوا بالسلاسل والحديد، وهم في كل يوم عذاب شديد، وصاروا من جملة الماليك والعبيد، كانوا بالأمس أغنياء آمنين، فأصبحوا اليوم فقراء خائفين. انهبت أموالهم، وتغيرت أحوالهم، فرقت عنهم نساؤهم، وأخذت منهم بناتهم، وصار الكفرة يتنافسون في بيعهم بالأشان، وجعلوا يفرقونهم في سائر البلدان ويريدون ان يفتنوهم عن دينهم، ويفسدون عليهم قوة يقينهم. ماهذه الغفلة عن إخوانكم يا معشر المسلمين! » (38).

يحتوي الارشيف البرتغالي لمحاكم التفتيش الدينية على عدد كبير من المحاضر المتعلقة بمحاكمة عدد مهم من المغاربة الذين تم اسرهم أو اختطافهم او بيعهم خلال المجاعات، وخصوصا خلال مجاعة 1520 ومعلوم ان الجوع ارغم المغربي خلال تلك المجاعة على بيع ابنائه قبل بيع نفسه، ولقد كان العرض كبيرا الى حد انه لم يعد أي شيء أرخص من الانسان (99).

وقد كانت التهمة الاساسية الموجهة لهؤلاء العبيد المغاربة هي الرجوع الى الدين الاسلامي بعد ان تم تعميدهم، ويتجلى من خلال هذه المحاكمات نوعية الحياة التي كانوا يعيشونها وظروف القهر والمسخ التي مورست عليهم قصد فصلهم عن جذورهم الأولى (40). وكانت أهم جريمة يعاقب عليها هؤلاء هي محاولتهم الفرار من البرتغال للالتحاق بالمغرب، فمن بين 229 محضرا من محاضر محاكمة موريسكيي (41) منطقة لشبونة نجد 150 منها متعلقة بهذه الجريمة (65 ٪) في حين أن و77 منها (5, 34 ٪) تتعلق بمحاكمات كان فيها التمسك بالاسلام والقيام بطقوس اسلامية، وإذا كان المحققون لايرون في محاولات العبيد الفرار الا دليلا

قاطعا على ارتباط المورسكيين بدينهم الأصلي وبحرصهم على مغادرة البلاد المسيحية للتمكن من العودة الى الاسلام والقيام بفرائضه جهرا ودون ادنى مضايقة، فإن قراءة المحاضر تضيف حقيقة مهمة جدا وهي رفض الموريسكي لفكرة الاندماج داخل المجتمع المسيحي والاقامة نهائيا بالبرتغال (٤٤). وقد اعترفت مغربية انها كانت «. . . تتذكر باعتزاز أرضها وتتمنى ان تلتحق بها، وإنه اذا ما تم لها ذلك، فإنه لم يكن ممكنا بالنسبة اليها ان تكون مسيحية ولكن مسلمة فقط . . . (٤٩) . واستغل المبرتغاليون باستمرار كل خلاف او سوء تفاهم مع المورسكي لتذكيره بأصله ولاهانته ، ولم يكن البرتغالي في حاجة الى مبرر للقيام بذلك ، فلقد ذكر (جوادراغو لاهانته ، ولم يكن المحكمة ان خدام سيده كانوا يستغلون كل خلاف معه : « لاهاداته بالمسلم القديم ، ابن المسلم وابن الكلب . . . (٤٩) .

وقد استطاع بعض هؤلاء العبيد الحصول على حريتهم بعد مدة طويلة من العبودية وبعد أداء فدية مهمة أو بعد ان تصدق السيد بذلك قبيل وفاته. وكانت هذه الحرية التي يحصل عليها بصعوبة كبيرة تؤدي في غالبية الاحيان الى تشتيت أفراد الاسرة، ذلك ان تحرير الأم لا يؤدي الى نفس الشيء بالنسبة لمن انجبته خلال اسرها، (45)، وبهذا فقد عدد من المورسكيين أبناءهم نّهائيا، فالتونسية (مريا برنالدو Maria Bernaldo) فقدت بنتا عمرها أربع سنوات بيعت بإسبانيا واخرى أصغر منها بيعت بمكان لم يعين لها (46). وكان بعض البرتغاليين الذين كانوا يجرون وراء الحصول على هذه السلعة الثمينة لا يترددون في فرض ممارسات جنسية على اسيراتهم، لذا نعثر بمحاضر محاكم التفتيش الدينية الاشارة الى ظاهرة غريبة وهي وجود موريسكيين عبيدا لابائهم (47). ووعيا من الموريسكي بها يسببه ذلك الفراق من آلام توقف البعض عن الانجاب لكي لا يعودوا عبيدا (48) ، ودفع اليأس بآخرين الى قتل أبنائهم مفضلين ذلك على فقدانهم بالبيع كبضاعة أو تركهم وراءهم في حالة فرارهم، فلقد بلغت بمغربية أن : « . . . ضربت بنتها في بطنها بحجرة لكي تميتها لانها كانت تود الفرار الى بلاد المسلمين ولم تكن تود أن تبقى ابنتها أسيرة. . . » (49) . لقد كانت قساوة الحياة التي يعيشها هؤلاء العبيد واضحة جدا في محاضر محاكم التفتيش البرتغالية، اذ تكثر فيها الاشارات الى المورسكيين الذين جلدهم اسيادهم أو حبسوهم أو حرموهم من الطعام لمدة معينة او الذين كانوا يجوبون شوارع العاصمة وهم مكبلون بالسلاسل الحديدية (50).

هذه وضعية العبيد المغاربة بالبرتغال، وهي وضعية مزرية كما رأينا، فكيف كان يعيش العبيد بالمغرب خلال نفس الفترة.

الرق في العهد السعدي: رقيق السودان الغربي

فتح السلطان أحمد المنصور الذهبي السودان سنة 1591، وقيل الكثير عن هذا الفتح. فقد تحدث بعضهم عن العنف الذي صاحب هذا الفتح، وتحدث آخرون عن أهداف اقتصادية معينة كانت تحرك هذا العمل. لكن ما يهمنا نحن بصدد هذا الموضوع هو موقع الرقيق من كل ذلك. نعم لقد صحب المغاربة معهم اثر هذا الفتح امواجا كبيرة من الرقيق اذ يذكر الزياني في هذا الصدد: «... فقد ورد عليه محمود باشا عام سبعة وألفا، واتى معه بعشرة آلاف جارية كلهم في سن البلوغ...» (61) مما يدفع بنا الى التساؤل عن أصل ذلك ؟

هناك أصول متعددة لهؤلاء الرقيق، فهناك من كانوا ارقاء بالفعل بالسودان ممن اسر وا أثناء المطاحنات التي كانت تجري بين القبائل السودانية، وهناك من اسر اثناء المعارك بين المغاربة والسودانيين، وهناك ارقاء اصلا بحكم المولد وهم معرفون. غير ان عملية نقل العبيد الى المغرب لم تكن تجري بدون انحرافات، فقد كان بعض تحار الرقيق السياسرة يعممون هذه التجارة على طائفة كبيرة من السودانيين بدون مراعاة لاصولهم الاجتماعية. وقد تعرض احمد بابا السوداني الى جملة من هذه القضايا في رده على تساؤلات في الموضوع لرجال توات، اذ يذكر في هذا الصدد: «... وقولكم: ما تقولون في العبيد المجلوبين من البلاد التي تقرر اسلام اهلها كبلاد برنو وعفنو وكنو وجاغو ونحوها مما استفاض اسلامهم، هل يسوغ تملكهم أم

فاعلم ـ وفقنا الله تعالى وإياكم ـ ان هذه البلاد كها قلتم أهلها مسلمون، الا عفنو، فلا اعرف أين هي، ولا سمعت بها، ولكن يقرب كل البلاد منها بلاد فيها كفرة، يغير أهل تلك البلاد المسلمون عليهم، وبعضهم تحت ذمتهم يؤدون خراجا على ما بلغنا، كها هو مشهور وربها تفاتن سلاطين هذه البلاد بعضهم على بعض فيتحرك سلطان هذه البلاد على غيره ويغير على بلاده، ويسبي ما تيسر له منهم، وهم مسلمون، ويباع المسبي وهو حر مسلم ـ فإنا لله وإنا اليه راجعون ـ، وهذا

مستفيض عندهم في بلادهم يغير أهل كشن على كنو وكذا غيرهم، والسنتهم واحدة ولغتهم متحدة وحالاتهم متقاربة، لا يعرف بعضهم من بعض الاهذا مسلم أصلي وهذا كافر أصلي. ومن هذا يلتبس الحال على من جلبوا اليهم فلا يعرفون حقيقة المجلوب.

وقولكم: المعلوم شرعا ان سبب الرق إنها هو الكفر فمن اشترى كافرا ساغ تملكه والا فلا، وطروء الاسلام بعد حصول الشرط المذكور غير قادح في استمرار الملك.

جوابه : ان الامر كذلك، ولكن مع كونه غير معاهد او ذي ذمة ولابد.

وقولكم : فمن هذه البلاد المذكورة من مسلم السودان ان حصل الاستيلاء عليهم بالرق حال الكفر واسلامهم طارىء عنه فلا ضير ام لا ؟

جوابه: انهم اسلموا بلا استيلاء أحد عليهم كأهل كنو وكشن وبرنو وسقي ما سمعنا قط ان أحدا استولى عليهم قبل اسلامهم، ومنهم من هم قدماء في الاسلام كأهل مالي اسلموا في القرن الخامس أو قربه كأهل برنو وسقي.

وقولكم : وكيف ذلك في أهل برنو فإنها دار سلطنتكم والاتيان منهم إلينا كثير، فهل هم ارقاء أم لا ؟

جوابه: انهم مسلمون احرار، اسلموا قدیها، بید انه یقرب اطراقهم کفار یغیرون علیهم، ویکسبونهم ویبیعونهم کها قدمنا...

وقولكم: وكذا من لم تعرف بلاده وجهل حاله، فلم يدر هل تقدم رقه على السلامه ام لا ؟ فهل يسوغ بيعه وابتياعه من غير بحث أم يجب ام يندب ؟

جوابه: ان تعلم أن سبب الرق الكفر، وكفار السودان كغيرهم في ذلك من سائر الكفار أو اليهود أو الفرس أو البربر وغيرهم ممن تبث بقاؤه على كفره دون إسلام كما سيأتي من كلام المدونة آخر هذا الجزء، فهو دليل يبين أن لا فرق بين جميع الكفار في ذلك، فمن سبي في حال كفره صح تملكه كائنا من كان، دون من أسلم طوعا،

ابتـداء من جميع الاصناف كأهل «برنو وكنو وضنغاي وكشن وكبر ومالي» وبعض زكزك، فهم مسلمون احرار لا يجوز تملكهم بوجه... (52)

كما ان الناصري استنكر هذه الانحرافات في نص له في الموضوع قائلا : «قد تبين لك بها قصصناه عليك من اخبار السودان ما كان عليه أهل تلك البلاد من الأخذ بدين الاسلام من لدن قديم. وانهم من احسن الامم اسلاما وأقومهم دينا وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلا ومحبة، وهذا الامر شائع في جل ممالكهم الموالية للمغرب كما علمت، وبهذا يظهر لك شناعة ما عمت به البلوي ببلاد المغرب من لدن قديم من استرقاق اهل السودان مطلقا وجلب القطائع الكثيرة منهم في كل سنة وبيعهم في أسواق المغرب حاضرة وبادية، يسمسرون به كان تسمسر الدواب بل أفحش، قد تمالاً الناس على ذلك وتوالت عليه أجيالهم حتى صار من العامة يفهمون ان موجب الاسترقاق شرعا هو أسود اللون مجلوبا من تلك الناحية ، وهذا لعمر الله من أفحش المناكر وأعظمها في الدين اذ أن أهل السودان قوم مسلمون فلهم مالنا وعليهم ما علينا، ولو فرضنا أن من هو مشرك أو متدين بدين آخر غير الاسلام فالغالب عليهم اليوم وقبل اليوم بكثير انها هو الاسلام، والحكم للغالب، ولو فرضنا أن لا غالب وإنها الكفر والاسلام متساويان هنالك فمن لنا بأن المجلوب منهم من صنف الكفار لا المسلمين. والأصل في نوع الانسان هو الحرية والخلوعن موجب الاسترقاق ومدعى خلاف الحرية مدع لخلاف الأصل، ولا ثقة بخبر الجالبين لهم والبائعين لهم لما تقرر وعلم في الباعة مطلقاً من الكذب عند بيع سلعهم واطرائها بها ليس فيها، وفي باعة الرقيق خصوصا مما أكثر من ذلك كيف ونحن نرى ان الذين يجلبونهم او يتجرون فيهم انها هم من لا أخلاق لهم ولا مروءة ولادين، والزمان كماً علمت وأهله كما ترى ولا يعتمد أيضا على قول العبد نفسه أو الأمة نفسها كما نص عليه الفقهاء لانحتلاف الأغراض والأحوال في ذلك، فإن البائع لهم قد يضربهم حتى لا يقرون إلا بها يقدم في صحة بيعهم، وقد يكون للعبد أو الأمة غرض في الخروج عن ملك من هو بيده بأي وجه كان، فيهون عليه ان يقر على نفسه بالترقية كى ينفذ بيعه عاجلا إلى غير ذلك من الأغراض وقد استفاض عن أهل العدل وغَـيرهم أن أهـل السودان اليوم وقبل اليوم، ويغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض، ويسرقون من الأماكن النائية عن مدا شرهم وعمرانهم فعلهم ذلك كفعل أعراب المغرب في إغارة بعضهم على بعض واختطاف دواهم ومواشيهم

أو سرقها والكل مسلمون، وأما الحامل لهم على ذلك قلة الديانة وعدم الوازع، فكيف يسوغ للمحتاط لدينه ان يقدم على شراء ماهو من هذا القبيل، وكيف يجوز له التسري بإناثهم وفي ذلك مافيه من الأقدام على فرج مشكوك . . . » (63) هذا عن طريقة جلبهم والانحرافات التي كانت تقع اثناء ذلك. أما فيها يتعلق بمعاملاتهم داخل المغرب فلم يتحدث أي مصدر تاريخي أو غيره عن قمع او اضطهاد أو معاملة سيئة تعرض لها هؤلاء، فقد اندمجوا مع المغاربة وأثرو وتأثروا، إذ يذكر الزياني في هذا الصدد - أثناء الحديث عن وصول العبيد الى مراكش من السودان - : « . . . فدفع المنصور نصف العبدان لرؤساء البحر يركبون فيه، ويخدمون معهم ليتدربوا على سفره، والنصف الآخر اعطاهم السلاح والخيل من جملة الجند، وزوجهم بالجواري كل واحد أعطاه واحدة، فأولئك العبيد هم أصل العبيد جمعهم السلطان إسهاعيل) (64).

كها استغلت طائفة منهم في مصانع السكر المستحدثة (55).

غير انه اذا كان الأمر لم يشر أي مشكل في العهد السعدي نظرا لأن هؤلاء ظلوا في مستوى معين مع أسيادهم، فإن العكس تماما بالنسبة لبداية العصر العلوي في عهد السلطان مولاي اسماعيل عندما قرر تكوين جيش منهم (جيش العبيد)، اذ ظهرت أصوات معارضة من بعض فئات المجتمع ذات المصالح والامتيازات.

ذلك ما سنحاول أن نلقي الضوء عليه.

الرق في العهد العلوي: تجربة جيش العبيد (66)

أشار الزياني الى الظروف التي برزت فيها فكرة جيش عبيد البخاري لدى السلطان مولاي اسماعيل قائلا: «... وولع هذا السلطان بجمع العبيد، جعلهم عسكرا، والسبب في ذلك أنه لما كان بمراكش أتاه طالب من أهل مراكش بدفتر فيه أسهاء العبيد الذين كانوا في عسكر المنصور، فسأله هل يعرف منهم أحدا؟ فقال: كثيرون بمراكش واحوازها، وان كلفني سيدي بجمعهم. فكتب له أمره للعمال يقفون معه في جمع العبيد وأولادهم... ولما رجع من مراكش لمكناسة كلف كاته عمد بن العياشي أن يخرج لقبائل الغرب وبني حسن والجبال لجمع العبيد، وكلف عاله بالقبائل أن يشتروا له العبيد...». (63)

وقد أراد السلطان بالفعل أن يبني جيشا جديدا للدولة المغربية يكون دعامة حقيقية لاستمرار السلطة في الدولة الجديدة، ولكي يتم ذلك توصل الى أنه يجب تكوين جيش بمعزل عن أصناف المجتمع، اذ ان هذا يجعله جيشا غير مرتبط بأية مجموعة، وبالتالي لا يرتبط الا بشخص السلطان عن طريق اداء يمين الاخلاص على صحيح الامام البخاري. (85) فأصدر السلطان أوامره الصارمة بعد اقتناعه بالفكرة بجمع الارقاء الموجودين في جميع التراب الوطني، وكان ذلك في سنة بالفكرة بجمع الارقاء الموجودين في أحد كبار أطر حكومته «الباشا عليليش». ونجحت الفكرة في البداية ولكنها لم تعط العدد الكافي لتكوين قوة عسكرية كبيرة تحمي الدولة كنظام، وتحافظ على الأمن في مجموع التراب الوطني لذلك وسع تحمي السلطان المشروع من جمع الأرقاء الى ادراج عناصر أخرى في نفس النظام، مع ضان تزويجهم قصد ازدياد عددهم في اطار ارتباطهم الأساسي بالسلطان. مما جعل منهم «مجتمعا عسكريا» تحت اشراف السلطان وتوجيهاته الخاصة. (69)

ويظهر من خلال النصوص المتوفرة لدينا عن هذه المؤسسة الجديدة انها أثارت ضجة كبرى في المجتمع المغربي، ودخل موضوعها في جدل فقهى تارة واجتماعي تارة أخرى. (٥٥) الا أن هذا النقاش لم يطرح بحدته على المستويين معا الا عندما أمر السلطان بجمع الإناث في سنة 1101 هـ / 1690 م. وهكذا عندما دخلت هذه العملية مرحلة الاماء ظهر أنها أخذت غس مصالح الطبقة الارستقراطية سواء في المدن او في مراكز الزوايا في البادية اذ ثارت ضد العملية كلها ثائرة هذه الطبقة، بدليل ان زعماء الشورة على هذا الاجراء ككل، كانوا ينتمون الى نفس الطبقة. وبدليل آخر ان عملية تكوين «جيش العبيد» «بدأت من حوالي 1088 هـ/1688 ، ولم تظهر عليها أية معارضة. ثم أن مدينة فاس كانت هي الأخيرة التي طولبت بتنفيذها وخصوصا جمع الاماء، وكانت أوساطها العلمية على علم بذلك كله، ولم تساعدنا المصادر على أن هذه المدينة وقفت في المعارضة من البداية ولم تظهر معارضتها الا عندما بدأت في فاس بالذات. بالاضافة الى أن الثورة الفكرية على العملية كلها لم تبدأ الا في عام 1108 هـ / 1697 م (61) وقد كان رد فعل السلطان عنيفا على أهل فاس إزاء قوة معارضتهم فقد كتب الى المدينة رسائل رسمية شديدة اللهجة يوبخهم على موقفهم المعارض من العملية كلها. (62) ونفس الموقف وقفته تطوان التي عارضت في الموضوع بنفس المنطق الذي استعملته مدينة فاس. (63) ويظهر ان فكرة تكوين «جيش العبيد» بهذه الطريقة فكرة مقتبسة بصورة

غير مباشرة من نظام جيش «الانكشارية في الدولة العثمانية» (64) فقد وضع السلطان لتكوين «الذكور من جيش العبيد» نظاما صارما منذ الطفولة الى نهاية حياتهم، وخصص لذلك مكانا اختارته استراتيجة الظروف العسكرية آنذاك وهو مشروع الرملة بالقرب من مركز تيفلت وسيدي سليهان حاليا. وأما الاناث فكن يتكونن في القصر الملكي او في البيوتات الكبرى التي كان أصحابها موظفين للدولة في مختلف التراب الوطني أو البيوتات الارستقراطية بالقصر كله (65)

ويلاحظ ان هذا الجيش لم يكن يدرب عسكريا فقط بل كان يدرب على شؤون الادارة والقيادة وقد شغل اذكاهم وأكبرهم ثقة عند السلطان أعلى وظائف الحكومة سواء في العهد الاسماعلى او بعده. (66)

ويقول في مكان آخر عن المعاملة: «وهم يعاملون معاملة حسنة في هذه البلاد، وإذا تلقى العبد معاملة سيئة فإن في مستطاعه أن يطلب إعادة بيعه بصفة قانونية، ويحدث في بعض الأحيان أن العبد ينال حريته عن طريق صديق له يشتريه من سيده، على أن العبد يصبح في كثير من الأحيان شديد الارتباط بسيده على صورة يرخص معها أن ينال حريته . . . » . (69)

هكذا رأينا إذن تطور وضعية الرقيق بالمغرب، فهي وضعية تختلف تماما عن مثيلاتها بأوروبا، والمعايير المتخذة في أوروبا لتصنيف هؤلاء الرقيق داخل المجتمع لا تصلح تماما بالنسبة للمغرب، لان تصنيف المجتمع المغربي تصنيف مرن، اذ يمكن للعبد ان يترقى الى مرتبة اجتماعية أعلى اما لعلمه أو مجهوده او كفاءته في ميدان من الميادين وهو حق مازالت تطالب به شعوب افريقية الى يومنا هذا داخل أراضيها نفسها.

الموامش

- (*) أعد هدا المحت برسم المدوة التي نظمتها (الأليسكو) بتونس (1985) حول موضوع «الرق بافريقيا» وقد نشر بالمجلة التاريخية المغربية بتونس (1986)، كما أعيد بشره بمجلة البحوث التاريخية بليبيا، العدد 2 لسنة 1986
- (1) من الباحتين المعاربة من يدهب إلى رأي محالف، بدكر على سبيل المثال محمد الباجي اذ يقول في هذا الصدد: «.. ويمكن القول في البداية أن القساوة كانت سمة التعامل مع العبد في بعض الأحيان ولأسباب بسيطة، وتبلع المعاملة أوجها في القساوة حتى تصل الى القتل »

ُ حولُ الرَّفَيق في المغربُ ما قبل الاستعبارُ»، مقال بمجَّلة «**أَبَحَاث**» العَّدد الأول، يناير / فبراير 1983. الرباط، ص 57 »

ويقول في مكان آحر: «... لكن اطلالة على الوتائق المتعلقة بالرق تظهر لنا كترة حالة الهروب رغم الاحطار المحيطة بها، وهذا يمكنك من افتراص سوء معاملة الرنوج، ولا غرابة في ذلك في محتمع يحكم فيه على هده الفئة بالانحطاط فابن خلدون يراها أقرب من الحيوان الى الانسان، وقد كان لليون الاويقي نفس الرأي في هذا الموضوع، اذ يقول بأن السود هم حيوانات بدون عقل ولا ذكاء ولا تحربة، وليس لهم أية فكرة عن أي شيء كان ويعيشون كحيوانات بدون قواعد وقواس. ..»

نفس المصدر ص 58

ويبرّر الباحت الّمذكور دكره لهذه المطاهر السلبية للرق بالمغرب بقوله : «لقد رأينا من المفيد أن نضع الأصبع على المطاهر السلبية ودلك لفتح المقاش .»

ىمس آلصدر ص 64

ولا تتمق مع الأستاذ محمد الناحي فيها ذهب اليه، فالمقاش يمكن بطرح أسئلة للنقاش، لا بذكر «مطاهر سلية للنقاش»، لأنه في هذه الحالة يصبح التوجيه واضحا ثم ان ماذهب إليه لا يعدو أن يكون إشارات عابرة وردت في مصادر معينة وبالتالي لا يمكن الإعتباد عليها وحدها بتاتا لتقويم الرق في المغرب.

- moulieras Auguste, le Maroc Inconnu, 2 · 63-64 (2)
 - (3) دوحة الناشر، ص 131.
- (4) يقال إن بعض الملاحين البرتغاليين قد اسروا في إحدى رحلاتهم المحرية جماعة من الأفارقة فأخذوهم معهم لتعليمهم مبادىء المسيحية حتى يعودوا لبلادهم ليكوبوا رسلا لنشرها في افريقيا لكن اتجهت أدهان الرتغاليين فيها بعد الى شراء الرقيق الأسود أو خطفه ثم بيعه للعمل في البرتعال (انظر شوقي الجمل، تاريخ كشف افريقيا واستعهارها، ص 129.
- (5) الى غَاية نهاية القرن السادس عشر كانت المرتغال هي التي تمون كلا من املاكها والاملاك الاسبانية ىالرقيق، وأصح الرقيق عهاد الحياة الاقتصادية البرتغالية. (انظر شوقي الحمل نفس المصدر والصفحة)
 - (6) نفس المصدر والصفحة
 - (7) أول شحة انطلاقا من ساحل عانا وصلت هايتي في عام 1510.
- (8) انظر تشرس ر. ج. ، هاريسول، الاستعمار الحديث (ترجمة دولة احمد صادق ومواجعة محمد السيد غلاب)، ص 70.
 - (9) القرن السادس عشر يسميه بعض المؤرخين في افريقيا عصر البنادق.
 - (10) انظر شوقى الجمل، المصدر السابق، ص 130
 - (11) نفس المصدر والصفحة.
 - (12) انظر صفحي الدين محمد، افريقيا بين الدول الأوروبية، ص 79.
 - (13) انظر شوقى الجمل، المصدر السابق، ص 131.

22

```
Garnier Jacqueline BEAUJEN, Geographie.., 2/39 (14)
```

- (15) انظر حمدان جمال، استراتيجية الاستعمار والتحرير، ص 104.
- (16) انظر حول هذه المملكة الدراسة القيمة التي انجزها الاستاذ عبد القادر زبادية بعنوان «مملكة سنغاي في عهد الاسقين».
 - (17) أنظر عبد القادر زبادية، المصدر السابق، ص 120.
 - (18) نفس المصدر والصفحة.
 - (19) انظر محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 172 _ 173.
 - (20) انظر محمود كعت، المصدر السابق، ص 57.
 - (21) انظر محمود كعت، المصدر السابق، ص 62.
 - (22) انظر محمود كعت، المصدر السابق، ص 65.
 - (23) انظر وصف افريقيا، 2 : 176
 - (24) رحلة ابن بطوطة، ص 83.
 - (25) انظر محمود كعت المصدر السابق، ص 60.
 - (26) نفس المصدر، ص 111.
 - (27) نفس المصدر، ص 102.
 - رُ28) نفس المصدر، ص 123.
 - (29) نفس المصدر، ص 73.
 - (30) نفس المصدر، ص 133.
 - (31) يمكن تلحيص الأرمات في:
 - ـ تفكك السلطة المركزية وضعفها
 - ـ الغزو الابيري للاراضي المغربية
 - المجاعات، الأمراض، الأوبئة، القحط.
 - النقص الديمغرافي الخطير الذي كان يعرفه المغرب آنذاك
- B. Rosenberger et H. Triki, Famines et Epidemies Au Maroc in **Hesperis Tamuda**, Vol. (32) XIV, Fascicule Unique, 1973, p. 128 Ibid, P 133.
 - (33) ملاحظة : انتشرت آنذاك ظاهرة شراء الرق لاجل الفراش
- lbid, P133 (34)
- lbid, 134 (35)
- B Rosenberger et H. Triki, Famines et Epidemiess Au Maroc, in **Hesperis-Tamuda vol** XV, (36) Fascicule unique, 1974. P 94
 - (37) تنبيه الهمم العالية، 125
 - (38) المصدر السابق، ص 126
- (39) انظر أحمد بوشرب محضر محاكمة امرأة مغربية من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية (1559)، مقال ممجلة «المناهل» المغربية العدد 21 يوليوز 1981، ص. 225.
 - (40) انظر ـ مثلا ـ محضر المحاكمة المقال السابق، ص. 236 ـ 278
- (41) تجد أن كلمة مورسكي كما تستعمل باسبانيا لا تنبطق على الجالية المورسكية البرتغالية التي ينطبق عليها لفظ افريقي Barbaresco أو تركي Turco فهؤلاء دخلوا البرتغال لأسباب حاصة وفي ظروف خاصة كذلك، في حين أن مورسكيي الأندلس جذورهم متأصلة هناك.
- (42) انظر أحمد بوشرب، «الجالية المورسكية المقيمة بالبرتخال وموقعها من الثقافة والعقيدة المسيحيتين»، مقال مجلة «المناهل» المغربية ع 24، يوليوز 1982، ص. 363.

erted by Liff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصية الرق في تاريخ المعرب ــــ (44) المقال السابق، ص 368. (45) المقال السابق، ص 371. (46) نفس المقال والصفحة. (47) نفس المقال والصفحة. (48) نفس المقال والصفحة (49) نفس المقال والصفحة. (50) المقال السابق، ص. 373 (51) الترجمان المعرب، ص. 463 ملاحظة : يرى R Letourneau ان العدد مبالغ فيه . أنظر Extrait de la dynastie saadide, in Revue de l'occident musulman et de la méditerranée, 23, 1ère semestre, 1977, P. 53 (52) مخطوط المكتبة العامة بالرياط رقم 478 د. ص. 231 ـ 232 وانظر ملاحظات حول هذه الفتوي Zakarı Dramani - Issifou, l'Afrique das les relations internationnales au XVIème siècle, pp. 111 - 116. (53) الاستقصا، 131 ـ 132 (54) الترجمان المعرب ص 364. - P Bertier, 1 : Un Episode de l'Histoire de la canne à sucre 233 et 242 انظر أيضًا . زراعة قصب السكر وتصفيته في المغرب القديم مقال بمجلة البحث العلمي الرباط العدد العاشر يناير / أبريل 1967، ص 139_140 (56) حول وثائق جيش عبيد البخاري انظر محمد المنوي: المصادر العربية لتاريخ المغرب 1: 213_213 (57) الترجمان المعرب ص. 376. A Laroui, Histoire du Maghreb, P. 254 (58)(59) انظر هاشم العلوي القاسمي مقدمة تحقيق كتاب التقاط الدرر ص. 32 (60) المصدر السابق، ص. 33. (61) نفس المصدر والصفحة. (62) انظر أبا القاسم الزياني الروضة السليهانية، 101، (ع. الرحمان ابن زيدان المنزع اللطيف، 322. (63) انظر محمد داود، تاريخ تطوان 2: 34-43. (64) انظره جب ـ يوون المجتمع الاسلامي والغرب (ترجمة أحمد الرحيم مصطفى)، 1: 82. (65) انظر هاشم العلوي القاسمي، المصدر السابق، 34.

(67) انظر عبد المجيد بن جلون، ص 7 وما بعدها.

(68) المصدر السابق، ص. 123. (69) ـ المصدر السابق، ص. 124.

Ch. de la Veronne, Documents inedits, O. 44, note: 3

الرباط، ص 55 ـ 64

المصادر والمراجع

```
- الزياني ابق القاسم
                  الترجمانُ المعرب، عن دول المشرق والمغرب مخطوط المكتبة العامة بالرباط، رقم 658
                                                                         ـ الفشتالي عبد العزيز
             مناهل الصَّفاً، في أُخبَّار الملوك الشرفا تحقيق عبد كنون، المطبعة المهدية بتطوان، 1964.
                                                                          ـ البوخصيبي أبو بكر
                                              أضواء على أبن يحبش التازي، الدار البيضاء 1976
                                                                                 ـ المنوني محمد
                                 المصادرُ العربية لتاريخ المغرب الجزء الأول، الدار البيضاء، 1983
                                                                        ۔ این جلون عبد المجید
                                         جولات في مغرب الامس (1872) الدار البيصاء، 1974
                                                                               - المناصري أحمد
                       الاستقصاً، لاخبار دول المغرب الأقصى الجزء الخامس، الدار البيضاء 1955
                                                                             ۔ این عسکر محمد
                                               دوحة الناشر. . . تحقيق محمد ححى الرماط 1976
                                                                             - كريخال مارمول
                                                                             افريقيا الجزء الأول
         ترحمة محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأحضر، أحمد التوفيق، احمد منجلون، الرباط، 1984
                                                                       - الوزان الحسن بن محمد
                 وصف افريقيا، جزان، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرماط، 1980، 1982
                                                                                 - يوشرب أحمد
                                                 دكالة والاستعمار البرتغالي، الدار البيضاء، 1984
                               «محضر محاكمة امرأة مغربية من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية»
                  مقال بمجلة المناهل، الصادرة بالرباط، عدد 21، يوليوز 1981، ص 244 ـ 278
       «الجالية المورسكية المقيمة بالبرتغال»، مقال بمجلة المناهل، العدد 24، 1982 ص ـ 392 354
                                                                             - زبادية عبد القادر
                                                   مملكة سنغاي في عهد الاسقيين، الجزائر 1971
                                                  ـ القاسمي العلّوي هاشم
مقدمة تحقيق كتاب التقاط الدرر ـ بيروت 1981
                                                                                      ـ بايا احد
                                                                                  معراج الصعود
                                                            مخطوط المكتبة العامة بالرباط، 478 د
                                                                                  - الناجي محمد
حول السرقيق في المغرب ما قبل الاستعمار مقال بمحلة أبحاث، العدد الأول، يناير / فبراير، 1983،
```

الجالية الأندلسية بالمغرب العربي (*) (تونس والجزائر)

عرف استقرار الجالية الأندلسية بتونس تطورا متباينا تبعا للظرفية التاريخية السائدة بالمنطقة، لكن على العموم كان تأثير هذه الجالية قويا في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وقد اختلف الدارسون في تقويم الوجود الحضاري الأندلسي بتونس، فبينها اعتبره البعض ـ وفي جميع الأحوال ـ عاملا إيجابيا، أقر له البعض الآخر ببعض المظاهر السلبية.

أما بالنسبة للجرائر فإن الوجود الأندلسي يبدو فيها ضعيفا إذا ما حاولنا مقارنته بمثيله في كل من المغرب وتونس ولكننا مع ذلك سنحاول من خلال استقرائنا لمصادر معينة أن نلتمس بعض صوره.

الجالية الأندلسية بتونس:

وردت إشارات عديدة عن الجالية الأندلسية في العهد الحفصي في المصادر التي أرخت لهذه الفترة، نخص بالذكر منها: الفارسية لابن القنفذ القسطنطيني، وعنوان الدراية للغبريني، وتاريخ الدولتين للزركشي، ورحلة ابن رشيد ووصف إفريقيا للوزان، والروض الباسم لعبد الباسط بن خليل، والمؤنس لابن أبي دينار، بالاضافة إلى ابن خلدون والمقري في نفح الطيب.

أما الدراسات، فبالاضافة إلى دراسة روبير برانشفيك R. Brunschvig حول الحفصيين (1) ودراسات الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في كتابه الورقات، ظهرت أخيرا دراستان مهمتان: الأولى للأستاذ محمد الحبيب بن الخوجة (2)، والثانية للأستاذ محمد الطالبي (3). على أن أهم دراسة للوجود الأندلسي بتونس في العهد الحفصي هي الدراسة الأخيرة للأستاذ محمد الطالبي.

حاول الأستاذ الطالبي في مقاله ـ السالف الذكر ـ أن يحلل هذا الوجود الأندلسي من خلال نقطتين أساسيتين :

النقطة الأولى: (العقلية الانهزامية) التي حملها معهم الأندلسيون إلى تونس

يقول الكاتب في هذا الصدد: «. . . . وهكذا استولت على مسلمي الأندلس عقلية انهزامية يصورها لنا أحسن تصوير الشاعر الأندلسي عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال، حيث يقول:

ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سفط (4)

يا أهل أندلس حثوا مطيكم في المقام بها الامس الخلط الثوب ينسل من أطراف وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

قال ابن العسال هذه الأبيات عند صياع طليطلة، وهي ترشح كلها بتلك العقلية الاجزامية التي تحدثما عنها، والتي كانت السبب العمين والحقيقي الذي تولمدت عنه الأحداث، تلك الأحداث التي لم تزد على أن تحقق _ على مراحل _ النتائج الحتمية لعقلية الاجرام وما يتعها من انغماس في زائل اللذات، والتهام الفرص قبل دق الجرس. . . (5)

النقطة الثانية : الشعور بالغربة وهم بالأندلس نفسها.

وهي ىقطة حاول الأستاذ الطالبي أن يعزز بها النقطة السالفة الدكر إد يقول: «. . . والذي ينبغى التأكيد عليه لإدراك كل ابعاد الهجرة الأندلسيه الاحتماعية والنفسيه، هو أن مسلمي الالدلس ـ وهم في أغليتهم الساحقة من أبناء البلاد الأصليين. كانوا يشعرون أنهم أجانب، وأمهم بأرض ليست بأرضهم، حان وفت المطايا لمفارقنها. . . ومما يصور أحسن تصوير هذه العقلبه ، قول ساعر مجهول يورده المقرى هكدا:

يا أهـل أنـدلس ردوا المـعـار فها في الـعـرض عاريه إلا مردات (6)

هكذا كان القوم يشعرون أنهم استعاروا إلى أجل أرضا غير أرضهم، أو أهم منحوا عارية لابد أن ترد إلى أصحابها الشرعيين، بعد استيفاء ما منحوا من غلتها. . . وأعاد إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي صرخة ابن العسال :

كأنك قد وقفت لدى الحساب غدا سببا لمعركة العقاب وقد دخل البلا من كل باب (7)

وقائلة لها : أراك تطيل فكرا فقلت لها : أفكر في عقاب فها في أرض أندلس مقام

ونجد في صرخته هذه تلك العقلية الانهزامية التي تحدثنا عنها، وتلك الدعوة إلى مغادرة السفينة قبل الغرق، فهو لم يدع أهل بلده إلى التكثل أمام الخطر، وإلى تغيير ما بنفوسهم من أسباب الانقسام والانهزام، حتى يغيروا الوضع، كل ما أسفرت عنه محاسبة النفس، والتفكير في العقاب، هو أنه: فها في أرض أندلس مقام. . . (8)، ويخرج بعد ذلك المؤلف بالنتيجة التالية: «فالهجرة، أي مغادرة السفينة الأندلسية وشأنها، قد هيأت لها إذن عقلية انهزامية انتهازية استولت على النفوس منذ قرون. فكان أمراء الأندلس وكبراؤها يحتسون الكأس حتى الثهالة، قبل أن يفوزوا بأنفسهم وبها استطاعوا من أموالهم.

فأول من غادر الأندلس من المسلمين هم سراتها ونخبتها. . . » (٩) . هذا إذن هو منطلق الأستاذ الطالبي لدراسة الوجود الأندلسي بتونس، والباحث وإن كان لا يريد أن يدخل معه في تفاصيل أسباب النكبة ونتائجها على الصعيدين الداخلي والخارجي والمركبات الاجتهاعية والنفسية التي تولدت عنها ـ لأن هذا من شأنه أن يخرج بنا عن الإطار المحدد لهذه الفقرة ـ فإنه مع ذلك يبيح لنفسه أن يطرح على الأستاذ الأسئلة الآتية : كيف تجلت هذه العقلية الانهزامية الانتهازية بتونس ؟ هل أثرت العقلية على التونسيين واعتبروا هم أيضا ألا جدوى من مقاومة (الروم)، وبالتالي يجب البحث عن الهجرة عن بلد أبعد، أم أن الأمر كان عكس ذلك ؟ هل اعتبر الأندلسيون غرباء بتونس كها اعتبروا أنفسهم غرباء بالأندلس ؟ هل اندمجوا، ماهي التنازلات التي قدمتها كلتا الطائفتين لأجل تحقيق هذا الاندماج ؟ لماذا اختار ماهي التنازلات التي قدمتها كلتا الطائفتين لأجل تحقيق هذا الاندماج ؟ لماذا اختار الأندلسيون (بعقليتهم الانهزامية الانتهازية وبشعورهم بالغربة) أرض تونس ؟

تلك أسئلة متعددة ولكنها في الواقع متكاملة في الواقع ومن شأن الإحاطة ببعضها أن يجلو كثير من الغموض، لأن من شأن المنهج الوصفي _ الذي يأخذ به الكتير من الدارسين _ أن يزيد الأمر غموضا وتعقيدا، وبالتالي يؤدي إلى بروز عدد من المتناقضات، وسنحاول من خلال استعراضنا لبعض مراحل هذا الوجود والبحث عن مكوناته وأبعاده السياسية والحضارية أن تتوصل إلى أخذ صورة متكاملة عنه، يتأتى لنا ذلك مقاربتها بالصورة التي حاوليا استخلاصها بالسبة للمغرب، خاصة وأن أوجه الشبه متعددة.

عوامل استقرار الجالية الأندلسية بتونس في العهد الحفصى :

_ العلاقات الودية بين الأسرة الحفصية وأهل الأندلس:

ذلك أن الأسرة الحمصية _ التي كان مؤسسها أبو محمد عبد الواحد (604 _ 100 / 618 أبطال معركة الأرك _ قد استقرت بالأندلس (100 قبل انتقالها إلى إفريقية ، فكان الحمصيون يميلون لأهل الأندلس ويقدرون مواهمهم لحدمة دولتهم وسياستهم ، فيحسون لدلك وفادتهم .

- الانهيار الديمغرافي الذي أصاب تونس في هذه الفترة:

فقد تواصل الانهيار الديمغرافي منذ متصف القرن الرابع عشر، فكان الوافدون الأندلسيون - لهذا السبب - يجدون مجالا واسعا لاستثمار مواهبهم في قطاعي التجارة والصناعة على الحصوص، بالإضافة إلى الميدانين الفكري والسياسي.

ـ الاستقرار النسبي الذي كانت تتمتع به تونس:

كانت تونس تمثل في نظر الأندلسيين ـ في ذلك الحير ـ الملاذ الأحير لما كانت تتمتع به من استقرار ومناعة نسبية، فإليها اتجهت أنظار اس مردنيش عندما داهمته جيوش أراغون في رمضان سنة 635 هـ / أبريل ـ ماي 1238، فأوفد كاتبه ابن الأبار إلى أبي زكرياء مستصرخا، فأدى له البيعة، وأنشده في حفل سينيته الشهيرة.

أدرك بحيلك، خيل الله، أنسدلسا إن السيل إلى منحاتها درسا (١١١)

ويضيف الأستاذ محمد الحبيب بن الخوجة إلى ذلك أن الأندلسيين ضاق بهم الأمر بالمغرب بسبب الفتن التي كانت تهزه «فاتجه قسم منه إلى المشرق نحو الديار المصرية والشامية والحجازية، وبقي القسم الأخير وهو كبير كثير بإفريقية وفي البلاد التونسية متوزعا بين أطرافها مستبدلا بالأهل أهلا وبالأوطان أوطانا. وإلى هذا يشير أبو الحسن حازم القرطاجي في أول قصيدته المنحوية بقوله:

فتونس تؤنس الأبصار رؤيتها كانها الصبح فيها ثغر مبتسم فاقبلت نحوها للناس أفشدة فكلهم حضروا في ظل حضرتكم قد ند فيها الأسى عن أهل أندلس وأبدلوا جنة من جنة حرموا

وتمنح الأمم الأسماء والأمما وحسوة الليل فيها حوة ولما ترتاد غيثا من الإحسان منسجما فأصبحت لهم الدنيا بها حلما والانس فيها عليهم وفده قدما منها وقد بوروا من ظلها حرما

كها ينوه بها تم له بإفريقية من أمن وهناء وحظ وذلك في بداية مقصورته حين يقول متحدثا عن ممدوحه المستنصر:

مقدم قبل السسؤال جوده فها يقول من يرجيه: متى ؟ جرى إلى نهاية الجود التي ما بعدها وجود معنى لالى لو لم يوصل أهله الدهر إلى الأئه لم يوصلوا إلى الى طابت بالأيام لي حتى لقد ذكرت في قد خلا عيشا حلا فيا خليلي استقياني أكوسا نسكر من خمر الصبا من قد صحا بلغت أراب المنى في دولة أولت يدى أسنى الأيادى واللهى (12)

ـ موقف الأندلسيين من الموحدين:

نفض معظم الأندلسيين أيديهم من الموحدين واعتبروهم مسؤولين عن ضياع بلدهم، لذلك ؤلوا وجوههم شطر الحفصيين مؤملين منهم أن يعملوا على إنقاذها، ولعل ابن عميرة يعبر عن هذه الفكرة حين يقول من قصيدة يحث فيها أبا زكرياء الحفصي على الاستيلاء على المغرب ويشكو إليه حال الأندلس:

والمخرب الأقصى على غسق به كلمت أنياب الرمان وماشكا والأمر فيه قد انقضى إلا لقي ولأرض أندلس إليك بحالها سقمت بعباد المسيح وأنها رحماك فيها من أخيذة أذؤب وبقوها يقوى القياس فسق إلى وأجبر قناة الدين فيها بالذي

وافاه منك سنا الصباح المسفر داء ابن داية غير ظهر الأدبر يكفيه منك تناول بالخنصر شكوى الهشيم إلى السحاب الممطر في أن تكون مسيحها لا تمتري يقسوتها زئير القسور أبطاله نص الجياد الضمر يقص العدو من القنا المتكسم (13)

ونجد له قصيدة أخرى في مدحه يشيد فيها بأعمال الحفصيين ويهجو الموحدين، وفيها كذلك يشير إلى مبايعة سبتة وسجلهاسة له فيقول:

وأرى البلاد ولا لعا لعشارهم ودعا بذات البحر (14) داع للهدى سعد المجيب بها ويا لك باغشا حسناء أغلى مهرها من لم يزل وأتتك ضرتها (15) فكان صداقها مدت من الصحراء جيدا إذ رأت

رمقت اقالتهم بعين القالي لم تعد أن ولته وجه موال منها جوابا كان قبل سؤال من كان يرغب في النفيس الغالي بالخالي بالكالي من تلك جيدا هو بأسمك حالي (16)

الهجرة :

- جالية شرق الأندلس:

بدأت الهجرة (الكبرى) إلى إفريقية الحفصية بعد سقوط مدن الأندلس الكبرى خاصة بلنسية (636 هـ / 1238 م) واتخاذ قرارات الطرد ضدهم، وهكذا هاجرت جاليات مهمة من شرق الأندلس إلى غرناطة أولا ومن هناك إلى المغرب وإفريقية الحفصية بالخصوص، حيث كونوا جالية متميزة عن غيرها. (17) ويلاحظ أن ابن خلدون يستعمل في كل الحالات كلمة «جالية» مما يعني أن القدوم لم يكن فرديا، بل كان جماعيا. (18)

_ جالية غرب الأندلس:

تأتي بعد المجموعة الأولى مجموعة أخرى يتحدث عنها ابن خلدون على أنها مجموعة متميزة عنها، وهي جالية غرب الأندلس التي أم أفرادها المملكة الحفصية بعد ضياع اشبيلية (646 هـ / 1249 م).

ويذكر لنا ابن خلدون أن هذه الجالية كانت مقربة أكثر من الأولى من طرف أبي زكرياء مؤسس الدولة الحفصية، ومن طرف أبنائه من بعده. فهو يروى لنا أنه «كانت لأهل اشبيلية خصوصا من بين الأندلس وصلة بالأمير أبي زكرياء بن عبد الواحد بن أبي حفص وبنيه، منذ ولايته غرب الأندلس (١٩) وعندما يقص علينا كيف ارتقى ابن الدباغ إلى الحجابة، يضيف: «وكان من خبر ابن الدباغ هذا أن إبراهيم أباه وفد على تونس في جالية اشبيلية سنة ستة وأربعين (وستمائة)، فولد هو بتونس ونشأ بها» (١٥)

غير أننا أمام سكوت المصادر عن إعطائنا أرقاما وإحصائيات لعدد هؤلاء المهاجرين، فإنه يستحيل علينا ضبط عدد الوافدين إلى إفزيقية، لكن الأمر المؤكد أن عددهم كان مرتفعا وأنهم أموا بالخصوص إفريقية، إذ يقول ابن خلدون في هذا الصدد: «لما تكالب الطاغية على العدوة، والتهم تغورها واكتسح بسائطها، وأسف إلى قواعدها وأمصارها، أجاز الاعلام وأهل البيوت إلى أرض المغربين وإفريقية، وكان قصدهم إلى تونس أكثر لاستفحال الدولة الحفصية بها» (21)

ولم يجز إلى إفريقية «الاعلام وأهل البيوت»، فقط، بل انتقل إليها أيضا أقوام بأجمعهم، بعدما فشلوا بالمغرب الأقصى الذي كان أشد اضطرابا من إفريقية (22). وهذا ما وقع لأبي الغنم وقومه فلقد حاولوا أولا الاستقرار بطنجة، لكنهم غادروها سنة 661 هـ / 1263، بعدما قتل غدرا بنو مرين أميرها يوسف بن محمد بن عبد الله بن أحمد الهمداني المعروف بابن الأمين، فعندما يقول ابن خلدون: «انتقل بنوه الى تونس، ومعهم صهرهم القاضي أبو الغنم عبد الرحمان بن يعقوب من جالية شاطبة، انتقل هو وقومه إلى طنجة أيام الجلاء، فنزلوا بها، وأصهر إليهم بنو الأمين، وارتحلوا معهم إلى تونس» (23).

ملامح التأثير السياسي:

- في الميدان السياسي : أراد أبو زكرياء الأول (625 هـ / 647 هـ - 1248 / 1249 م) أن يستغل (النخبة الأندلسية) ليدعم بها أركان دولته ، ويجعل منها أداة توازن يخفف بها من ضغط شيوخ الموحدين . فاصطنعهم واستكثر منهم في بلاطه وإدارته وجيشه ، وأسند لبعضهم أسمى الوظائف فلقد كان الأندلسي الرئيس أبو عبد الله محمد بن أبي الحسين المسير لشؤون دولته ، وكان أسند لابن الآبار ، الذي وقد عليه من بلنسية مستنجدا ، كتابة علامته ، ولقد بلغ عدد الأندلسيين ونفوذهم بالإدارة والجيش مبلغا جعل شيوخ الموحدين يضيقون بهم ذرعا (24) ، ذلك أن أبا زكرياء حسب عبارة ابن خلدون ، كان قد «اصطنع منهم رجالا ، ورتب جندا كثروا الموحدين وزاحموهم في مراكزهم من الدولة » (25) .

فلما ولى المستنصر (647 هـ - 675 هـ / 1249 م - 1277 م) أراد أن يقدم بعض التنازلات (للمشيخة الموحدية)، فأبعد ابن أبي الحسين، وأسند وزارته أتى شخصية موحدية مرموقة، فعين لذلك محمد بن أبي مهدي الهنتاتي لكن المشيخة الموحدية لم تعتبر ذلك كافيا، فدبر ابن أبي مهدي، بمساعدة مشيخة الموحدين عملية انقلاب آلت في النهاية إلى الفشل، وإلى تدعيم نفوذ الأندلسيين فأعاد المستنصر ابن أبي الحسين إلى مكانه واعتمد عليه في تسيير شؤون الدولة (65)، وأصبح مثلا يحتذى لمن بعده (27).

واستفحل هكذا النفوذ الأندلسي في البلاط، فأصبح الأندلسيون من «أهل الشورى» (28) على قدم المساواة مع الموحدين.

ولعله ليس أدل على ما بلغه الأندلسيون من رقعة في المملكة الحفصية مما تهيأ لأبي الحسين بن سيد الناس. كان أبوه أبو بكر بن سيد الناس «من بيوت اشبيلية ، حافظا للمحديث ، راوية له ، ظاهريا في فقهه على مذهب داود وأصحابه » (29) ، فقدم إلى تونس عند الجلاء ، وأسند إليه التدريس بمدرسة جامع الهواء ، واتصل أباه أحمد وأبو الحسن بأبي فارس بن أبي إسحاق . فأما أحمد فقد قتل بسبب ما كان يحاك من الدسائس . وأما أبو الحسين فقد انقطع إلى أبي فارس ، ثم بعد مقتل هذا الأخير في حرب الدعي ابن أبي عهارة ، التحق بأبي زكرياء عبن أبي إسحاق ، وأعانه على اغتصاب بجاية سنة 484 / 1285 وإقامة مملكة مستقلة بها ، ولعله يحسن أن نورد النص الكامل الذي خص به ابن خلدون : «قد قدمنا سلف هذا الرجل وأوليته ،

وأنه لحق بالأمير أبي زكرياء بتلمسان وأبلى في خدمته. فلما استولى الأمير أبو زكرياء على الثغر الغربي، واقتطعه عن أعمال الحضرة، ونزل بجاية وظاهر بها تونس، عقد لأبي الحسين بن سيد الناس على حجابته. وفوض إليه فيما وراء بابه، وأجراه في رئاسته على سنن ابن أبي الحسين، الرئيس قبله في دولة المستنصر، الذي كانوا يتلقنون طرقه، وينزعون إلى مراميه. بل كانت رئاسة هذا في حجابته أبلغ من رئاسة ابن أبي الحسين، لخلاء جو الدولة ببجاية من مشيخة الموحدين الذي يزاحمونه كما كان ابن أبي الحسين مزاهما بهم.

فاستولى أبو الحسين بن سيد الناس على الدولة ببجاية، وقام بأمر مخدومه أحسن قيام، وصار إلى الحل والعقد، وانصرفت إليه الوجوه، وتمكن في يده الزمام، إلى أن هلك سنة 690 أعظم ما كان رئاسة، وأقرب من صاحبه مكانا وسرا» (30). وخلف ببجاية أبا الحسين أندلسي آخر، هو أبو القاسم بن أبي جبي الذي تمتع بنفس النفوذ، ودخل في سعايات ومغامرات عديدة (31). وترك أبو الحسين بن سيد الناس ولدا، وهو محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس، الذي لعب دورا هاما في سياسة عصر وولى الحجابة (32). ومن أشهر الأندلسيين الذين بلغوا قمة الرتب يجب أن نذكر أيضا أبا عبد الرحمان يعقوب بن أبي بكر بن محمد بن عمر السلمي، الذي قدم جده محمد من شاطبة مع الجالية. وولى أبو عبد الرحمان بن عمر الحجابة قدم جده محمد من شاطبة مع الجالية. وولى أبو عبد الرحمان بن عمر الحجابة ببجاية، واستبد بها سنة 715 / 1315، «مقتصرا على ذكر السلطات في الخطبة واسمه في سكة» (33)، إلى أن توفي على فراشه في شوال سنة 719 نوفمبرر حجنر 1319.

هذا كان دور الجالية الأندلسية بتونس وهو دور لا يقل عن الدور الذي ستلعبه جالية سنة 1609 رغم أن الأقلام اتجهت إلى الثانية أكثر من الأولى، دور تمتزج فيه السلبيات بالإيجابيات إلى حد كبير، وإن كان الوجود الأندلسي بتونس واضحا فإن السلبيات تثير الكثير من نقط الاستفهام: كيف سمح الأندلسيون لأنفسهم أن ينقلوا معهم إلى بلاط الحفصيين دسائس وسعايتات بلاطاتهم بالأندلس، خاصة وأنهم ذاقوا مرارتها وعرفوا كيف آلت بهم إلى السقوط؟ لماذا لم يحترموا قواعد التركيبة السياسية الحفصية بكل مكوناتها؟

إن الواقع يبين أن الأندلسيين بتونس _ كها حاولوا ذلك في المغرب _ حاولوا أن يفرضوا نوعا من الوصاية الحضارية على تونس. فقد كان أهل الأندلس يحتقرون أهل تونس ويزدرون ببلاطهم خاصة إذا ما قاسوه ببلاطات الأندلس وما كان يسودها من أناقة ورشاقة وترف وظرف، فإذا ما اعتبرنا هذا أدركنا أنه ليس من الغريب أن يخط ابن الآبار:

طغيى بتونس جيلف سموه ظلما خليفة (34)

وقد أظهر ابن الآبار هفوات كشف بها لأعدائه عن مقاتله، فأمر المستنصر «بامتحانه، ثم بقلته قعصا بالرماح» (35) (وسط محرم 658 / آخر دجنبر 1259)، وبحرق شلوه كما احرقت كتبه، ذلك أن ابن الآبار كان يتهم فيها اتهم به بأنه كان يريد الكيد للأسرة الحفصية في شخص الواثق بن المستنصر عن طريق السحر والتنجيم (36).

هكذا كثرت الدسائس والسعايات بين الأندلسيين والحفصيين من جهة وبين الأندلسيين أنفسهم من جهة أخرى إلى درجة أصبح معها الاحتراز هو العملة السائدة. وقد حاول الأستاذ محمد الطالبي أن يلخص سلبيات هذا الوجود الأندلسي بتونس في الفقرة التالية: « . . . إن فيها تقدم دلالة كافية على مدى انهيار سلم القيم وفقدان كل شعور بالمسؤولية. فإذا ما استثنينا أبا عبد الله محمد بن أبي الحسين، فإنه لم يرتفع أي أندلسي ممن خدم الحفصيين إلى مستوى رجل دولة بأتم معنى الكلمة. فإننا مهها أطلنا مطالعة المصادر والححنا في استنطاقها، فإننا لا نلمس أدنى وعي بالمسؤولية نحو الأمة والدولة . وكذلك مفهوم الاخلاص، فإننا لم نكد نعشر له على أثر يذكر فالإخلاص، إذا ما توفر، فإنها يكون إخلاصا لسحص أو لعائلة ، وهو عندها ، مهها يكن الأمر ، لا يحول دون الاختلاس ، وإيداع دفائن المذهب في بطن الأرض احتياطا للطوارىء ، ولا يثبت بحال أمام الدسائس والسعايات ، ولا يمنع من قلب ظهر المجن عند الحاجة (37) .

وقد تحدث الأستاذ الطالبي بعد ذلك على تأثير ذلك على الأمن بالمنطقة قائلا: «كل هذا يكشف عن شعور قوي بعدم الأمن، تولدت عنه عقلية انتهازية قصيرة الرواية، كناقد لاحظناها بالأندلس. ولقد كان الأمن حقا مفقودا في كل المستويات، في مستوى الأرياف _ حيث انتشار الظعن جعل من يزرع لا يأمن أبدا على حصاد ما زرع ـ وفي مستوى البلاط، حيث سوء الظن، والخيانة، والسعاية، والتعذيب، والقتل، وحرق الاشلاء، فتكونت عقلية نسجتها العنكبوت بخيوط التنجيم والطلسهات» (38) . ثم انتقل بعد ذلك الأستاذ الطالبي إلى فقدان الوعي السياسي لدى هذه الجالية وكيف أنهم لم يستفيدوا من تجربتهم بوطنهم الأصلي مقارنا كل ذلك بالوضعية التي كانت تسير نحوها أوروبا آنذاك : «لقد قدم الأندلسيون لاجئين بعدما أضاعوا بلادهم وخرجوا منكوبين من وطنهم ولقد شاهدوا كيف انتصر عليهم المسيحيون بفضل سياسة واعية متواصلة حافزها ومحورها استرجاع الوطن السليب كل هذا كان من شأنه _ مبدئيا _ أن يوقض فيهم الضائر، ويدعوهم إلى التفكير، وإلى حفز الهمم، والأعراض عن الخسائس والسفاسف، ويجعل منهم حرب يقظة وإصلاح، بل - لم لا ؟ حزب اعداد العدة لاستعادة ما اغتصب منهم بالقوة ونحن لا يسعنا إلا أن نسجل أنه لم يكن شيء من هذا لقد كان فقدان الوعي كاملا.

وكل ما فكرت فيه نخبة القوم وأصحاب الأقلام منهم هو أن يعوضوا ثديا ـ بثدي ـ وإن كان أقل نعومة ـ وأن يحتلبوا من بلاطي تونس وبجاية ما تعودوا احتلابه من بلاطات الأندلس احتلابا قضى على الحسناء. لقد حمل الأندلسيون في حقائبهم المرض الذي منه ماتت الأندلس، فزادوا إفريقية ـ في المستوى السياسي ـ مرضا على مرضها. كان ذلك في الوقت الذي عرفت فيه أوروبا انفجارا ديمغرافيا عظيما، ومدا اقتصاديا عارما، وانطلاقة نهضة عمت جميع الميادين، وفي الوقت الذي كان فيه ملوك إسبانيا يضعون الخطط لإعادة المغرب العربي أيضا إلى حضيرة النصرانية وأقل ما يمكن أن يقال في شأن الجالية الأندلسية في هذا الصدد هو أنها لم تكن عاملا إيجابيا» (39) .

- في الميدان الفكري: لا نبالغ إذا قلنا إن التأثير الأندلسي كان أبلغ في الميدان الفكري منه في الميدان السياسي، بحيث أن المد الحضاري الأندلسي كان من القوة بحيث أدخل الكثير من التغيير على الساحة الفكرية بتونس.

التعليم الأولى: نلاحظ أن الأندلسيين احتكروه وأدخلوا إليه أساليب تربوية أندلسية، وهذا ما يوضحه ابن خلدون قائلا: «وأما أهل إفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب، ومدارسة قوانين العلوم، وتلقين بعض مسائلها. إلا أن عنايتهم بالقرآن، واستظهار الولدان إياه، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته، أكثر مما سواه. وعنايتهم بالخط تبع لذلك. وبالجملة، فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس، لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق ذلك متصل بمشيخة الأندلس، وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك» (٥٠)، وقد أدى ذلك إلى اضمحلال الخط الإفريقي وتعويضه بالخط الأندلسي، إذ يذكر ابن حلدون في هذا الصدد: «... ونسى خطة القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعها، وصارت خطوط أهل إفريقيا كلهما على الرسم الأندلسي توس، وما إليها، لتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس.

وبقى منه رسم بسلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الأندلس ولا تمرسوا بحسوارهم وإسما كانوا يعدون على دار الملك بتونس، فصار حط أهل إفريقية من أحسس خطوط أهل الأندلس» (41). إدن فقد عم هذا التأثير محتلف أرحاء البلاد التونسية باستثناء المناطق النائية كبلاد الجريد التي أشار إليها ابن حلدون، وهي بلاد لم تكن تستهوى أبدلسي سواحل بلنسية ومرسية وضعاف الوادي الكبير

التعليم العالى على التعليم العالى يشهد منافسة بين الأندلسيين وأهل البلاد، نظراً لأن التعليم في هذا المستوى يؤدي في كتير من الأحيان إلى الجاه والنفود والشراء. غير أن الحفصيين كانوا يميلون على العموم إلى المدرسين الأندلسيين لشهرتهم وكفاءتهم ولاستغلالهم أيضا في الدعاية لهم، هذا ما وقع مثلاً لأبي بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن سيد الناس الذي كان ظاهري المدهب وعلما من أعلام الحديث، إذ انه لما قدم تونس في جالية اشبيلية، بعدما مكت زمنا ببجاية، استقبله المستنصر أحسن استقبال «وجعل إليه تدريس العلم بالمدرسة، عبد جامع الهواء، التي أسستها أم الخلائف» (42)، وليس من شك في أن ابن سيد الناس هذا الموظيفة فإننا نعلم مثلا أنه قد انتظم في سلك المدرسين أندلسي آخر، هو «الفقيه الحافظ المتقن التاريجي المدرس المحدث أبو العباس أحمد بن محمد القريشي

الغرناطي»، الذي بعدما نزل بجاية، و«انفصل إلى المغرب»، «رجع إلى حاضرة أفريقية ولم يزل عاكفا على التدريس والتذكير، مشتغلا بعلم الرواية والتفسير إلى أن مات ـ رحمه الله» (43).

لكن الملاحظة الأساسية هنا أيضا أنه مها قيل عن المدارس التي أنشأها الحفصيون فإن شأوها لم يبلغ ما بلغ عند المرينيين، وقد فسر الأستاذ الطالبي (44) هذا الفرق بكون إقبال الطلبة عليها كان محدودا بالرغم مما كان يبذل إليهم من منح أحيانا لجلبهم إليها (45). لكن لم يوضح لماذا كان إقبال الطلبة محدودا ؟ إلا يمكن أن يكون السبب هو النفوذ الذي كان يتمتع به الأندلسيون ونظرتهم الخاصة إلى أبناء البلد، في حين أنه بالمغرب كانت المدارس المرينية مسيرة من طرف أبناء البلد وبالتالي لم تكن أية عقدة تفصل الطلبة عن أساتذتهم.

ومهما يكن فإن عدد علماء الأندلس بتونس كان مرتفعا واشعاعهم كان قويا، فلقد أحصى محمد الحبيب بن الخوجة، اعتمادا بالخصوص على رحلة ابن رشيد، ما لا يقل عن 35 عالما أندلسيا (46) كلهم دخلوا إفريقية في القرن 7/3، وأحصى الأستاذ الطالبي (47) في عنوان الدراية للغبريني (توفي 404/704) في نفس الفترة الزمنية، 33 من مشايخ الأندلس ممن مر ببجاية أو استقر بها نهائيا.

النحو: احتل فيه الأندلسيون مكان الصدارة، وقد بزغ فيه على الخصوص:

*) أبو الحسن علي بن موسى الحضرمي، المعروف بابن عصفور وهو اشبيلي (ولد سنة 1270/597)، ومن تآليفه: المغرب والممتع في الاشتقاق، والمغرب في النحو (48).

*) أبو جعفر أحمد بن يوسف اللبلي (613 _ 1216/691 _ 1282)، أخذ عن السلوبين والأعلم البطليوسي وابن لب، وترك تآليف كثيرة من بينها وشي الحلل الذي تعقبه حازم (49).

(عنهم الإمام الناقد واللغوي الشاعر أبو الحسن حازم القرطاجني المولود سنة 121/608 والمتوفى سنة 125/684، صاحب المقصورة والميمية النحوية وكتاب القوافي ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء (50).

الأدب : انتقل إلى تونس في هذه الفترة جمع من مشاهير الأدباء والشعراء نذكر من بينهم على الخصوص :

- أبو الحسن عيسى بن أبي محمد بن الحسين ابن دسيم البلسي المولود سنة
 1218/615 والمتوفى بتونس سنة 293/1283 (61).
- ﴿) وأبو الحسن علي بن أبي القاسم بن رزين المولد بمرسية ، انتقل أولا إلى سبتة تم إجلى بجاية ومنها إلى تونس وأخذ عن ابن نبيل وابن أبي السداد .
- *) ومنهم أبو العباس أحمد بن القاسم بن القصير الاشبيلي، وهو المعروف بصلاته مع رجال البلاط الحفصي وبالخصوص مع الوزير ابن أبي الحسين العنسي. له في المستنصر ورجال دولته المدائح الكثيرة (52).
 - *) ومنهم الشيخ الكاتب الأديب أبو إسحاق بن حبي (64).
- *) ومنهم أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (610/685 ـ 1213/1286)، صاحب القدح، والمغرب في حلي المغرب، والغصون اليانعة في شعراء المائة السابعة (55).
- ﴿) وأبو الحجاج يوسف بن محمد البياسي (توفي بتونس سنة لله 653 هـ / 1255 م)، صنف بتونس 646 / 1248 كتاب الحماسة (66).
- *) كما نبع بتونس في القرن 9/15، شاعران أندلسيان، وهما محمد الخير، الذي قدم من مالقة سنة 864/869 ـ 1460، ومنافسه أحمد بن محمد الخلوف (توفي 899/1494) (67).

غير أن للأستاذ الطالبي رأي في الموضوع إذ يقول: «غير أنه ينبغي أن نؤكد أن هؤلاء الأدباء والشعراء، على نبوغهم في زمانهم وحذقهم في محسنات البديع، لم يقدموا في الحقيقة بجديد، ولم يحدثوا في البلاد نهضة أدبية. ذلك أن الحضارة الإسلامية ـ العربية قد انزلقت في منحدر الانحطاط في كامل الاصقاع، وفقدت روح الابتكار، وغادرها الالهام، وسلبت القوة، فأصبح القوم يتبارون في تأليف باقات لطيفة من أزهار يقطفونها من حدائق الأقدمين، ويصوغون تحفا أنيقة رشيقة من محتار الألفاظ غير أنها تحف ترن بالفراغ، وزاهية بالأملاق، لالب وراءها ولاطائل، كان الأدب في الرسائل المنمقة، وما يتخللها من أشعار تذوب رقة ولطفا، أدب انحطاط بأتم معمى الكلمة، فيه عذوبة الأحلام، وتعاريج الأوهام، وجنة المخدرات. أدب خاصة ترفل في دمقس الألفاظ وحريرها، أو برجوازية أنيقة

بأسلوب حياتها هزيلة بنشاطها، تعيش في جميع الميادين ـ الاقتصادية منها والفكرية ـ على رصيد الماضي، فلا تخلق، ولا تبتكر، ولا تغامر، ولا تغزو أسواقا جديدة لبضاعة تلبي الرغبات الحيوية، وتغذي النشاط، وتفرض نفسها كها وكيفا. كان الأدب مرآة صادقة يعكس عقلية برجوازية انزوت في دفاء تراثها فلا تنشط إلا بمقدار» (65).

العلوم البحتة والتجريبية:

الطب : سبق أن رأينا أن ميدان الطب احتكره الأندلسيون بالمغرب، والأمر لا يختلف هذا بالنسبة لتونس، فقد تولى زمام قيادة هذا العلم جملة من أطباء الأندلس، ويكفي أن نلقي مثلا نظرة على عنوان الدراية لنتأكد من ذلك، ومن بين هؤلاء نذكر :

- *) أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي المعروف بابن اندراس (ت 1372/674 ـ 1373)، يقول عنه الغبريني : «... من أهل مرسيه ورد على بجاية في عشر الستين وستهائة مستوطنا، وتبسط للطب طبيبا باحثا جيدا... وكان ـ رحمه الله ـ متوليا لطب الولاة ببجاية هو وبعض خواص الأطباء بها، ورحل إلى حاضرة إفريقية باستدعاء أمير المؤمنين المستنصر له بعد أن سمع به وعرف خبره. فحضر مجلسه وسئل فأجاب ووافق طريق الصواب، وانتظم في سلك أطبائه، وكان من جملة جلسائه...» (65). وانجب ابن اندراس ابنا، هو أبو يعقوب يوسف (ت بتونس 739/1329)، فبرع أيضا في الطب.
 - أبو العباس أحمد بن خالد من أهل مالقة (60).
- *) أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن عبد الله الخزرجي الشاطبي (ت 1252/631)، تولى غير مرة القضاء إذ يقول الغبريني في هذا الصدد: «... تخطط بخطة القضاء في غير ما بلد، وكان أبوه قاضيا وبيتهم بيت علم وقضاء وتوارث سؤدد، ثم قضى ببجاية فكان في قضائه على سنن الفضلاء وطريق الأولياء والعقلاء... ثم انصرف عن بجاية فولى قضاء حاضرة إفريقية، فكان له فيها الظهور في أحكامه...» (18). ويمكن أن نذكر أيضا محمد بن عيشون، طبيب ابن اللحياني، وأبا الحجاج يوسف، وكلاهما أندلسيان.

علم النبات:

نذكر أبا العباس أحمد بن مفرج المعروف بابن الرومية المولود سنة 1171/567 ، والذي أقام بعد إقامته مدة بتونس عاد إلى اشبيلية ومات بها سنة 1239/637 (63).

وابن البيطار الذي ورد على تونس من مالقة ، له مؤلفات عديدة ، وتابع طريقه نحو الشرق فتوفي بدمشق سنة 646/814 (64) .

الرياضيات:

أهم رياضي أندلسي انتقل إلى تونس في هذه الفترة هو القلصادي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي (توفي بناحية إفريقية سنة 198/1486) (66) بلغت مؤلفاته في الحساب 13 كتابا (66) ، ألف البعض منها في تونس مثل: «كشف الجلباب عن علم الحساب» (67) ، والقانون في الحساب» (كراسة) وشرحه وكتابه «الكليات في الفرائض» وشرحه في نحو أربعةة كراريس (68) . وقد كان آخر من تقدم بمذا العلم بالغرب (69) الإسلامي في العصر الوسيط.

العلوم الشرعية:

برع الأندلسيون كما هو معلوم أيضا في العلوم الشرعية، وقد كانت ضرورية بالنسبة لهم نظرا للفزع الدائم الذي كان يلازمهم خوفا من ضياع هذا العلوم نتيجة التكالب المسيحي على الأراضي الإسلامية. لقد كان العجز المادي واضحا فكان على علماء الشريعة إذن أن يحثوا الناس على الاهتمام بأمور دينهم أن خاصة وأنهم كانوا يربطون جدليا بين ضياع العلوم الشرعية وضياع الأندلس، أي أن المسلمين فقدوا الأندلس حيثها أصبحوا يجهلون تطبيق هذه العلوم، فلا غرابة إذن أن تأتي هذه الفئة من الجالية الأندلسية وهي تحمل معها أفكار محددة لئلا تتكرر مأساة الأندلس بتونس.

وثمة ملاحظة أهم وهي أن أفراد هذه الفئة من الجالية الأندلسية سوف تحاول دائما أن تظهر معظهر الورع والصلاح، ودلك حتى تلغي الصورة التي ألفها سكان

دائيا أن تظهر بمظهر الورع والصلاح، وذلك حتى تلغي الصورة التي ألفها سكان إفريقية عن شعراء وأدباء الأندلس وأنهم السبب في ضياعها، أي أنهم يريدون أن يثبتوا أن هناك أصواتا كانت تنادي بضرورة الاتحاد والجهاد لاسترجاع الثغور، فلا غرابة إذن أن نجد عددا ممن تولوا منصب القضاء _ مثلا _ ذهبوا إلى حد التطبيق الصارم لقواعد الشريعة الاسلامية، مما جعل العامة تتعلق بهم وتضرب بهم المثل في إخلاصهم.

هناك ملاحظة أخرى نعزز بها ما أوردنا سابقا وهي أن المصادر المعاصرة كثيرا ما تحلى أفراد هذه الفد بكلمة «الصوفي الصالح» مما يدعونا للتساؤل عن سبب تكرار هذه الصورة بالنسبة لهذه الفئة ؟ يرجع ذلك في نظرنا إلى المركبات التي حملوها معهم من الأندلس والتي أثبت ـ بالنسبة لهم ـ ألا جدوى في المغامرة في الحياة العملية وأن من الأفضل العزوف عن كل ما من شأنه يجعلها وجها لوجه مع واقع هذه الحياة خوفا من تكرار التجربة. وهكذا كها قلنا ذلك سابقا عكس الفئة الأولى تماما، فقد كانت تتكون من كتاب وأدباء وشعراء ممن سخروا كل إمكانياتهم لتكرار التجربة بتونس بحاس كبير مما أدي بها إلى الدخول في صراع مرير مع الأهالي انتهى في أحيان كثيرة بنكبات ومآسي على الصعيدين السياسي والاجتماعي. وعلى كل فسنعرض لجملة من هؤلاء دون الدخول في التفاصيل، إذ المقصود فقط هو إعطاء نهاذج لأفراد هذه الفئة.

فمن القراء نذكر:

- أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن عقاب الحذامي، وهو من أهل شاطبة، ولديها سنة 1216/613. وقد أخذ عن جماعة من العلماء قبل وفادته على تونس لقيهم على التوالى بشاطبةة وغرناطة ومراكش (70).
- أبو العباس أحمد بن موسى بن عيسى بن أبي الفتح الانصاري البطرني: كان مقرئا للقرآن واسع الرواية (71).
 - *) أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن لب الانصاري المرسي (72).
- *) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حيان الانصاري الأوسي الشاطبي، ولد سنة
 *) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حيان الانصاري الأوسي الشاطبي، ولد سنة

ومن الرواة المحدثين :

- *) أبو الكرم محمد بن إبراهيم بن محمد الحميري، ولد سنة 618 هـ ببلنسية، أخ عن ابن محرز وعن الحافظ الناقد ابن عسكر المالقي (73).
- أبو التقى صالح بن محمد بن سليمان البلنسي عرف بابن شوشن وأصله مر طرطوشة (74).
- *) أبو محمد عبد الله بن يوسف بن موسى الخلاسي، قال عنه الأستاذ محمد الحبيب بن الخوجة: «الشيخ الصوفي الزاهد. . . أحد الصلحاء الفضلاء الأوليا الاتقياء شاع بين الناس فضله وعرفوا قدره بالرغم عن خموله وتواضعه» (75) وهم من أهل بلنسة كان مولده بها عام 610/1213 ، أخذ عن الكلاعي وغيره من علماء المشرق والمغرب.
- *) أبو عبد الحق ابن بربطلة الأزدي المولود بمرسبة حوالي 580/1184 والمتوفى بتونس سنة 1262/661. أخد عن ابن المرأة وابن عات والكلاعي وهو الذي ترأس الوفد الملكي الذي قدم إلى تونس سنة 651-1258 مبايعا المستنصر أمير للمؤمنين إد يقول ابن القنفذ في هذا الصدد: «وفي هذه السنة (657) وصلت بيعة أهل مكة للمستنصر على يدي الشيخ أبي محمد عبد الحق بن سبعين، وكان الواصل بها المحدث الراوية أبو محمد بن برطلة الأزدي الاشبيلي، وكان في ذلك هناك كبير» (76).

ومن الحفاط الفقهاء ندكر .

- *) أبو عبد الله ابن الآبار المار الذكر
- *) أبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف بن جيش اللخمي، المولود بمرسية سنة 19 / 1218 والمتوفى بتونس 1268 / 1268 أخذ عن ابن الولى والرف وابن محرز والوزير سهل بن مالك وابن السفاد وغيرهم ولي قضاء مرسية، وتنقل بين كثير من مدن الأندلس والمغرب هاجر أولا إلى بجاية ومنها انتقل إلى تونس، وولى بها القضاء (77).
- ﴿ البركات موسى بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد القمجي ولد بمرسية سنة ابو البركات موسى بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد القمجي ولد بمرسية سنة 1213/610 .
- *) أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن ابن الغماز البلنسي الخزرجي، ولد ببلنسية سنة 1212/609، أخذ عن ابن محرز وابن عميرة والكلاعي وابن السراج وغيرهم. وقد اتخذ لنفسه في بيته مجلسا للتحديث والاقراء فأخذ عنه الكثير منهم: أبو الحسن التيجاني والغبريني وابن جابر الوادي

آشي، وكان مقربا من السلطان إذ قال تعنه ابن القنفذ في هذا الصدد: «. . وكان ابن الغهاز من سعداء الفقهاء، على أنه لم يقتصر به المستنصر على القضاء بل ناط به أشغالا سلطانية، وكان ينظر له في كثير من الأمور» (79) .

ومن الفقهاء المحدثين نذكر:

*) أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله الأشبيلي المعروف بابن سيد الناس المتوفى بتونس سنة 765/659 ـ 1261/1258. أخذ عنه ابن خروف وابن جبير وغيرهما من العلماء وعنه ابن الزبير وابن بكر، وكان أيضا من جلساء المستنصر، إذ يقول ابن القنفذ في هذا الصدد: «وفي هذه السنة توفي الفقيه المحدث أبو بكر بن سيد الناس، وكان المستنصر رتب لمجالسته أعلاما من الفقهاء والأدباء كالمحدث الحافظ أبو بكر بن سيد الناس المذكور ـ رحمه الله . . . » (80) .

非非非

هذه بصفة عامة أهم التأثيرات التي أحدثها الأندلسيون في الميدان الفكري والعلمي، وهي تأثيرات كانت تزداد قوة أو ضعفا حسب الظرفية السائدة آنذاك، تأثيرات حاول بعض الدارسين أن يوازن بين سلبياتها وإيجابياتها، فغلب بعضهم الأولى على الثانية، وغلب البعض الآخر الثانية على الأولى. فالذين قالوا بالأولى اعتمدوا بالخصوص على المكونات النفسية والعقلية التي أقر بها الأندلسيون (الانهزامية والانتهازية)، والمذين قالوا بالثانية أخذوا بالجانب الامع من الوحود الأندلسي بالمغرب العربي ألا وهو ميدان الفنون بمعناه الواسع، إذ يعتمدون على استمرارية التأثر بالنسبة لهذا الميدان سواء في البناء أو اللباس أو الموسيقى.

فبالنسبة للموسيقى - مثلا - نلاحظ أن التأثير كان أعمق وأخلد مما يدعو للبحث عن مراحل هذا التأثير.

فممن لهم اليد الطولى في إدخال الموسيقى الأندلسية إلى تونس أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الاشبيلي (460 ـ 924/1067 ـ 1134)، ذلك أنه هاحر اشبيلية حوالي سنة 489/1096، أي بعد سقوط طليطلة، واتجه أولا نحو الاسكندرية قبل أن يستقر بالمهدية، حيث لقي في البلاط الزيري أحسن قبول، وبث الألحان

الأندلسية ويروى لنا ذلك المقري فيكتب: «وكان أمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين. وله في ذلك تواليف تشهد بفضله ومعرفته. وكان يكنى بالأديب الحكيم وهو الذي لحن الأغاني الافريقية قال ابن سعيد وإليه نسب إلى الآن» (81). وقد لعب أبو الصلت بإفريفية دورا شبيها بذاك الذي لعبه من قبل زرياب بالأندلس (82).

وعندما قدمت أفواج اللاجئين هيأت للألحان الأندلسية قاعدة أوسع، فخرجت بها من البلاط إلى بيوتات الخواص وإلى الفئات البورجوازية عامة، ذلك أن هذه الفئات البورجوازية الافريقية كانت شديدة الاعجاب بالحضارة الأندلسية فكانت تقلدها في الأدب والشعر، فزادت إلى ذلك الموسيقى لما تهيأت لها الفرص على أوسع نطاق (83).

وشاع الفن الموسيقي الأندلسي خاصة في المدن التي استقر بها الأندلسيون استقرارا كثيفا، وجل تلك المدن على السواحل. ومن جملة هذه المدن بجاية التي كانت المرحلة الأولى التي نزل بها الأندلسيون اللاجئون إلى إفريقية، وكثير منهم ألقى بها عصا الترحال واستوطنها نهائيا كما يتضح ذلك بصفة جلية من خلال تصفح عنوان المدراية للغبريني. ونحن لا نشك في أن استيطان الأندلسيين الكثيف ببجاية هو الذي جعل منها مدينة تشبه اشبيلية في شغفها بالموسيقى وانصرافها الى الطرب، فإن الحسن الوزان الذي زار إفريقية في الربع الأول من القرن السادس عشر يصف أملها هكذا: «والبجائيون أناس طيبون ميالون إلى المرح والموسيقى والرقص، أهلها منهم الأمراء الذين لم يشهر وا الحرب قط على أحد» (١٩٩٩)، ويقول في أهل دلس: «وهؤلاء السكان ذوو بشاشة ومرح، يحسنون تقريبا كلهم العزف على العود والقيثار» (١٩٥٥). فكل هذه الصفات تناسب تماما الأندلسيين ومن تأثر بعاداتهم وأذواقهم من أهل المغرب.

إن هذه الموسيقى التي طرقت باب إفريقية على يد أبي الصلت (توفي 1213/685)، وذاعت في أيام ابن سعيد (610 ـ 635/685 ـ 1286)، وعمت شيئا فشيئا المدن لما وفر لها اللاجئون الأندلسيون من أسباب الانتشار هي ما نسميه اليوم بالمالوف.

في الميدان الاجتماعي:

إن الجالية الأندلسية بتونس ـ كمثيلتها بالمغرب ـ كانت تشعر بوجود خصائص معينة حضارية واجتاعية تفصلها عن بقية السكان مما حال دون انصهارها في مجنمع الافريقي . لقد كانوا يشعرون أنهم في بلد انتقلوا إليه اضطرارا لا اختيارا، وأنهم في بلد انتقلوا فيه على الرتب العليا في سممه، وهدا ما يفسر لنها تهافتهم على المناصب وبقاءهم أقلية متميزة فا سهاتها الخياصة، لقد عرفت تونس ـ كباقي البلدان الاسلامية ـ أقليات، لكن الأقلية الحسلسية كان لتصرفها طابع خاص يميزها كلية عن الأقليات الأخرى، وذلك بفعل المركبات النفيسة والحضارية التي حملها معهم الأندلسيون لقد احتفظ هؤلاء بداتيتهم بعد مرور عشرات السنين من هجرتهم، فبقوا أندلسيين في كل شيء، وليس فقط في أسهائهم التي استمر تداولها إلى يومنا هذا شعوريا ولا شعوريا .

وىستنتج كل ذلك بسهولة مما أورده المؤرخون المعاصرون، فنذكر ـ مثلا ـ أن عبد الباسط بن خليل أورد في كتابه الباسم في حوادث العمر والتراجم إشارات عديدُة إلى دلك، فلقد نزل هذا الرحالة المصري بتونس في 22 ذو القعدة 668/18 غشت 1462، أي بعد قرنين من قدوم جالية شرق الأندلس ثم غربيها، وقبل هجرة جالية غرناطة التي لم تسقط بعد. وبالرغم من مرور هذه الفترة الطويلة من الزمن، التي تعاقبت خلالها ثمانية أجيال، فإنه قد أتيحت لعبد الباسط الفرصة كي يلاحط أن العنصر الأندلسي قد احتفط بذاتيته وكل مميزاته بإفريقيية وسحل لنا تلك الملاحظات في الروض البَّاسم. أتيحت له هذه الفرصة بمناسبة حفل أقامه يوم الأحد 27 ربيع الأول 867/20 دجنبر 1462 التاجر المعظم، الخواجا المكرم، الحاج أبو القاسم البنيولي الغرناطي الأندلسي، نزيل تونس وكبير التجار بها» (86). ولا شك _ كما يفهم من السياق وتاريخ الحمل _ أن هذا التاجر أقام «الضيافة» بمناسبة رجوع الحجيج من مكة، وأنه كان له بينهم عدد كبير من الأصدقاء، ولا سَكُ أيصا أنه كان ذا تروة طائلة ، ومنزلة اجتماعية رفيعة ، إذ قد أقام حفله بحدائق «رأس الطابية من منتزهات ملوك تونس وأمكنة فرحهم» (87). ولا حاجة إلى التأكيد على أن مثل هذا لا يتأتى إلا لاخص الخواص، مما فيه دلالة أخرى على المكانة التي استطاعة أن تحرز عليها الجالية الأندلسية في المجتمع الافريقي. ولقد استدعى الحاج أبو القاسم البنيولي إلى حفله الذي أقامه بمنتزه الخفصيين _ بينها كان السلطان

المتوكل على الله عثمان (839 ـ 893/1435 ـ 1488) قد أشرف على العودة إلى تونس قادما من حرب تلمسان ـ «جماعة من أعيان التجار من أصحابه، والحجاج منهم، من أهل الأندلس وغيرهم» (⁸⁸⁾. كان إذن هناك «أهل الأندلس»، معروفون بساهم، وهناك غيرهم. ولقد أعجب عبد الباسط خاصة بأهل الأندلس، أعجب بظرفهم وذكائهم ، مما دعاه أن يعد اليوم الذي قضاه معهم «يوما معدودا من الأعمار ، سالما من الأغيار، اجتمع فيه عدة من ظرفاء أهل الأندلس وأعيانها، من طلبة علم وتجار، كلهم أهل ذكاء " (89) . ويفهم من عبارة عبد الباسط هذه أن أهل الأندلس كانوا يمثلون أغلبية المدعوين إلى الحفل، مما يؤكد ما قدمناه من أن الجالية الأندلسية بقيت، بعد تعاقب ثمانية أجيال، عائلة كبرى لم تعرف صلات الرحم التي تربط بين أفرادها الفتور. ويظهر هذا (الاعتزاز الأندلسي) أيضا في أسلوب الحفل الذي أقامه الحاج أبو القاسم البنيولي لأصدقائه. ذلك أن هدا الحفل كان «أندلسيا». كان أندلسيا في اختيار حديقة «يجول فيها الماء جولانا غريبا»، ونحن نعلم مدى شغف أهل الأندلس بالطبيعة، وبالمياه الجارية، وبموسيقي النسيم. وكان الحفلل أيضا أندلسيا في المآكل التي قدمت للمدعوين. فعبد الباسط يروي أنهم «هيأوا من جملة هذه الضيافة مأكولاً يقال له المجبنة من مآكل الأندلس. وصفته جبن طرى يدعك بالأيدى حتى يصير في قوام عجين الزلابية بهذه البلاد أو اغلظ قواما منه بيسير، تم يؤخذ منه قطعة تبسط بالكف بلطافة وشباقة ، ثم يجعل عليها قطعة من الجنن المدعوك ويجمع حتى يصير الجبن حشوا لها، ثم يبسط قليلا، ثم يلقى في الطاجن وهو على النار بالدهن، فيقلي، ثم يرفع ويرش عليه السكر المدقوق ناعها ومعه اليسير من الكمون، وعمل ذلك بين يدي الحاضرين، وتولى عمله بعض الجماعة من ظرفائهم وحيث كان القوم (ظرفاء أذكياء) لم يخل حفلهم من أستاذ للشعر، لاسيها وقد حضره شاعران أندلسيان، وهما محمد الخير المالقي وأحمد الخلوف.

في الميدان الاقتصادي:

تعمدنا أن نترك الميدان الاقتصادي إلى الأخير، لا لأن التأثير الأندلسي كال فيه ضعيفا، ولكن فقط لأن الوثائق تعوزنا كثيرا في هذا الميدان، فالمصادر لا تثير إلا لماما لهذا التأثير، وكما قال الأستاذ الطالبي: «فنحن نتوجس هذا التأثر من دون أن تستطيع أن نلمس لمسا حسيا ومفصلا مقداره ووزنه، أو تحدد بدقة مواطنه» (٥٠٠). وسنحاول أن نبدي بعض الملاحظات علنا نستطيع أن نأخذ صورة تقريبية عن هذا التأثير الاقتصادي.

الملاحظة الأولى: كانت تونس في هذه الفترة تعرف فراغا ديمغرافيا، ولاشك أن قدوم أيدي عاملة جديدة ساهم في إعادة التوازن إلى اقتصاد المنطقة، نعم لا نعرف حجم هذا الفراغ الديمغرافي ولا الميادين التي تأثر بها، كما أننا لا نعرف حجم الهجرة الأندلسية ولا نوعية الأيدي العاملة التي أتت مع المهاجرين، ولا الامكانات التي أتوا بها معهم، لكننا مع ذلك تمشيا مع منطق الأشياء نفترض مساهمة هؤلاء في إعادة التوازن خاصة وأن التجربة الموالية والتي ستدرس بغزارة من طرف الباحثين تؤيد وجهة نظرنا.

الملاحظة الثانية: رأينا أن فئة من هؤلاء المهاجرين كانت تبحث عن سبل الارتزاق اما بالانخراط في صفوف الجيش أو في خدمة البلاط أو الاشتغال بالتعليم فأين ذهبت باقي الفئات، خاصة وأننا نعلم مدى براعة الأندلسيين في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة، وبعد أن أثبتت الدراسات التي أنجرت حول الموضوع ما المحنا إليه.

لقد ثبت أن عددا من الأندلسيين استقروا بالمناطق الشهالية الساحلية الآمنة حيث تعدد المجاري المائية، الا نفترض أن هؤلاء استقروا أساسا قرب المناطق الزراعية لأجل استغلال خبرتهم في الزراعة، واستقرارهم مدة طويلة بالمنطقة يدل على تقبل السكان لهم. كما ثبت أن عددا مهما استقر منهم بالمدن الكبرى، ببجاية وتونس على الخصوص _ ألا نفترض أيضا أن هؤلاء اشتغلوا بعدد من الصناعات وطوروها خاصة وأن الأهارقة كانت تستهويهم منتجات الحضارة الأندلسية.

الملاحظة الثالثة: نصل أخيرا إلى الميدان الذي بدأت تسعفنا فيه _ إلى حد ما _ المصادر، ألا وهو ميدان التجارة، وربها برع فييه الأندلسيون أكثر من غيرهم، خاصة التجارة الخارجية إذ ان خبرتهم بالبلاد المسيحية كانت تؤهلهم لأن يلعبوا الدور الحاسم فيها، وقد أوردنا _ سابقا _ نصا لعبد الباسط بن خليل يشير فيه إلى الثروة الطائلة التي حصل عليها الحاج أبو القاسم، البنيولي وإلى وصوله إلى رتبة كرتبة «كبير التجار» مما يدل على أن ميدان التجارة هيمن، عليه الأندلسيون. وخاصة وأن هؤلاء كانوا «منظمين» في إطار (جماعات)، ففي إشارة للغبريني يوضح فيها أن أبا بكر محمد بن محرز ((ت 55 / 1257)):

«كان على رأس الجماعة الأندلسية ببجاية» (٩١) ، ولا شك أن نجاحها يرجع إلى تنظيهاتها ، وهي تنظيهات سبق أن تعودوا عليها وهم بالأندلس .

* * *

هذه بصفة عامة أهم الميادين التي برز فيها التأثير الأندلسي، وهي ميادين تنوع فيها حجم هذا التأثير، فقد بدا واضحا في بعضها وغامضا في آخرها. لكن على العموم نستطيع أن تسجل في الهاية - نهاية هذا البحث عن الجالية الأندلسية بتونس ال تأثيرها كان قويا، وأنه لا يقل عن تأثير الهجرة الثانية التي سوف تأتي بعد الطرد النهائي سنة 1609 - أي الهجرة المورسكية - بل يتجاوزه في ميداني السياسة والثقافة، فالدور الذي لعبه أندلسيو هذه الفترة يفوق بكثير الدور الذي سيلعبه مورسكيو القرن السابع عشر، لسبب وحيد وأساسي وهو أن هؤلاء كابوا يجهلون العربية - لغة التخاطب الثقافي والسياسي - وهو جهل يتجاوز الحدود اللغوية، إلى جهل بالحضارة العربية الاسلامية ككل، وذلك بفعل المهارسات الطويلة والعنيفة التي مورست عليهم وهم بإسبانيا، والتي كانت ترمي أساسا إلى إدماجهم في المجتمع الاسباهي بسيهاته الأوروبية المسيحية

هذا ما يتعلق إذن بالتجربة الأندلسية بتوس، وقد آثرنا أن نقدمها على التجربة الأندلسية بالجزائر في الأندلسية بالجزائر في الأندلسية بالجزائر في العصر الوسيط تبدو بسيطة إذا ما قورنت بمثيلاتها في كل من المغرب وتونس، ولكن مع ذلك سنحاول أن بعطي حولها بعض الايضاحات حتى نستطيع أن نصل إلى الأسباب التي جعلت التجربة الأندلسية بالجزائر بهذا الشكل.

الجالية الأندلسية بالجزائر:

إن الوجود الأمدلسي بالجزائر في العصر الوسيط يبدو صعيفا إذا ما قورن بمتيله في كل من المعرب وتوس ، فالتعقيدات التي صاحبت الوجود الأندلسي في القطريل الأخيريل تكاد تختفي هنا تماما، إد ان الجزائر في الحقيقة في هذه الفترة لم تكل إلا ملجأ لمن فشل في إحدا القطرين ، أو كمحطة انتقال من قطر لأخر (92) . ولعل ذلك يرجع أساسا إلى أن الامارة الزيانية نفسها لم تستطع أن توفر ليفسها المجال الجغرافي

الضروري لحيايتها، إذ أن جزءا كبيرا من الشرق الجزائري (قسططينة، وعنابة، وبجاية، وبسكرة، وتقرت) كان تحت نفوذ الحفصيين، واكتفت هي بالجزء بالغربي من الحزائر متخذة كقاعدة لها تلمسان، في حين الوسط الجزائري منطقة عازلة بين الحفصيين والزيانيين، مما أهله لأن يكون منطقة صراع دائم بين القوتين، خاصة بعد ظهور إمارات محلية صغيرة (63). ولم يكى التنافس مقتصرا على الزيانيين والحفصيين، بل تدخل المرينيون في اللعبة أيضا، تارة ضد الزيانيين المجاورين، وتارة ضد الخوصيين فقد وصلت جيوش المرينيين - كها هو معلوم - إلى تونس والزاب وقسنطينة، كها وصلت جيوش الحفصيين إلى المدية ومليانة وتلمسان (69). وقد لخص وقسنطينة، كها وصلت جيوش الحفصيين إلى المدية ومليانة وتلمسان (49). وقد لخص الحسن الوزان هذه الوضعية قائلا: «وقد استقر الملك في بني ريان تلاتهائة سنة، غير أنهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس، - أي سي مرين - الذين احتلوا مملكة تلمسان نحو عشر مرات، حسبها جاء في التاريخ. وكان مصير ملوك بني زيان حينئد تلمسان نحو عشر مرات، حسبها جاء في التاريخ. وكان مصير ملوك بني زيان حينئد أنم القتل أو الأسر أو العرار إلى المغارات عند جيرانهم الأعراب، وتعرضوا أحيابا أخرى إلى الطرد من قبل ملوك تونس (يعني الحفصيين. . . » (65).

وقد كانه لكل ذلك نتائج خطيرة على جميع الأصعدة، فعلى الصعيد السياسي حرمت هذه الوضعية الامارة الزيانية من البروز كإمارة مستقرة تتمتع بالاحترام اللازم من طرف جيرامها (بمعل القضاء على عدد من أطر الدولة)، وعلى الصعيد البشري حرمت الامارة من قاعدتها البشرية الأساسية (بفعل هجرة السكان إلى القطريس المجاورين)، وعلى الصعيد اللاقتصادي أدت إلى الضعف المستمر للقاعدة الاقتصادية الهزيلة أصلا (بفعل الاعتباد على التجارة مع السودان، وعلى التجارة مع الخارج انطلاقا من وهران التي كانت تتمتع بشنه استقلال ذاتي)، فأمام هذه الصورة، إذن، كان الأندلسيون يفضلون الاستقرار بمكان يستطيعون فييه تحقيق طموحاتهم العلمية والسياسية والاقتصادية وسنحاول من خلال استعراضنا لفصول هذه الصورة أن نلقي بعض الضوء على هذا الوجود الأندلسي بالجزائر، آملين أن ملمس من خلال استعراضنا لبعض مراحل تطورها بعض الضوابط التي كانت تتحكم في سلوك الاندلسيين مهذه المنطقة.

أولا: الصورة إلى غاية القرن السابع الهجري:

تبدأ الصورة في الحزائر بنفس الصورة _ تقريبا _ التي ابتدأت بها في المغرب.

ذلك أن الخلافة الأموية بقرطبة كانت تبحث لها عن قاعدة (أندلسية) تقف بها في وجه المخططات الفاطمية، فكان أن وجدت وهران.

تجديد عمران مدينة وهران :

بإيعاز من قرطبة (96) جدد تعمير المدينة سنة 290 هـ/903 م (79) من طرف أندلسيين، هما: محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون، وجماعة من بحارة الأندلس الذين كانوا يترددون على مرسى وهران، وذلك بمساعدة العشائر المحلية القريبة منها كنفزة ومسفن من ازداجة (88).

وهناك ثلاثة عوامل ـ على الأقل ـ دفعت هذه الجالية الاندلسية لتجديد تعمير المدينة.

1 - عامل طبيعي : توفر المدينة على مرفأ طبيعي هام يجعل السفن بمنآى عن العواصف، ويساعد على رسوها، ويقول اس حوقل في هذا الصدد :

«... ولمدينة وهران مرسى في غاية السلامة والصون من كل ريح، وما أظل له مثلا في جميع نواحي البربر ـ سوى مرسى موسى ـ فقد اكتنفته الجبال وله مدخل أمن...» (99).

- توفر المدينة على سهول واسعة خصبة مع توفر المياه العذبة بها، وذلك ما أكده الادريسي قائلا: «... وشرب أهلها من واد يجري إليها من البر، وعليه بساتين وجنات، وبها فواكه ممكنة، وأهلها في خصب، والعسل بها موجود... » (100).

2 - عامل تجاري: كانت الجالية الأندلسية ترمي بهذا العمل إلى ضهان منفذ تجاري للبضائع الأندلسية داخل القطر الجزائري والسودان، وكذلك تصدير البضائع الجزائرية والسودانية إلى الأندلس، يقول ابن حوقل في هذا الصدد: «... وهي (وهران) فرضة (محط السفن) الأندلس، إليها ترد السلع، وهنها يحملون الغلال... (١٥٥١)، ويقول الادريسي أيضا في هذا الصدد: «... وبها (وهران) أسواق مقدرة وصنائع كثيرة، وتجارة نافقة، وهي تقابل مدينة المرية من ساحل بر الأندلس، وسعة البحر بينها مجريان... ومراكب الأندلس إليها محتلفة . » (١٥٥٠).

3 ـ عامل سياسي : كانت الخلافة الأموية بالأندلس ترمي من وراء ذلك إلى جعلها قاعدة (أندلسية) ضد الفاطميين، وضد الثائرين عليها من أدارسة المغرب، وذلك عن طريق بث دعاتها من قبائل مغراوة القاطنة بالمنطقة . بعد هذا يحق لنا أن نتساءل : كيف كان سلوك الأندلسيين بالمنطقة ؟ نورد في البداية نصا للحسن السوزان، وهو يحمل أكثر من جواب على هذا التساؤل، إذ يقول : « . . . وكان الوهرانيون دائها أعداء لملك تلمسان، لم يقبلوا قط أي وال من ولاته، ماعدا أمينا للمال وقابضا يستلم مداخيل الميناء . وكانوا ينتخبون رئيس مجلس ينظر في القضايا المدنية والجنائية ، كها كان التجار فيها مضى يجهزون على الدوام سفنا شراعية وأخرى مسلحة يهارسون بها القرصنة ، ويجتاحون سواحل قطلونية وجزر يابسة ومنورقة مسلحة يهارسون بها القرصنة ، ويجتاحون سواحل قطلونية وجزر يابسة ومنورقة وميورقة ، حتى أصبحت المدينة تزحر بالأسرى المسيحين» (103) .

نلاحظ أولا أن المؤلف لم ينص صراحة على أبهم أندلسيون، ولكن كل القرائن تدل بالفعل على أنهم أندلسيين، نذكر _ مثلا _ أن الجالية الأندلسية ظلت تتقاطر باستمرار على المنطقة _ كها تؤكد ذلك المصادر التاريخية المعاصرة. تم أن هذا التصرف من قبل الوهرانيين هو في الحقيقة موقف جديد، وهو يشبه إلى حد بعيد تصرف أندلسي المغرب، عندما استقروا بالرباط والقصبة، مما يجعلنا نميل إلى التأكيد بأنهم أندلسيين، أو على الأقل كانوا مسيرين من طرف أندلسيين، فهم في الحقيقة كونوا شبه جمهورية صغيرة مستقلة بالمنطقة تمارس جزءا كبيرا من سيادتها، فإذا كان الأمر كذلك فإذا يعنى هذا ؟

يعني بوضوح أن الجالية الأندلسية هنا أيضا _ كها رأينا ذلك بالنسبة للمغرب وتونس _ كانت تشعر بشخصيتها المتميزة، وبالتالي فإن تصرفها كان ينبثق من واقعها بكل مكوناته النفسية والخلقية.

غير أن وهران لم تكن المدينة الوحيدة التي جدد تعميرها من طرف الأندلسيين، فقد شيدوا أيضا تنس سنة 262 هـ (875 ـ 876)، وأصبحت بذلك موطنا للأندلسيين من أهالي البيرة وتدمر (104)، كها أعادوا الحياة إلى مرسى الدجاج (105) وبنى جدليداس القريبة من تنس (106)، وإلى المسيلة في أوائل القرن الرابع الهجري (107)، وإلى أرزيو التي اشتهرت بتجارها الأندلسيين الذين كانوا يصدرون ملح سباخها إلى الأندلس، (108).

هذا، إذن، ما يتعلق بالوجه الأول للصورة (الناحية السياسية والاقتصادية)، فكيف يبدو الوجه الثاني للصورة (الناحية الاجتباعية والعلمية) ؟ اجتباعيا : إذ ما حاولنا أن ننطلق من الصورة التي يرسمها لنا الوزان عن الحياة الاجتباعية في تلمسان مثلا ـ وكيف يقارنها بمثيلتها بفاس فإننا لنا نجد عناء كبيرا في استجلاء معالمها إذ نجد بصفة عامة أن تلمسان ظلت محافظة على طابعها المغربي الأصيل، فهو يذكر مثلا ـ في مجال العمران : «إن دور تلمسان أقل قمة بكثير من دور فاس» (109)، كما يذكر في مجال التصرفات المعاشية للسكان أن سكان تلمسان أكثر سخاء من سكان فاس (110). وواضح أن الفرق بين المدينتين يرجع بالأساس إلى الأساليب العمرانية والمعاشية الجديدة التي دخلت مع الأندلسيين إلى فاس (111).

علميا: لا تختلف الصورة هنا عن سابقتها أيضا، فقد ظلت الجزائر في هذه الفترة بمناى عن المؤثرات الأندلسية التي رأيناها بالنسبة للمغرب وتونس، وظلت تتراجع باستمرار بفعل الأوضاع التي أوضحناها سابقا، ويكفي أن نلقي نظرة على ما كتبه العبدري ـ وقد زار المنطقة ـ لنتأكد من ذلك، فقد كتب عن تلمسان عند زيارته لها ما يأتي: «. . . وأما العلم فقد درس رسمه في أكثر البلاد، وغاضت أنهاره فازد حم على الثهاد . . . وأما الفقه عندهم فطويل الاغتراب . . . » (112) ، ويقول عن مليانة : « . . . وما بقي بها من له بالعلم أدنى عناية . . . (113) ، ويذكر عن الجزائر : « . . . فلم يبق بها من هو من أهل العلم محسوب ولا شخص إلى فن من فنون المعارف منسوب . وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف كربة . وأديب يؤنس غربة فكأني أسأل عن الأبلق العقوق أو أحاول تحصيل بيض الأنوق» (114) .

قد يتساءل البعض لماذا هذا الربط الجدلي بين انعدام المؤثرات الأندلسية وخمول النشاط العلمي بالمنطقة ؟

إن الباحث لا يزعم أبدا أن أي ازدهار علمي بالمنطقة كان رهينا بقدوم (العلم الأندلسي) إليها، لكن حاولنا أن نبين فقط أنه كان بالامكان أن تكون الصورة مغايرة تماما لما رأيناه في حالة ما إذا لو استقرت شخصيات علمية أندلسية بالمنطقة، فقد رأينا الدور العلمي الذي لعبه الأندلسيون في كل من المغرب وتونس.

كيف تتجلى الصورة في القرن الثامن الهجري:

الملاحظة الأساسية هنا أن صورة التأثير الأندلسي ستبدو واضحة أكثر نتيجة استقبال الإمارة الزيانية لجاليات أكثر من المرحلة السابقة بفعل سقوط عدد من الثغور الأندلسية واكتظاظ الساحتين المغربية والتونسية بالأندلسيين، فجدوا في البحث عن (أماكن شاغرة) لاشتثهار مواهبهم السياسية والعلمية والاقتصادية في القطر المجاور.

وقد ذهب جورج مارسي (115) G. Marçais وراشيل أربي R. Arié وهما بصدد الحديث عنه التأثيرات الأندلسية المتسربة إلى مملكة بني عبد الواد _ إلى أن بلاط تلمسان فقد _ في بداية القرن الثالث عشر الميلادي تحت حكم أبي حمو موسى الأول _ طابعه البدوي بفضل التأثير الأندلسي .

وتطرقت الأستاذة راشيل أربي بعد ذلك إلى التأثير في المجال السياسي فأوضحت أن أربعة من وزراء الأمير الزياتي كانوا من عائلة أندلسية (تقصد عائلة ابن الملاح من قرطبة)، وأن أكبر أمير زياني (أبو حمو موسى الثاني) كان ذا ثقافة أندلسية، وأنه كان يختار مساعديه الرئيسيين من بين أفراد حاشيته الأندلسية، وذكرت في هذا المجال يحي بن خلدون (من أصل اشبيلي)، ومحمد بن يوسف القيسي الأندلسي الذي خلد الأحداث الكبرى التي شهدها عصر الأمير الزياني. (117)

كما أن وليام مارسي W. Marçais لاحظ أن الاشعار المتداولة إلى بداية القرن العشرين من طرف فتيات تلمسان تذكرنا في نسقها بالزجل الأندلسي (118).

وقد تعمد الباحث إيراد أقوال الباحثين الفرنسيين حتى نتمكن من إبداء ملاحظاتنا حول ما أورداه.

الملاحظة الأولى: ذهبت الأستاذة آريي _ ومعها مارسي _ إلى أن بلاط تلمسان فقد طابعه البدوي بفضل التأثير الأندلسي، ولكنها لم تذكر مجالات هذا التأثير، فهل يكفي أن يحيط الأمير الزياني نفسه بأربعة وزراء أندلسيين وبشاعر أندلسي لتنسب

إلى الجمالية الأندلسية بالجمرائر ما سمت (سالعمل التحضيري) L'action civilisatrice ، معرضة عن الدور المغربي بتلمسان وما قام به ملوك بني مرين هناك .

الملاحظة الثانية: لقد حاول جورج مارسي أن يستخلص ـ من خلال اشعار معينة قال عنها أنها ذات نسق أندلسي ـ نتائج بعيدة قد تؤدي إلى عكس ما هدف إليه الباحث الفرنسي.

نعم ان الرواية الشفوية في هذا المجال أسلوب من الأساليب التي لا غنى للباحث عنها، لأنها تمكننا من تفسير بعض القضايا التي نعثر عليها في الوثائق المكتوبة. لكن يجب الحذر في مثل هذه الحالة قبل الأقدام على أي استنتاج من شأنه تشويه الحقائق، فالاشعار مثلا - التي لاحظ الأستاذ مارسي أن فتيات تلمسان ينشدونها، اشعار مر عليها وقت طويل ولاشك أن هناك تغييرات قد دخلت عليها بفعل الاحتكاك بالمؤثرات الداخلية والخارجية والأمر يتطلب هنا تسجيل هذه الاشعار ومقارنتها بنصوص زجلية أندلسية مكتوبة حتى نتمكن من تحديد درجة التأثير. وحتى ان تأكدنا من حصول هذا التأثير، فإن هذا - في نظرنا - لا يعدو أن يكون جزئية صغيرة لا تسمع لنا بإصدار أي حكم عام من مظاهر حضارية أندلسية في كل من المغرب وتونس.

الملاحظة الثالثة: ان الأستاذة أربي لم تستطع أن تثبت وجود أقلية أندلسية متهاسكة، لها تأثيرها السياسي والاقتصادي المعين. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن المصادر المعاصرة نفسها لم تشر إلى وجود مثل هذه الأقلية، ذلك أن أفراد هذه الجالية يتعاملون فرادى مع السلطة. ان التجربة الأندلسية بالجزائر لم تستطع أن تنفذ إلى الأعهاق ـ كها وقع بالنسبة للمغرب وتونس ـ لأن أفراد هذه الأقلية لم يجدوا قاعدة أندلسية قوية يرتكزون عليها، فكان بذلك دورهم محدودا.

الجزائر من خلال الكتابات الأندلسية :

لعل الصورة تبدو جلية أكثر إذا ما حولنا تتبع ما كتبه الأندلسيون الذين زاروا المنطقة، وهم اما أوضحوا رأيهم في كتاباتهم أو أعرضوا عن ذلك. والتفسير في مثل

هذه الحالة الأخيرة يحتمل أكثر من معنى وسنختار ـ لإبراز نوعية هذه الكتابات ـ ثلاث شخصيات لا تخفى أهميتها.

أولا: إبراهيم بن الحاج النميري.

قام برحلة سنة 745 هـ / 1344 ـ 1355 وزار خلالها تلمسان ومليانة ، (120) ولكنه لم يذكر أي شيء مهم عنها فلم يذكر ـ مثلا ـ أنه التقى بشخصيات أندلسية معينة أو سمع بها، مما يدل أن المنطقة لم تكن ـ في رأيه ـ المكان الملائم له ، في حين أفاض في الحديث عن أندلسي التقى به في منطقة صغيرة بالمغرب (أنفا) ، إذ يقول : «الشيخ الفقيه الجليل الأستاذ المقرىء الىاقد المتفنن النحوي العارف العدل الشهير أبو الحسن علي بن إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن علي الأموي المعروف بالرقاص .

أصل سلفه من لورقة وخرج منها جده إبراهيم بن علي لما استغلب عليها وكان سلفه يعرفون بها ببني الرامي واستقر جده إبراهيم المذكور بغرناطة وأقرأ بها القرآن وبها توفي، وانتقل ولده علي إلى فاس وبها توفي واستقر ولده إبراهيم بالقة وبها ولد صاحبنا أبو الحسن بين عام خمسة وسبعائة وعام عشرة . . .» (121) ، إلى أن يقول : «كان لقائي بهذا الفاضل بالقة وبها استفدت منه وعرفت معارفه وكان له اعتقاد في جانبي وذلك في عام ستة وثلاثين وسبعائة ثم لقيته بسبتة عند قدوم مولانا عليها ثم لقيته بأنفا وهو اليوم يقرىء بمدرستها التي بناها مولانا _ أيده الله _ بالجامع الأعظم منها، ويقرى اليوم تفسير الكتاب العزيز والموطأ وابن الحاجب الفقهي والرسالة وتسهيل الفوائد والجمل والكراس الجزولي.

وقرأت عليه بأنفا الحديث. . . » (122) .

وقد أتيحت له الفرصة ـ مرة ثانية ـ في إطار مهمة دبلوماسية لزيارة تلمسان سنة 763 هـ، وقد كان القصد من هذه المهمة طلب مديد المساعدة لملكة غرناطة اثر اشتداد الضغط المسيحي عليها (123) . غير أن التشاؤم واليأس في الحقيقة كانا يسيطران عليه، إذ أنه كان ينوي فعلا الخروج من الأندلس، لكن ليس إلى تلمسان ولكن الى المغرب لخدمة بني مرين، فلا عجب أن يردد في آخر رحلته قول صاحبه إلى الحسن الرقاص وهو بأنفا:

ونلت به عزا وكنت به صدرا فها أضيق المثوى وما أوسع الشبرا (124)

إذا كنت في شبر من الأرض مكرما فعد عن المشوى وإن كان مسقطا

ثانيا: خالد بن عيسى البلوى

خرج البلوي من بلده قتورية بالأندلس سنة 736 هـ، وأول مدينة صادفته من مدن الجزائر هنين، ثم انتقل منها إلى تلمسان (125)، ولم يذكر من الأندلسيين إلا قبر أبي مدين الدي ذكر أنه زاره مرتين (126)، ووصل بعد ذلك إلى الجزائر التي مدح أهلها وطبيعتها. لكن البلوي يصل إلى ما كان يتخوف منه الأندلسيون بالجزائر في هذا الصدد: «... فدخلنا في أمر عظيم، وطريق غير مستقيم، وعذاب يوم عظيم، نصعد على التهائم ونغور في النجود ونسلك كل مخدع لم يكن بالمألوف ولا بالمعهود. ولا كان مسلكا إلا للذئاب واللصوص والأسود، إلى شعراء بالخوف مشعرة، وأرض خالية مقفرة، وجبال منخرقة في الجو وعرة، تقطع الأسباب، وتخلع الألباب، وتذكر الصراط والميزان والحساب. . فبقينا نكابد عظيم ذلك الأمر، ونسير ولا نفارق ساحل البحر. . . » (127). وبطبيعة الحال لن يروق هذا الوصف للأندلسيين المذين كانوا يبحثون عن أماكن استقرار، مما يجعلنا نميل إلى أن الكتابات الأندلسية _ في هذه الفترة الحاسمة _ ساهمت في تهيئة الأندلسيين نفسيا لعدم الاستقرار المكثف بالمنطقة .

ثالثا: يحيى بن خلدون

تختلف شخصية يحيى بن خلدون عن سابقيه في شيئين :

أولا: تختلف عنها في أن عائلة ابن خلدون استقرت بالمغرب العربي منذ وقت غير قصير، إذن فقد خبر أفرادها سلوك المغاربة تجاههم وبالتالي فإن الفروق بينهم وبين المغاربة لم تكن بنفس الحدة بالنسبة للأندلسيين الطارئين.

ثانيا: دخل يحيى بن خلدون ميدان التجربة العلمية فيارس مهام سياسة بالفعل، وكان له فيها تصرفات معينة، في حين أنه لم يدخل سابقاه في أي تجربة في هذا الميدان من شأنها أن تبرز لهم سلوكا معينا.

وسنحاول من خلال استعراضنا لمراحل هذه التجربة أن نبين ملامح الصورة التي رسمتها هذه الشخصية ومقارنتها بالصورة التي سبق أن رسمت من طرف أندلسيين سابقين في هذا الميدان كأخيه عبد الرحمان وابن الخطيب.

التجربة:

لقد شغل يحيى بن خلدون مناصب سياسية وإدارية في خدمة الأمير أبي عبد الله الحفصي، وفي خدمة السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني، ثم في بلاط الأمير عبد العزيز المريني، ثم عاد أخيرا إلى خدمة أبي حمو الثاني بتلمسان، حيث قتل في رمضان سنة 780 هـ وهو لا يزال في مقتبل عمره، وفي بداية مرحلة الانتاج الفكرى.

وكانت السنوات السبع التي قضاها بتلمسان أزهى أيام هذه الفترة الهامة من حياته، فكان التأليف الوحيد الذي انتجه يتناول تاريخ الدولة العبد الوادية.

نشاطه قبل دخوله في خدمة أبي حمو موسى الثاني:

نجده أولا يقوم بخدمة الأمير أبي عبد الحفصي لمساعدته على امتلاك إمارة بجاية. ولاشك أن السلطان أبا سالم المريني عينه في هذا المنصب لما يعلم فيه من الدهاء لاتصالاته بعرب المنطقة (128). وقد قرر الأمير الحفصي مساعدة السلطان أبي حمو الثاني، فأرسل يحيى بن خلدون إلى تلمسان ليقوم بهذه المهمة، وفعلا أنجز هذه المهمة بمهارة (129).

وقد أعاد الأمير الحفصي الكرة مرة ثانية فذهب بنفسه صحبة يحيى بن خلدون إلى بلاط أبي همو الثاني، لكن الأمير إسحاق الحفصي فطن لذلك فأخفق هذه المساعي (130). وعندما خاب أمل يحيى بن خلدون والأمير أبي عبد الله في نجدة أبي همو، اتجهت انظارهما مرة أخرى إلى قبائل الدواودة، وفعلا فقد تمكن من استرجاع إمارة بجاية سنة 765 هـ (131).

لكن لم تلق إمارة أبي عبد الله النجاح المرجو، وترجع أسباب ذلك إلى سوء معاملة الرعية وحتى لا حلافه من العرب، وإلى أصراره على مناهضة ابن عمه أبي العباس، أمير قسنطينة، اقتحمت جيوش هذا الأخير إمارة بجاية سنة 767 واستولت عليها وقتلت الأمير عبد الله الحفصي، وألقي القبض بعد ذلك على يحي بن خلدون وحجزت أمواله، لكنه تمكن من الفرار والالتحاق ببلاط أبي حمو الثاني (132).

تلك كانت المرحلة الأولى من تجربة يحيى بن خلدون وهي تجربة قاسية، لكن طموحه الأندلسي دلل له كل الصعاب وكرر التجربة مع امٍارة الزيانية.

في بلاط الأمير أبي حمو الثاني

من أهم العوامل التي دعت الأمير الزياني إلى استدعاء يحي المشاكل السياسية الخطيرة التي كان يواجهها من جراء الفتن التي أحدثتها، في المنطقة الشرقية، ثورة ابن عمه أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد الثاني، فكان القضاء على منافسه هذا يتطلب الحصول على مساعدة عرب رياح وخاصة قبيلة الدواودة السالفة الذكر. (133) وفعلا فقد أرسل الأمير الزياني خديمه يحي إليهم ونجح في مهمته (134). فكان لذلك أحسن الوقع في نفس الأمير الزياني وعينه كاتبا له، وقربه إليه وجعله من مستشاريه، وعندئد طاب المقام ليحي بتلمسان واستقر هناك (136). وقد مكنت هذه الإقامة يحيى من الاتصال بالشعراء والأدباء والعلماء الذين كان يزخر بهم بلاط أبي هو الثاني مما أفاده في تكوينه العلمي (136). غير أن الأمر لم يستقر للأمير الزياني مما جعل إمارته تشتعل مرة أخرى بالفتن والاضطرابات إلى أن استولى عبد العزيز المريني على تلمسان في سنة 272 هـ، فقرر يحيى الالتحاق بالبلاط المريني (137).

في البلاط المريني :

التحق في هذه الآونة لسان الدين ابن الخطيب بالبلاط المريني بتلمسان فكانت فرصة ليحيى للاستفادة منه مما كان له أكبر الأثر في تكوينه العلمي. وقد سارت الأمور على أطيب حال بتلمسان تحت ظل السلطان عبد العزيز المريني إلى أن توفي أخيرا سنة 774 هـ (138)، وعنذئذ انتقل البلاط المريني إلى فاس فاتجه على أثر

ذلك يحيى وابن الخطيب إلى العاصمة المرينية، والظاهر أن يحيى لم يجد أية صعوبة في الحفاظ على مكانته بالبلاط المريني.

لكن الفتن والاضطرابات والدسائس التي كانت تحاك في البلاط المريني حالت دون بقاء يحيى بفاس خاصة بعد قتل ابن الخطيب في سجنه، بعد أن اتهم بالزندقة وحوكم وعذَّب. وهكذا التحق مرة ثانية ببلاط أبي حمو الثاني بتلمسان (139).

عودته

بعد فراق دام أربع سنوات، لم يجد يحيى بن خلدون بدا من الرجوع إلى بلاط أبي حمو الثاني، معترفا بزلته، طالبا العفو والصفح، ومما ساعد على ذلك أن الأمير الزياني كان في حاجة إلى مستشار مخلص يساعده على حل المشاكل الخطيرة التي كانت تواجه إمارته. لكن الأمور لم تدم على هذا الشكل طويلا، إذا أصبح البلاطّ الزياني منذ أوائل سنة 779 هـ مسرحاً للمناورات، وقد كان يحيى نفسه ضحية لهذه المناورات إذ أودت بقتله في سنة 780 هـ (140).

هكذا نلاحظ، إذن، أن نفس الصورة التي رسمت من طرف ابن الخطيب وابن خلدون تتكرر بالنسبة ليحيى ، وهي صورة لا يمكن فهم ملامحها الا من خلال الإطار الأندلسي الذي سبق أن أوضحناه.

شخصيات أندلسية بالمنطقة:

تنوعت اهتمامات الشخصيات الأندلسية التي استقرت بالمنطقة، فهناك شخصيات آثرت الميدان العلمي، مفضلة الابتعاد عن كل (مشاغل الدنيا) لأن (أمور الآخرة أهم وأنجح)، وهو اهتام تطور من مجرد اهتهام بالعلم إلى زهد وتصوف، في حين آثرت شخصيات أخرى المغامرة في الميادين السياسية والعسكرية، وكان لبعضها سلوك معين وسنتعرض لبعض الشخصيات التي من شأنها أن تزيد من توضيح صورة هذا الوجود الأندلسي بالمنطقة.

* أبو العيش بن عبد الرحيم الخزرجي:

اشبيلي الأصل، ذكر يحيى بن خلدون أنه: «كان أديبا بارع الكتابة، ساعرا محيدا، رائق الخط، ذا مشاركات في فنون العلم، مؤلفا متقنا، فسر الكتاب العزيز وسرح الأسماء الحسنى، وصنف عقائد أصولية في الدين، وكنبا في أصول العقه، وله في التصوف نظم حسن كثير في الزهد وسبل الخير والوعظ وتنزله الباري سبحانه وتعالى» (141).

* عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي :

ولدا السابق، قال عنه يحيى بن خلدون: «عالم متفنن، دو علم بالوثائق، وخط بارع، خطيب الجامع الأعظم بتلمسان وأمامه رحمة الله عليه» (142). كما ذكر أمه: «هو جد الفقيه أبي زكرياء يحيى بن محمد بن عبد الرحيم هدا، صاحب الأشغال العلية الآن بباب مولانا أمير المسلمين أبي حمو أيده الله، رجل خير، فاضل، دو معرفة بالفرائض، وبصر الحساب والهندسة حج وخطب نائبا بجامع فاس الجديد، فاستجيدت خطبته» (143).

* أبو الحسن ابن الصيقل:

هو يحي بن عيسى بن علي بن محمد بن أحمد المرسي، دكر يحي بن خلدوں عنه أنه «كان راوية للحديث عدلاً صالحا» (144).

الله أبو مدين شعيب :

هو شخصية صوفية مشهورة توسعت في ذكر مناقبه كتب التراجم، لكننا سنقتصر على ترجمة يحي بن خلدون له لأنها تمثل رؤيا أندلسية لشخصية أندلسية كها سيتأكد ذلك فيها بعد، وهكذا فقد قال عنه: «الشيخ الصالح قطب العارفين وشيخ المشائخ أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري، منشؤه قطنيانة من قرى اشبيلية، واجاز البحر إلى المغرب. . . واستوطى بجاية فاستهر بها خبره وعلا في مقام الولاية صيته . . . فلما بلغ تلمسان أعجبته خارجها قرية ، فسأل عن اسمها فقيل : العباد، ففال أي موضع هو للرقاد ، فمرض يومئذ ومات ، ودفن هنالك » (145) .

*أبو عبد الله الحلوي:

قال يحيى بن حلدون عنه: «الشيخ الولي أبو عبد الله الشوذي الاشبيلي المعروف بالحلوي نزيل تلمسان، من كبار العباد العارفين» (146). واسترسل بعد ذلك في ذكر بعض مناقبه.

* أبو بكر ابن خطاب الغافقي :

هو محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي، نزيل تلمسان من أهل مرسية، ذكر عنه يحيى بن خلدون أنه «كان من أبرع الكتاب خطا وأدبا وشعرا، ومعرفة بأصول الفقه، كتب بغرناطة عن ملوكها، وقفل إلى مرسية، وقد اختلت أمورها، فارتحل إلى تلمسان، وكتب بها عن أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بن زيان، وتوفي بها يوم عاشوراء سنة ست وثلاثين وستائة» (147).

* أبو بكر بن سعادة الاشبيلي :

ذكر عنه يحيى بن خلدون أنه: «كان مجودا للقرآن، ضابطا، محدثا، نقادا، عالي الرواية، نزل تلمسان وعمر بها، وتوفي في رجب سنة ستمائة» (١٩٤٠).

* أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي :

شيخ عبد الرحمان بن خلدون، وقد أكد أصله الأندلسي قائلا: «أصله من جالية الأندلسية، من أهل آبلة، من بلاد الجوف منها، أجاز أبوه وعمه أحمد، فاستخدمهم يغمراسن بن زيان، وولده في جندهم» (149). وقد كان أبوه إبراهيم فائدا بهنين من قبل الزيانيين، فلما ملكها المرينيون اعتقل، وتحول ابنه اثر ذلك إلى بني مرين حيث صار قائدا لجند الأندلسيين بتاوريرت. لكن ذلك لم يرق له واتجه إلى الحج (150). وقد رجع إلى تلمسان بعد أن صادق ذلك مهلك السلطان المريني يوسف بن يعقوب وخلاص أهلها من الحصار. وذكر تلميذه عبد الرحمان بن خلدون أن «همته انبعثت إلى تعلم العلم. وكان مائلا إلى العقليات» (151). وقد أورد أبو حمو صاحب تلمسان - بعد أن استقرت له الأمور - أن يستخدم الابل في «ضبط

أمواله ومشارفة عماله» (152) لكن الشيخ الابلي تفادى ذلك، ففر إلى المغرب واستقر مدة بتونس، ورجع إلى تلمسان بطلب من أبي عنان المريني ـ كان قد ملك تلمسان من بني عبد الواد ـ الذي «نظمه في طبقة أشياخه من العلماء» (153).

* أبو القاسم محمد بن يحي البرجي :

ذكر صاحب عبد الرحمان بن خلدون أنه أقام مدة بتلمسان، لكنه لم يذكر نشاطه هناك (¹⁵⁴⁾.

* عائلة ابن الملاح :

ذكر يحيى من حلدون أن الأمير الزياني أبا حمو بن أبي سعيد «ألقى تقاليد الوزارة والحجابة إلى محمد بن ميمون بن الملاح، ثم ولده محمد الأشقر، ثم ولده إبراهيم وعمه علي بن عبد الله» (156). وذكر أنهم من «بيت سراوة من أهل قرطبة، احترافهم السكاكة، أولوا مانة فيها ودين» (156).

استخلاص :

لاحظنا أن جل الشخصيات الأندلسية التي تعرضنا لها ذكرها يحيى ابن خلدون في كتابه بغية الرواد، مما يدعونا إلى البحث عن الأسباب التي قد تكون دفعته إلى أن يخصص لها هذا الحجم من الكتاب.

نلاحظ أنه فاتح القسم الأول من كتابه بقصيدة لفقيه أندلسي _ وقد نص على ذلك صراحة _ هو أبو عبد الله محمد بن يوسف الثغري الأندلسي، يمدح فيها تلمسان (157) ، ثم انتقل بعد ذلك مباشرة إلى الفصل الثاني حيث استعرض مجموعة من الشخصيات الأندلسية المستقرة بالجزائر (168) . إن كل القرائن تفيد _ بالإضافة إلى كوبه كان يرمي إلى الحصول على رضى الأمير الزياني أبي حمو الثاني _ كان يريد تقديم (أوراق اعتهاده الأندلسية) لمخدومه ، إذ من شأن ذلك أن يؤدي إلى التعرف على إمكانات الجالية الأندلسية السياسية والعلمية بالخصوص ، وبالفعل فقد استخدم عدد من الأندلسيين كوسطاء بين الأمير الزياني وعرب المغرب الأوسط

الثائرين. ولاشك، من جهة ثانية أن الأمير الزياني كانت لديه صورة خاصة عن الدلسي المغرب الذين كانوا يتهالكون على البلاط المريني ودورهم في الصراع الدائم بينه وبين هذا الأخير فأراد إذن يحيى بن خلدون أن يمحو هذه الصورة بذكر عدد من الصلحاء والزهاد والمتصوفة وهو يرمي بذلك إلى شيئين:

أولا: أن هناك فئة من الأندلسيين زهدت في الدنيا وأعرضت عن السياسة والمال وبالتالي فهي لا ترغب إلا في الاستقرار فيي اطمئنان بالمنطقة، وبالتالي فهي لن تتدخل لتأييد هذا التأثر أو ذاك سواء كان من داخل المنطقة أو خارجها بل سوف تلتزم الحياد الكلي إزاء جميع الأطراف.

ثانيا: إن الحصول على تأييد هؤلاء الزهاد والمتصوفة معناه الحصول على تأييد العامة ، لما تكنه لهم هذه الأخيرة من تقدير واحترام .

* * *

وبعد، هذه جوانب من أهم التطورات التي عرفتها الساحة الأندلسية بالمغرب العربي، ركزنا فيها جهدنا على المغرب الأقصى باعتباره المنطلق والهدف، وقارناه بعد ذلك بالتجربة الأندلسية في كل من تونس والجزائر. وقد لاحظنا من خلال كل ذلك مدى حجم وتعقد التجربة في كل من المغرب وتونس وبساطتها بالنسبة للجزائر لعوامل سبق أن أوضحناها.

وعلى كل فإننا نلاحظ ثلاثة أنهاط من السلوك الأندلسي بالمغرب العربي:

سلوك فئة العلماء:

حاولت هذه الفئة إبراز (العلم الأندلسي) ومدى إشعاعه على الساحةة الفكرية بالمغرب العربي. وقد تفرع سلوك هذه الفئة إلى قسمين: فئة حاولت الارتزاق منه، وذلك عن طريق الدخول الى بلاطات المغرب العربي أو عن طريق التعليم في المساجد والزوايا. وفئة أخرى عزفت عن ذلك، واتجهت كلية الى التفرغ للتعليم وقد تطور ذلك - كها قلنا - إلى زهد وتصوف، وذلك نتيجة التجربة المريرة التي اجتازوها في الأندلس والتي خلقت في أنفسهم اليأس والتشاؤم كها خلقت في أنفسهم كذلك قناعة مطلقة بألا جدوى من المقاومة، ناسين أن الأندلس قد سقطت وهي تغص بالعلهاء والأدباء والشعراء.

سلوك فئة الصناع والحرفيين:

هؤلاء، لكونهم كانوا يكونون فئة وضيعة في الأندلس نفسها، فإنهم لم يطمحوا في المغرب العربي إلى مناصب سامية أو قيادية، بل كان كل همهم ضهان موارد عيشهم. لكن هذه ألفئة ـ كها أوضحنا ذلك سابقا ـ وجدت نفسها وجها لوجه مع صناع وحرفيين تقليديين منافسين مما أدى إلى وجود نوع من الصراع الاقتصادي، غير أن حدته كانت تتضاءل باستمرار مع مرور الزمن.

سلوك فئة العسكريين والسياسيين:

هذه الفئة هي التي ستدخل في صراع حاد بالفعل مع المغاربة، إذ أتى أفراد هذه الفئة وهم يحملون (أوراق اعتباد أندلسية) تبرز ماضيهم العريق في السياسة والقضاء والحسبة، فكانوا بذلك دائما يطمحون إلى الوصول إلى مناصب قيادية. وإذا ما حاولنا استعراض المر احل التي كان يخطوها هؤلاء للوصول إلى البلاط، فإننا نجد أنها كانت تجرى على الشكل الآتى:

المرحلة الأولى: الدخول في اتصالات مع بلاطات المغرب العربي عن طريق وسطاء أو بصفة مباشرة، وهي مرحلة غالبا لم تكن فيها مشاكل، لأن أمراء المغرب العربي كانوا في حاجة إلى الاسترشاد بذوي الرأي، نظرا لمشاكلهم الداخلية والخارجية.

المرحلة الثانية: المهارسات السياسية بالفعل، اما كوزراء أو مستشارين أو حجاب، وقد حقق بعضهم نجاحات باهرة وعبروا بذلك عن كفاءتهم ومقدرتهم، لكن طابع الاستحواذ على السلطة هو الذي كان يسود سلوكهم.

المرحلة الثالثة: بدأت النخبة المغربية التقليدية داخل البلاط تشعر أنها همشت وأن مقاليد الأمور أصبحت تفلت من يديها من هنا بدأت المؤامرات والدسائس تحاك ضد هذا أو ذاك، أو هذه الفئة أو تلك، فكان الصراع عنيفا بينها، وغالبا ما كان ينتهي هذا الصراع بفشل الفئة الطارئة، فكان مصير أفرادها إما القتل أو الإبعاد.

ويرجع هذا الفشل _ أساسا _ إلى أن الأندلسيين كانوا يحققون نتائج إيجابية بالنسسة لهم _ في إطار بنية سياسية تقليدية منظمة لها قواعدها وأعرافها وتقاليدها،

إذ كانوا يقومون بدراسة لهذه البنية ويركزون فيها على مواطن الضعف الاستغلالها. لكن عندما تتعرض هذه البنية ـ الهشة أصلا ـ لاختلال في هيكلها (نتيجة الفوضى التي كانت تعم أقطار المغرب العربي بفعل تدخل القبائل) فإن المبادرة إذ ذاك تخرج من يد الأندلسيين لتصبح في يدي الأقوى.

* * *

وفي الختام لا يسعنا إلا أن نؤكد أن هذه التجربة الأندلسية بالمغرب العربي كانت قائمة في ظل معطيات خاصة تتميز بالخصوص بكون المنطقة كانت تشكل عالا جغرافيا موحدا، فالجالية الأندلسية كان بإمكانها أن تنتقل بين أقطار المغرب العربي بدون حواجز تذكر، وذكريات الأندلس وأمجادها كانت ماتزال حية في الأذهان، إذ كان الأندلسيون باستمرار يندبون حظهم رغم كل ما بذله المغاربة لتسهيل ظروف إقامتهم، ولمعان (العلم الأندلسي) كان يبدو وفي كل الواجهات. لكن الوضعية ستختلف تماما في المرحلة الموالية (المرحلة الحديثة)، إذ ستصبح هناك حدود بين أقطار المغرب العربي، بفعل الاحتلال التركي لكل من تونس والجزائر، والأمل فقد نهائيا باسترجاع الأندلس فكل الثغور الأندلسية الأن قد سقطت، وإسبانيا أصبحت امبراطورية قوية على الساحة العالمية لها وزنها السياسي والاقتصادي الكبير الذي تحسب له ألف حساب.

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version

هه امش

(*) نشر هذا البحث بمجلة المناهل (المغرب) العدد 34، يوليور 1986، وقد اعيد نشره بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد 42 ـ 43 1987.

(米) هناك ملاحظات:

أولاً: سَبق للباحث أن قام بدراسة حول موصوع استقرار الجالية الأندلسية بالمغرب الأقصى، وقد نشرت ضمن أعيال المؤتر الثاني حول الموريسكيس، المنعقد بتونس في شهر شتنبر من سنة 1983: «Evolution de l'Etablissement des minorités andalouses au Maroc» in Actes du 2e symposium International du CIE M sur

Religion, Identité et Sources Documentaires sur les morisques Andalous, 2 .139 - 154 - Tunis, 1984.

تانيا: سنقتصر في هدا المقال على الفترة ما قبل السادس عشر.

La berbérie orientale sous Hafsides, 2.370371 et 383-389 (1)

(2) «الهجرة الأندلسية إلى إفريقية في القرن 7/13» مقال بمجلة :

Les cahiers de Tunisie, 1er et 2e trim. 1970, PP 129-136

(3) «الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين»، مقال بمجلة الأصالة الجرائرية، عدد 26، سنة 1975، ص. 46 ـ 90.

المقرى، نفس المصدر والصفحة.

(4) انظر الأبيات عند أ ـ المقرى ، 4 : 352

(5) م الطالبي المصدر السابق، ص ص 48 ـ 49.

(٥) أنظر السِّت عند أ. المقري، نفس المصدر والصفحة

(7) انظر الأبيات عند أ. المقرى، المصدر السابق، 4 464.

(8) م. الطالى، المصدر السابق، ص ص 49 ـ 51.

(9) المصدر السَّابق، ص 51.

(10) ابن خلدون، العر، 6 : 579، 580، 581، 595 و611ـ614، 615ـ616.

(11) المصدر السابق، ص 601 ـ 604.

لاحظة .

لم يستطع الأسطول الذيبي أوسل به أبو زكرياء مشحونا بالطعام والأسلحة فك الحصار على بلنسية ، فاستمرع الملد بدانية ، وسقطت عاصمة ابن مردنيش . ذلك أن المملكة الحفصية كانت أضعف من أن تستطيع نجدة الأبدلس ، لقد كانت مجبورة على مسالمة نصارى إسبانيا وصقيلية وشراء صداقتهم بالمال وبأنواع التنازلات ، فبينها كان النصارى يسترجعون عواصم الأندلس الإسلامية الواحدة تلو الأخرى ، كان ملوك بني حقص يهادنونهم ، ويفسحون المجال لفنادق تجارهم وقناصلهم ، ويسمحون للوبائم منازل منها مراكز تبشير بالمسيحية ، وربها لجأ للوبائم يفتح مدارس (studium arabium) يريدون أن يجعلوا منها مراكز تبشير بالمسيحية ، وربها لجأ بعضهم ، كابن اللحياني (211 - 217/ 1311 - 311) ، إلى الايهام بأنسه يرغب في التنصر (ch.E.Dufourcq, l'Espagne et le maghrib aux XIIe siècle, p. 106 - 110, 488 - 494)

وكانوا يعترفون لملوك نصارى إسبانيا، في رسائل تطفح بالود بسيادتهم على ما تقبلوا عليه من ديار الإسلام، وعلى العموم فإن المملكة كانت «تشكو في كل المستويات انخقاضا خطيرا في الوعي السياسي». م. الطالبي، المصدر السابق، ص 53.

(12) المقال ألسابق الذكر، ص ص 129 ـ 130

(13) رسائل ابن عميرة، مخطوط م. ع. بالرباط، عدد ك 232 ص 3.

(14) يقصد بها سبتة.

الحالية الأمدلسية بالمغرب العربي _______ 67

```
(15) يقصد سجلهاسة.
```

- (16) ابن عميرة، نفس المصدر والصفحة.
- (17) انظرم. الطالبي المصدر السابق، ص. 54
 - (18) انظر العبر، 6 : 711، 787 .
- (19) انظر ابن خلدون، المصدر السابق، 683.
 - (20) المصدر السابق، 711
 - (21) المصدر السابق، 683 ـ 684.
 - (22) انظرم. الطالبي، المصدر السابق، 56
 - (23) انظر ابن حلدون المصدر السابق، 56
- (24) انظر م. الطالبي، المصدر السابق، ص 57
 - (25) ابن خلدون، المصدر السابق، 627.
 - (26) المصدر السابق، 627 ـ 628
 - (27) المصدر السابق، 704.
 - (28) المصدر السابق، 667
 - (29) المصدر السابق، 683 ـ 684.
 - (30) المصدر السابق، 704 ـ 705.
 - (31) المصدر السابق، 705، 719 ـ 724
- (32) المصدر السابق، 758، 770، 780 ـ 782.
 - (33) المصدر السابق، 756.
 - (34) المصدر السابق، 655.
 - (35) نفس المصدر والصفحة
 - (36) م الطالبي المصدر السابق، 61.
 - (37) المصدر السابق، 63
 - (38) المصدر السابق، 64.
 - (39) نفس المصدر والصفحة
 - (40) المقدمة، 1039 ـ 1040
 - (41) المصدر السابق، 751.
- (42) ابن خلدون، العبر 6 684، الغريني، عنوان الدراية، ص 294.
 - (43) أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص 347 _ 348.
 - (44) المصدر السابق، ص. 67
- (45) هذا ما فعله ـ مثلا ـ الأمير أبو زكرياء س السلطان أبي إسحاق (1279 ـ 1273) عندما أسس بتونس في ولاية أبيه المدرسة المغرضية انظر الزركتي، تاريخ الدولتين، ص 40 ـ 41.
 - (46) المصدر السابق
 - (47) المصدر السابق.
 - (48) أ. الغبريني، المصدر السابق، 317، وم. الحبيب بن الخوجة، المقال السابق، ص 134
- (49) أ. الغبريني، المصدر السابق، 345، والعبدري، رحلة، 43 ـ 44، وم الحبيب بن الخوجة، المقال السالف الذكر، 134.
 - (50) م الحبيب بن الخوجة ، نفس المقال والصفحة .
 - (51) نفس المصدر والصفحة
 - (52) نفس المصدر والصفحة.

68 ـ دراسات في تاريح المعرب (53) نفس المصدر والصفحة (54) نفس المصدر والصفحة. (55) نفس المصدر والصفحة. (56) م. الطالبي، المصدر السابق 69. (57) عبد الباسطُ بن خليل، الروض الباسم في حوادث العمر ص. 20 ـ 22. (58) المقال السابق، ص. 70. (59) عنوان الدراية، 76. (60) م. الطالبي، المقال السابق، 70. (61) عنوان الدراية، 116. (62) المقال السابق، 72 (63) محمد الحبيب بن الخوجة، المقال السابق، 135. (64) نفس المصدر والصفحة. (65) خصص الأستاذ محمد أبو الأجفان له ترحمة مطولة أثناء تقديمه لرحلة القلصادي انظر ـ متلا ـ ص 30 ــ 56. (66) انظر م. السوسي، عالم رياضي أندلسي، مقال بمجلة حوليات الجامعة التونسية، عدد 9، 1972 ص 43 وبعدهاً. (67) انظرم أبو الأجفان، المصدر السابق، 35. (68) نفس المصدر والصفحة. (69) محمد الطالبي، المقال السابق، 71. (70) م. الحبيب بن الخوحة، المقال السابق، 131. (71) نفس المصدر والصفحة. (72) نفس المصدر والصفحة (73) المصدر السابق، 132. (74) نفس المصدر والصفحة. (75) نفس المصدر والصفحة. (76) الفارسية، 120. (77) محمد الحبيب بن الخوجة، 132. (78) المصدر السابق، 132. (79) الفارسية، 151. (80) المصدر السابق، 123. (81) نفح الطيب، 2 : 105 ـ 106. وابن سعد الذي يدكر لنا استار الألحان الأندلسية التي أدحلها أبو

> وانظر أيضًا حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، 2 : 227 ـ 231 . (82) م الطالبي، المقال السابق، 72

الصلت إلى إفريقيا ولد سنة 610/1213 وتوفي سنة 685/1286

(83) المصدر السَّابق، 73.

(84) وصف إفريقيا، 2: 51.

(85) المصدر السابق، 2: 42.

(86) الروض الباسم، 20

(87) بفس المصدر والصفحة

فيها يحص حدائق رأس الطابية ـ المكان مارال يعرف إلى اليوم بهدا الاسم مضاحية باردو، انظر ابن خلدون، العبر، 6: 296، والزركشي، تاريخ الدولتين، 33، والعدري رحلة، 40 والذي أستاً قصر رأس الطابية وحدائقه، وجلب إليه مياه زغوان هو المستنصر (647 ـ 675/1249) ولقد ربط المستنصر قصية تونس بحدائق رأس الطابية عن طريق ممر بين جدارين واستأثر مكامل مياه زغوان، إلا القليل منها الذي حول نحو جامع الريتوبة. وفي ذلك يكتب العدري «وأما الساقية المحلوبة من ماحية رعوان فقد لستأتر بها قصر السلطان وحنابه إلا رشحا يسيرا سرب إلى ساقيه حامع الزيتونة يرتشق منها في أنابيي من رصاص ويستقي منها العرباء ومن ليس في داره ماء ويكتر عليها الازدحام». الرحلة، 40

- (88) الروض الباسم، 20
- (89) المصدر السابق، 21
- (90) المقال السالف الذكر، 82.
 - (19) عنوان الدراية، 287.
- (92) نستثني _ بطبيعة الحال _ بعص الشخصيات العلمية والسياسية التي أتت للاستقرار بالمنطقة ، لكن تأتيرها هي الأحرى مع دلك كان صعيفا إدا ما قورن بتأثير الشخصيات العلمية والسياسية الأندلسية الى استقرت في كل من المغرب وتوس
 - (93) كانت هذه الامارات تحتفظ محيادها أحيانا، ولكنها كانت في أغلب الأحيان تتبع الأقوى.
- (94) انظر عبد الباسط بن حليل، الثغر الباسم، مواضع متفرقة وأبو القاسم سعد الله، تاريخ الجرائر الثقافي، 1 . 28 ـ 29
 - (95) وصف إفريقيا2 _ 8
- (96) أسست وهرال في عهد الخليفة الأموي أبي محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمان الداحل الأموي
 - الطر محمد بن عبد الكريم، الملحق الثاني الذي وضعه لكتاب التحفة المرصية، ص. 314.
 - (97) انظر محمد بن عبد الكريم، المصدر السابق، 313.
 - (98) أبو عبيد الله البكري، المغرب، 70
 - (99) المسالك والمالك، 1 · 77.
 - (100) نزهة المشتاق، 57.
 - (101) المصدر السابق، نفس الصفحة
 - (102) المصدر السابق، نفس الصفيحة.
 - (103) وصف إفريقيا 2: 3



التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي (*) ـ تأصيل تاريخي ـ

يعتبر التواصل الثقافي أهم مظهر من مظاهر وحدة المغرب العربي، فإن عرفت التجارب الوحدوية سياسيا تقلبات عديدة تبعا للظروف السائدة آنذاك، إلى أن انتهت إلى ما انتهت إليه، فإن التواصل الثقافي ظل قاثها، ليعزز الشعور بالانتهاء إلى حقل ثقافي واحد.

وقبل الانتقال إلى صلب الموضوع نبدي بعض الملاحظات حول الشخصية الثقافية المغربية :

- كان للشخصية الثقافية المغربية من الوجود الذاتي ما جعلها تتمكن طوال العهد القديم من التمييز ورفض أي شكل من أشكال الاندماج.

ـ لم تستطع مع ذلك تجاوز مستوى المقاومة والرفض والدفاع عن الهوية الذاتية، ولم تبلغ من القوة ما يجعلها ترتفع إلى مستوى الانتاج والابداع خلال العهد القديم.

ـ استطاع المغرب أن يكون له شخصية ثقافية طامحة إلى الابداع والانتاج مع مجيء الاسلام الذي زاد بصفة عامة من تأكيد الاتجاهات الوحدوية سواء في ميدان السياسة أو الاقتصاد أو الفكر أو الثقافة، ذلك أن الاسلام أوجد في عين المكان الادوات الكفيلة باغناء الشخصية الثقافية وتوحيدها على نطاق المغرب العربي، ومن بين هذه الأدوات نذكر:

الدولة: أحل الاسلام مفهوم الدولة في المغرب كفكرة وبنية شمولية جديدة تناويء كل البنيات التجزيئية القديمة.

2 ـ الأمة : كونت الأمة بحكم طبيعتها ووظيفتها اطارا توحيديا ضم ساثر المسلمين، ونطرة إجمالية إلى التاريخ تبين كيف أن فكرة الأمة لعبت دورها القوي المتواصل في توحيد أقطار المغرب العربي.

3 _ المسجد : قام المسجد بمحتلف أشكاله وأحجامه بدور كبير كأداة تعليم وتربية ونشر للثقافة ، وهي أداة لا تتجه لطبقة خاصة من المجتمع ، بل إنها مؤسسة شعبية تتصل بعامة الناس على الدوام ، وتبلغ التعاليم نفسها في كل مكان ، مما يؤدي إلى بروز إطار فكري واحد .

4 ـ الاقتصاد: كان من نتائج وصول الاسلام إلى المغرب تنشيط الحركة الاقتصادية وتحريك تيارات جديدة ربطته بالمشرق وأوروبا وافريقيا، وكانت هذه الوحدة الاقتصادية أساسا لوحدة ثقافية، كما تجلى ذلك في حركة المرابطين.

5 ـ دور التراث الأندلسي في توحيد المجتمع الثقافي المغربي: رغم التأثير القوي الذي أحدثه التراث الأندلسي في توحيد أقطار المغرب العربي، فإنه مع ذلك لم يحظ بعد بدراسة كافية (١)، لقد كان عدد من علماء الأندلس يتنقلون باستمرار بين أقطار المغرب العربي ناشرين معارفهم، مما أدى إلى تكوين تراث أندلسي واحد في الأقطار الثلاتة وكان هذا التراث بالفعل عامل تقريب بين أقطار المغرب العربي في توحيد تصوراتها وأذواقها واهتماماتها في ميادين الفكر والثقافة ومن أبرز الأثار التي يمكن ايرادها في هذا الصدد إلى جانب الفكر والعلم والأدب: الهندسة المعمارية الأندلسية، والموسيقى الأندلسية التي كان لها انتشار كبير في سائر أقطار المغرب العرب.

6 - هناك أدوات أخرى مهمة في مجال النمو الثقافي كان لها دورها أيضا في مجال التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي، نذكر من بينها: المدينة، والرباط، والزاوية.

أولا: التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي خلال الفترة الوسيطية

من أولى المحاولات التي يمكن تسجيلها في هذا الصدد محاولة المولى ادريس الأول الذي طرح مشروعا ضخها لتوحيد «دار الاسلام»، واستطاع أن يكون وحدة سياسية تضم المغرب الأقصى والأوسط ولولا معارضة بني العباس لامكن أن يوحد الغرب الاسلامي برمته. غير أن التجربة لم تعمر طويلا لكنها ستبرز بقوة مع المرابطين.

كان المشروع الوحدوي المرابطي حاضرا على المستوى الرسمي والشعبي على السواء.

فعلى الصعيد الرسمي جعلت الدولة المرابطية مشروع الوحدة على رأس برنامجها السياسي، ووظفت كل الوسائل الممكنة لتحقيق وحدة المغرب العربي، بل دافعت عن هذه الوحدة عندما تصدت للخطر المسيحي المنبعث من صقلية.

أما على الصعيد الشعبي فإن هاجس الوحدة كان حاضرا شعورا وممارسة فعلى السرغم من العداء السياسي الذي كان يظهر من حين لآخر بين أقطار الغرب الاسلامي، فإن الزخم الشعبيي كان يتجاوز الاطارات الضيقة، إصافة إلى أن المؤرخين والجغرافيين المعاصرين أو الذين أتوا بعدهم لا يعترفون بالحدود الفاصلة بين دول المغرب (2).

ونذكر في هذا الصدد تبادل الرحلات، ومنح الاجازات، وحير مثال نسوقه في هذا الصدد تجسده شخصية أبي عمران الفاسي الذي يمثل معلمة من معالم الوحدة المغاربية، فهو مغربي أصله من فاس، ومع ذلك فصل الاستيطان في القيروان، وعنه أخذ الناس في أقطار المغرب العربي كها توضح ذلك المصادر التاريخية.

وهناك مثال آخر: فقد قدم عالم تونسي من توزر هو أبو الفضل ابن يوسف النحوي، واستقر في سجلهاسة للتدريس بها، غير أنه تعرص للمضايقة والطرد من طرف فقهاء المرابطين، لانه أقدم على تدريس مادة محظورة هي مادة الأصول، ومع ذلك لم يرجع إلى بلده، بل فضل الاقامة في فاس والاستقرار في مغربه الكبير (١٥)، ويترجم ابن القاضي لمحمد بن داود بن عطية (ت 525 هـ) فيذكر أن أصله من افريقية (تونس) غير أن هذا الأصل لم يحل دون توليه القضاء بتلمسان، ثم اشبيلية، ففاس (١٥).

وتبرز قيمة التصوف كمعطى ثابت من ثوابت الموحدة المعاربية، يتجلى دلك بالخصوص في تبادل الزيارات بين المتصوفة، بل منهم من فضل الاقامة في البلد الذي رحل إليه (5).

من ذلك يتضح أن قاعدة التعامل على الصعيد الشعبي كانت مهيأة لذلك، إذ لم تؤثر فيها الصراعات بين الحكام، ويتجلى ذلك بالخصوص أثناء مجابهة الخطر المسيحي، ففي سنة 521 هـ مثلا مشكل أهل المهدية وفدا لمقابلة حاكم بجاية من آل حماد وهو يحي بن عبد العزيز، لطلب المساعدة للتصدي للغارات المسيحية.

ومن الملاحظات التي يمكن أن نبديها حول المشروع المرابطي هو أنه كان يتسلح بايديولوجية إصلاحية تمثلت في المذهب المالكي الذي أصبح في نظر المغاربة مذهبا وعقيدة وطنية، وبذلك أصبح خطا أيدلوجيا وحدويا.

لقد ظلت فكرة الوحدة حاضرة في نفوس المغاربة، ويكفي الوقوف على إنتاجات المغاربة لنتأكد من ذلك، ولنأخذ على سبيل المثال النوازل الفقهية، فقد كان القاضي المشهور ابن رشد الجد (ت 520 هـ) يقيم في الأندلس. ورغم ذلك فقد كان يمطر بوابل من طلبات الافتاء في شأن نوازل كان مجالها القيروان وسبتة ومراكش وبجاية وغيرها من مدن الغرب الاسلامي.

ونختم كلامنا حرل التجربة الوحدية المرابطية بأنها مثلت التجربة الام، وبذلك ساهمت في تعبيد الطريق أمام التجربة الموحدية التي استفادت من هذه التراكهات الأولية.

П

بدل القادة الموحدون جهودا سياسية كبيرة لتوحيد أقطار المغرب العربي، وقد كان صدى هذه الجهود الوحدوية في البداية كبيرا، إذ تجمع المصادر التاريخية على أن شعوب المغرب العربي تجاوبت معها إلى حد بعيد، فعندما وصل عبد المومن بن علي إلى تونس: «خاطبه أهل مدينة قابس بالتوحيد... فبعث بعسكر ضخم ... فلما وصلوا على ثهانية أميال من قابس بادر أهلها مع قاضيهم بالخروج إلى الموحدين وتلقيهم بالطاعة والتزام أمر الدين والجهاعة ... » (6) ، كها أن «عرب افريقية والزاب والقيروان ... أجابوا إلى الطاعة على حكم الاستطاعة ... » (7) ، لكن السؤال الذي يبقى مطروحا: كيف ابتدأت هذه التجربة بهذا النجاح الباهر، وانتهت في الأخير بإخفاق يؤكد المؤرخون على أنه كان فاسيا لأنه كان بمثابة سقوط من أعلى إلى أسفل .

لمعرفة أسباب نجاح هذه التجربة يجب أن نتعرض إلى حوافزها:

ـ رغبة الموحدين في نشر مذهبهم، فقد كان المهدي بن تومرت يعتبر المغرب العربي كمجال واحد لدعوته، وحافظ على هدا الارث خلفه عبد المومن بن على.

- عزم الموحدين على الوقوف في وجه كل أعدائهم ومناوئيهم من بني غانية، وقبائل عربية أخرى، حتى تقوم الدولة على أسس متينة، وبدلك لم يتركوا أي فرصة لدعاة التفكيك.

ـ إنقاذ افريقية والمغرب الأوسط من محاولة التوسع النورماندي أكسب الموحدين في نظر شعوب أقطار المغرب العربي شرعية وهيبة لا تنكر.

تلك بصفة عامة أهم الأسباب التي جعلت التجربة الموحدية تجربه رائدة منذ البداية وتحقق ما عجزت عن تحقيقه دول سابقة.

لكن كانت هذه التجربة تحمل معها في نفس الوقت عوامل صعفها، فبدل أن يسلك الموحدون بسياسة فيها ترضية لسائر الأطراف المغاربية فقد أخذوا بسياسة منية على السلطة والاستبداد والاستئثار بوظائف الولاية، وبذلك أحدثوا أسبابا للقلق والتوثر أدت في النهاية إلى حدوث الشقاق كبير داخل (الامبراطورية الموحدية) بظهور دويلات صغيرة في أقطار المغرب العربي غير أننا نجد في الحقيقة أن هذا الفشل لا يهم إلا الجالب السياسي من التجربة، أما الجانب العلمي فلم يمس، بل ظل التواصل الثقافي مستمرا، كما يتجلى ذلك من خلال التنقلات العلمية التي عرفتها هذه الفترة، والتي تبرز بوضوح الطابع الفكري الوحدوي لدى أقطار المغرب العربي.

Ш

عرف المغرب في عهد بني مرين المسارا في الرقعة الجغرافية، ودلك للمنتمر في الأندلس، ونتيجة أوضاعه الداخلية من جهة أخرى، فبرزت بذلك إمارة بني عبد الواد بتلمسان، وإمارة الحفصيين بتونس، ولكن ظل التواصل الثقافي مع ذلك مستمرا، وهكذا نجد العلماء يجسدون من خلال رحلاتهم وأسانيدهم ومروياتهم ومناظراتهم العلمية تلك الصلات القوية التي كانت قائمة بالفعل بين علماء المغرب العربي.

وقد شجع بنو مريس كثيرا من بيوتات المغربين الأوسط والأدنى على الهجرة إلى المغرب الأقصى ، وجعلوهم كتابا وحجابا ، وأدرك أبناء هذه البيوتات جاها عظيها ، ومن بيين هذه البيوتات بيت بني التميمي وقد اشتغل أبناؤه لدى الحفصيير والمرينيين ، ومن أفراده أبو الحسن علي بن إبراهيم التميمي التونسي ، ومن أفراد هذا البيت أيضا أبو الفضل محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن علي بن عبد الله التميمى ، ولي الحجابة للدولة المرينية .

ومن هذه البيوتات أيضا بيت الكاني ومن أفراده الفقيه الكاتب صاحب القلم الأعلى يوسف بن الفقيه الكاتب أبي الطيب الكناني، كانت له علامة المتوكل عبد الله بن منصور المريني.

هكدا فتح سلاطين بني مرين أبواب المناصب العليا في وجه القادمين من المغربين الأوسط والأدنى، لكن كانت عناية ملوك بني مرين بعلماء المغرب العربي أكبر، فقد أم علماء تلمسان والقيروان ومجاية وغيرها من الحواضر بلاط أبي الحسن ملاط أبي عنان.

ويتجلى هذا التواصل الثقافي أيضا من خلال التواصل الاسنادي الذي تؤكده فهارس العصر، ففي فهرسة السراج _ مثلا _ نجد أسانيد التلمسانيين والقيروانيين والسبتيين وغيرهم، ونفس الشيء نقوله بالنسبة لفهرسة المنتوري، وفهرسة ابن غازي

ويتجلى هذا التواصل الثقافي كذلك في الرحلات، فنذكر في هذا الصدد ملء العيبة لابن رشيد، ومستفاد الرحلة لابي القاسم التجيبي ورحلة العبدري، ورحلة ابن بطوطة ورحلة أبي عبد الله المقري نظم اللئالي، حيث يستعرص المقري الجد رحلته عبر مراكز المغرب الثقافية فيذكر الاعلام الذين أخذ عنهم أو تذاكر معهم انطلاقا من تلمسان، فبجاية فتونس، تم المغرب حيث دخل فاسا ولقي بها عددا من الشيوخ.

كما نشطت المراجعات والمناظرات في هذا العصر نشاطا كبيرا، وكان يشارك فيها علماء من فاس وتلمسان وتونس.

ونشير في الأخير بمناسبة الحديث عن هذا التواصل الثقافي إلى «الحملات الثقافية الرسمية» التي كان يقوم بها بعض سلاطين بني مرين، فقد استصحب السلطان أبي الحسن المريني معه إلى تونس علياء من تلمسان وفاس، ونفس الشيء فعله السلطان أبي عنان المريني (8).

ثانيا: التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي خلال العصر الحديث

عرف المغرب العربي خلال القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر تدهورا سياسيا واقتصاديا وفكريا خطيرا، تجلى بالخصوص في عدة مظاهر :

- ـ سقوط آخر معقل اسلامي بالأندلس (غرناطة) سنة 1492، بل وتتبع المسلمين بشمال افريقيا، مما أدى إلى احتلال عدد من الثعور بأقطار المغرب العربي.
 - ـ التدهور السياسي الخطير نتيجة الصراع حول السلطة.
 - ـ التدهور الاقتصادي نتيجة لانعدام الامن والاستقرار.
- وقد كان المغرب أحس حظا من جاريه، فقد واجه المسيحيين، وواجه الأتراك، ولذلك أصبح ملاذا للمضطهدين سواء من طرف المسيحيين أو الأتراك، ودخل المغرب في هذه الفترة أقوام كثيرون أفرادا وجماعات وقد كان السعديوں يعون جيدا الدور الوحدوي المنتظر منهم كها يتجلى ذلك في الأحداث الآتية:
- محاولة السعديين الوصول إلى وهران بعد توحيد المغرب الأقصى وتحرير عدد من ثغوره، ودلك لتخليص هذا الثغر من يد الاسبان.
- ـ مشاركة عبد الملك السعدي في الجيش العثماني التونسي الذي تمكن من هزم الاسبان سنة 1574 بحلق الوادي .
- ـ تطلعت شعوب أقطار المعرب العربي إلى المغرب الأقصى باعتباره القوة المستقلة الوحيدة بالمنطقة ، كما يتجلى ذلك في كتاب النفحة المسكية لابي الحسن علي التمجروتي .
- التنسيق في عمليات الجهاد البحري بين مدن سلا، والعرائش، وبجاية وحلق الوادي، وغير ذلك.

لقد سعى السعديون إلى توحيد الغرب الاسلامي، انطلاقا من كونهم أحق بالخلافة من غيرهم لشرف نسبهم، كما يبرز ذلك مؤرخوهم.

أما من حيث التواصل الثقافي فنذكر هجرة عدد من العلماء الجزائريين أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) من بينهم :

- عبد الله العنابي: فقيه، أديب، مشارك في مختلف العلوم، استقر بوادي درعة، وقد آزر السعديين في المراحل الأولى لاقامة دولتهم، كما عمل على مساعدة الأندلسيين بالجزيرة، فجمع أموالا طائلة حملها في البحر لاغائتهم، لكن السفينة غرقت.

- أحمد بن يحي الونشريسي، الفقيه المالكي الكبير، انتقل من تلمسان إلى فاس، فأعطي كراسي الفقه في القرويين وغيرها، وفتحت له خزائن الكتب العامة والخاصة، ولاسيما خزائن آل الغرديس التي استمد منها أصول كتابه المعيار المعرب. وقد خلفه بعد موته في كراسي التدريس بالقرويين ابنه عبد الواحد الونشريسي الذي أصبح شيخ الجاعة بفاس، ولعب الأدوار السياسية الشهيرة بين الوطاسيين والسعديين.

ـ أحمد شقرون بن أبي جمعة الوهراني، فقيه مشارك، اندمج كالونشريسي في صفوف علماء فاس، وكان له تلاميذ كثيرون.

وفي القرن الهجري العاشر نذكر :

- على بن عيسى الراشدي، اتم دراسته بالقرويين، ثم أسند إليه كرسي القراءات والسيرة النبوية بمسجد الشرفاء.
- أحمد بن محمد بن جيدة الوهراني، تلميذ الشيخ السنوسي، تولى كرسي الأمام ابن غازي.

ومن تونس نذكر محمد بن أبي الفضل ابن خروف، وهو عالم متخصص في العقليات، أسره الاسبان في الحملة الكبرى التي شنوها على تونس وطال أسره إلى أن افتداه ملك فاس أحمد الوطاسي، وعاش ابن خروف مدرسا في القرويين.

ونشير إلى أنه في هذه الفترة أيضاً وقعت هجرات معاكسة من المغرب إلى الجزائر وتونس قام بها علماء وصلحاء من مختلف مدن المغرب.

خلاصــة:

تلك كانت نظرة تأصيلية تاريخية للتواصل التقافي بين أقطار المغرب العربي خلال فتر ات معينة من تاريخ المغرب، ورأينا فيها دور الثقافة في تحدى عراقيل الوحدة، فها أجدر بنا اليوم أن نعطي لهذا العامل ما يستحقه من الاهمام، لكننا مسجهة أخرى لا نزعم أن الثقافة وحدها تكفي لتحويل الشتات إلى وحدة والتئام، فلابد من إرادة سياسية، ولابد من دعائم مادية تتمثل في تنمية العلاقات الاقتصادية وإيجاد البنيات التحتية التي تنمى الربط والاتصال.

هو امـش

- (*) أعدد برسم الجامعة الشتوية بمراكش، 1990، وقد بشر بالمجلة التاريخية المغربية، توسس العددان 57ـ58، 1990
- (1) انطر محمد رزوق: «الجالية الامدلسية بأقطار المعرب العربي»، مقال بالمجلة التاريخية المغربية، توس، عدد 42 ـ 43 . 1987.
 - (2) انطر في هذا الصدد ما يقوله ـ متلا ـ صاحب الحلل الموشية ، وما يقوله البكري في كتابه المغرب
 - (3) ابن الزيات، التشوف، ص: 98
 - (4) جذوة الاقتباس، 1 : 255
 - (5) انظر _ مثلا _ ابن قنفذ، انس الفقير، ص : 94
 - (6) ابن صاحب الصلاة، التعريف، ص: 19 ـ 55.
 - (7) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، 417.
 - (8) ابن خلدون، **التعريف،** ص: 19 ـ 55.



من جذور الدولة العصرية بالمغرب محاولة بناء الدولة الحديثة خلال القرن التاسع عشر نموذجا (*)

تشكل المحاولة التي قام بها المغرب خلال القرن 19 لبناء دولته الحديثة نموذجا متميزا يطرح معه الكثير من التساؤل حول الأسباب التي أدت الى وقوع هذه الاصلاحات في هذه الفترة بالضبط، وحول نوعية الاصلاحات المقترحة والتحول الحاسم الذي طرأ على بعض العقليات آنذاك وكذا إدراك قيمة الآخر الغالب بدل البحث عن إصلاح ذاتي محض، أي أن النموذج الأوروبي أصبح الآن هو المستهدف.

وقبل الانتقال للتعرف على المبادرة المغربية سنحاول أن نتعرف على أصول الدولة الحديثة في أوروبا من خلال ثلاثة معايير تساعدنا على المقارنة (١) :

- المعيار الأول: استمرارية في الزمان والمكان لجماعة بشرية ما لكي تتحول إلى دولة. فالعيش والعمل معا في مكان معين وطوال أجيال عديدة تستطيع جماعة بشرية ما أن تنتج النهاذج التنظيمية الأساسية لتشييد دولة ما. فهذه الأخيرة ترتكز على مؤسسات دائمة ومن الصعب إقامة مثل هذه المؤسسات إذا كانت الأرض التي تقوم عليها تتغير باستمرار كذلك ولذلك فإن عليها تتغير باستمرار كذلك ولذلك فإن البدو الحقيقيين لا ينشئون دولا، فمن الضروري أن تصبح نسبة معينة من السكان حضرية لكي تتمكن من الوصول إلى مستوى معين من التنظيم السياسي.

- المعيار الثاني: يجب أن تقوم مؤسسات سياسية غير شخصية تعزز الشعور بالهوية السياسية للجهاعة. وتتميز هذه المؤسسات بمكانتها وسلطتها داخل المجتمع، فهي التي تجسد فكرة سيادة الدولة على الجميع.

- المعيار الثالث: وهذا المعيار الأخير هو الأكثر أهمية، فمشاعر الولاء التي كان يحس بها الناس في الماضي نحو العائلة، أو الجهاعة المحلية، أو المنظمة الدينية، قد انتقلت الأن لصالح الدولة. وفي نهاية هذا التحول يعطي المواطنون الصدارة لمصالح الدولة. ويعتبرون صيانتها بأنها الخير الجهاعي الأعلى. وبقراءتنا لهذه المعايير يتبين لنا بوضوح لماذا تأخر بناء الدولة الحديثة بالمغرب، فكل معيار من هذه المعايير نجد نقيضا له في الجانب الآخر، فقد ظلت البداوة طاغية على المغرب لفترات طويلة من تاريخه _ كها لاحظ ذلك ابن خلدون _، والقبائل تتنقل باستمرار مما كان يعوق قيام كيان حضري يفكر سكانه في تنظيم ما، والمؤسسة السياسية كانت شخصية، مرتبطة بشخص معين، سرعان ما تسقط بسقوط الشخص المذكور، ومشاعر الولاء تجاه الدولة كانت ضعيفة نسبيا وغير قادرة، في حين كانت قوية تجاه مؤسسات دينية (الزوايا) أو فئات معينة (العلهاء، أو المتصوفة). . . .

وهكذا حينها حاولت الدولة أن تقوم باصلاحات معينة وجدت معارضة قوية تجسد فترات تاريخ طويل من الجمود الفكري . ظروف التفكير في بناء الدولة الحديثة :

ظهرت فكرة تحديث الدولة بمختلف مرافقها كضرورة ملحة إثر انهزام المغرب في معركة اسلي ضد فرنسا (1844) وفي حرب تطوان ضد الاسبان (1860)، فانكشف بذلك صعفه وتخلفه وعجزه عن حماية نفسه (2). وهكذا فالتفكير في هذه العملية كانت نتيجة ضغط خارجي وظروف إجتهاعية واقتصادية صعبة، وليس نتيجة لتطور داخلي فكري أو اجتهاعي أو اقتصادي، ولهذا الأمر خطورته، إذ أن الاصلاح سيتجه بنظره الى الجانب الأخر القوي للاقتباس منه، وهذا شيء جديد وقع خلال القرن 19 لماذا ؟

سيتضح لنا ذلك من خلال استعراضنا لاحداث معينة مماثلة ، فقد غزت العالم الاسلامي قوات أوروبية خلال العصر الوسيط ، واعقب ذلك ردود فعل إصلاحية ظلت دائرة داخل المنطق المعهود للاصلاح الاسلامي الذاتي ، دون التفات إلى ما عسى أن يقتبس من الآخر المتفوق من أشياء تفسر تفوقه وتصلح لان تؤخذ ضمن مشروع إصلاح مقترح . وهكذا فقد وضع الغزالي مشروعا للاصلاح ضمن كتابه احياء علوم الدين ، وقد وضعه أثناء الحملة الصليبية الأولى التي انتهت باحتلال

أراضي إسلامية بها فيها القدس، ومع ذلك فقد بقي الغزالي يعمل على القوى الاسلامية الداخلية (الشيعة خاصة والا سهاعلية بالأخص) ولا يقول شيئا عن القوى الاجنبية الغالبة، فالاصلاح دائها يكون حسب المنطق المعهود: أي إرجاع الحافز إليه إلى خلل داخلي حل بالأمة وتفسير هذا الخلل بالخلاف، أي إفتراق المسلمين فرقا متصارعة، والتهاس الحل في توحيد الدهن والسياسة، وطريق هذا كله العودة إلى الاسلام الأصل.

ونفس الرأي نجده بالمغرب خلال القرن السادس عشر، عند محمد ابن يجبش التازي (توفي سنة 20 هـ/ 15 ـ 4 15 1) ـ مثلا ـ في العهد الوطاسي ـ وقد عاصر سقوط غرناطة سنة 1482 ، وسقوط عدد من الثغور المغربية بأيدي البرتغال ـ ، إذ يقول في مشروعه : » . . . واجتهدوا في جمع كلمتكم ينجح رأيكم وتظفروا ـ إن شاء الله ـ بطلبتكم . أما سمعتم قول مولانا «جل وعلا وهو أصدق القائلين» : فاتقوا الله ، وأصلحوا ذات البين بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين» ، وقال عز وجل » : «ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم» ، «إنها المؤمنون إخوة فأصلحوا بين اخويكم . . . » (ق) . في هذا الخطاب كها نرى الحاح على الوحدة باعتبارها الحل الوحيد لمواجهة الغزو الأجنبي دون الالتفات الى الغير الغالب رغم أن أوروبا كانت تعيش آنذاك نهضتها في مختلف الميادين ، أي أن مشروعه يبقى في إطار الاصلاح تعيش آنذاك نهضتها في مختلف الميادين ، أي أن مشروعه يبقى في إطار الاصلاح الذاتي دونها حاجة الى الغير.

غير أنه في القرن 19 صار الاقتناع بأن الخطاب الاصلاحي التقليدي لم يعد كافيا لمواجهة الطواريء، وبالتالي لابد من الالتجاء الى التحديث، لكن هذا الأخير كان يطرح ضرورة تجاوز التنظيمات السلفية التقليدية واللجوء الى الابتكار والخلق، وبالتالي قد يثير المعارضة لدى العلماء، فالتجأ السلطان الى هؤلاء للحصول على رخصة شرعية تمنحه حرية العمل في هذا التحديث، غير أن ما يثير الانتباه هو طبيعة الأجوبة التي قدمها العلماء حول تحديث الجيش خلال القرن 19، فقد استفسر كل من السلطان عبد الرحمان وخلفه محمد الرابع وخلفه الحسن الأول العلماء عن حكم هذا التحديث وصورته ولكنهم بدل أن يركزوا في أجوبتهم على الجيش وتحديث وطبيعة هذا التحديث ركزوا فيها على تقديم مخطط واضح ومفصل لتحديث الدولة بمختلف مرافقها السياسية والاقتصادية والاجتهاعية، بحيث جعلوا قضية تحديث الجيش جزئية أدخلوها ضمن القضية الكلية الأساسية وهي ضرورة الاصلاح الكلي

للبلاد وإنقاذها من الانهيار. وهكذا جاءت الأجوبة التي قدموها حول تحديث الجيش عبارة عن كتب ورسائل وبحوث تمثل عروضا مفصلة هامة جدا حول طبيعة هذا الاصلاح والتحديث.

وقد شملت هذه الأجوبة المحاور الآتية:

- الجيش: قدم مجموعة من العلماء مشاريعهم لتحديث الجيش كعنصر هام من عناصر بناء الدولة الحديثة لمواجهة التدخل الأوروبي بالمغرب. ومن بين الرسائل رسالة سماها صاحبها: رسالة العبد الضعيف الى السلطان الشريف (4)، وبما يدل على وعيه الكبير بالمخطط الفرنسي قوله: «بان النصارى ملكوا الجزائر ووصلوا إلى وهران وتلمسان وإلى تافنا . . . وطمعوا في الوصول الى مدينة فاس التي هي دار ملكك ومحل حكمك . . . » (5) ، ويحثه على الجهاد (بمفهومه الواسع أي التحديث) والا فان مصير المغرب سينتهى لى ما انتهت اليه الجزائر حتما.

هناك كتاب آخر في موضوع تحديث الجيش وضعه محمد بن عبد القادر الكردودي (ت. 1268/185) اسمه كشف المعمة في بيان ان حرب النظام حق على هذه الأمة. (أ) ابدى إعجابه الشديد بالتنظيم العسكري الأوروبي: «واعتنى الروم لوقتنا هذا بأمر الصفوف وبالغوا في ترتيبها وتسويتها بها لا مزيد عليه» (7). وكذلك الجواب البسيط (أ)، وهو جواب عن أسئلة للأمير عبد القادر الجزائري متعلقة بالجهاد والمشاكل المالية كالضرائب والاعانات المفروضة على القبائل وموقف القبائل من الفرنسيين، وهي للامام على بن عبد السلام التسولي وهو من الكتب السياسية الهامة التي تعرضت لضرورة الاصلاح الكلي، وهو يؤكد على ضرورة السياسية الهامة التي تعرضت لضرورة الاصلاح الكلي، وأكد على ضرورة إصلاح قضيط القبائل وتوجيهها على المستوى الداخلي في حين حدد علاقة الدولة بالتدخل وضبط القبائل وتوجيهها على المستوى الداخلي في حين حدد علاقة الدولة بالتدخل الأجنبي حيث أفتى بجواز عقد الهدنة والصلح مع الدولة المسيحية رغم تدخلها في البلاد اذا عجزت الدولة عن صدها بالقوة ورأت في المهادنة مصلحة للأمة.

وهناك كتب ورسائل اخرى لاداعي لاستعراضها لانها تسير في نفس الاتجاه.

- الشورى: طبيعة المؤسسة السياسية القائمة

ارتأى العلماء أيضا أن تحديث الدولة يتركز أساسا، على قيام نظام يعتمد الشورى أساسا، لأنهم يعنبرون أن تقدم أوروبا راجع أساسا الى تنظيم الجهاز السياسي

المعتمد على النظام النيابي، وهكذا سجل الصفار محمد بن عبد الله ([®] أثناء زيارته لفرنسا زيارته للبرلمان، وبحث في نظامه واختصاصات أعضائه، وتشريع القوانين، وكذلك نظام الصحافة.

أظهر محمد الكردودي السالف الذكر _ إعجابه الشديد بالنظام النيابي الأوروبي: «قلت والروم (الأوروبيون) لعهدنا... فيها بلغت قصروا الشورى على أربعين رجلا، فلا يبرم أمر عندهم إلا تأن صدر تعن رأيهم واستشارتهم، وتسمى هذه الجهاعة بالكرطى ...» (10).

كما دعمى الخالي بن محمد الحسني الادريسي العمراني اللجائي (ت 1289/1872) السلطان محمد الرابع في كتابه مقمع الكفرة بالسنان والحسام في بيان ايجاب الاستعداد وحرب النظام (١١) إلى ممارسة حق الشورى مبينا بللآيات القرآنية والأحاديث النبوية ضرورة ضبط المصالح السياسية للأمة بواسطة «نظام الشورى» النظام النيابي

ـ السلطـة:

يسجل العربي المشرفي أن أغلب الذين بعتهم السلطان محمد الرابع الى أوروبا عادوا يستعظمون وينوهون بضبط الأحكام ونفوذ الكلمة (12).

وهكذا فقد توجه العلماء الى السلطة التنفيذية انطلاقا من السلطان الى الوزراء والقواد والعمال، اذ أكدوا على التربية السياسية للسلطان نفسه، وهاجموا بعض الوزراء والولاة للتسلط الذي كانوا يفرضونه على الشعب، مثل الغالي اللجائي للسالف الذكر ـ في كتابه مقمع الكفرة . . . الذي ألح على ضرورة التربية السياسية للسلطان وما يجب أن يكون عليه من عدل واستقامة وصبر وثقة بالنفس وعفو وسخاء .

ونفس الشيء نجده عند محمد الفلاق السفياني (ت 1312 / 1875) في كتابه تاج الملك المبتكر ومداده من خراج وعسكر (13 ألفه بطلب من السلطان محمد الرابع، اذ ركز بالخصوص على العدل والاستقامة والشورى وعلى السياسة التي يجب

أن يتوفر عليها الملك من دهاء وحكمة وصبر منددا بالاستبداد والظلم والطغيان، كما تعرض لضر ورة استقامة الوزراء وإصلاح العمال.

_ العلوم التقنية :

ويعرف أحمد الناصري قراء كتابه بها صارت إليه أوروبا من القوة والاستعداد والتفنن في أنواع آلالات الحربية ويثير إنتباه شعبه الى مدى تقدم الغرب: « إن أمر هؤلاء الفرنج في هذه السنين قد علا علوا منكرا، وظهر ظهورا لاكفاء له واسرعت أحواله في التقدم والزيادة إسراعا متضاعفا كتصاعف حبات القمح في بيوت الشطرنج . . . » $^{(16)}$.

وفعلا توجهت عدة بعثات علمية إلى أوربا، فقد بعث الحسن الأول ـ مثلا ـ عدة بعثات منها: بعثة مكونة من 15 طالبا الى انجلترا وايطاليا واسبانيا وفرنسا وبروسيا وذلك سنة 1291 / 1874) وبعشات أخرى في سنوات 1876/1876 . . .

كانت هذه الجهود في مجموعها ذات أهمية كبرى ولكن ولم تسند الى عدد كبير من الخريجين مسؤوليات عامة في نظاق تخصصهم اذ ظل التخطيط والتوجيه والرواتب المغربية وفقا على العسكريين والأوربيين، أضف الى ذلك ان الوظيفة العمومية لم تكن هناك تنظيهات توحد العمومية لم تكن منظمة ولا الرواتب قارة أو كافية، ولم تكن هناك تنظيهات توحد شمل المهندسين والتقنيين الوطنيين، فحالما يعودون الى أرض الوطن يتوزعون بين المدن ويتركون لشأنهم، ومع الأيام يذب اليأس الى نفوسهم وينتهي بهم الأمر الى

ممارسة حرفة بعيدة عن تخصصهم. ويرجع سبب فشل هذه المحاولة الى ان المجتمع نفسه لم يكن منظا لذلك، لذلك لم يستطع استيعابهم خاصة ان الامر يعصف باستقلال البلاد ؛ ويستند أنصار هذا الرأي الى اعتبار ما صارت اليه الدول الاخرى التي قادتها عمليات الاصلاح الى الوقوع في شرك الحكم الأجنبي. وهذا رأي توافق عليه وتستغله الدول الاستعمارية نفسها التي كان همها اضعاف الدولة المغربية في حين كان الاصلاح الاساسي والاول يكمن في تقويتها حتى تكونه قادرة على مجابهة التوغل الاستعماري ودفع خطره عن البلاد.

وعلى كل فتلك محاولة عرفها المغرب خلال فترة معينة لبناء دولته الحديثة ، لكن حالت ظروف داخلية وخارجية دون هذه المحاولة وجعلته يرضخ تحت نير الاصلاحات الشكلية ابان فترة الحاية . وقد كان رد فعل المغاربة قويا واستطاعوا في كثير من الأحيان الانتباه الى النوايا الحقيقية من وراء «حركة الاصلاح» هاته ووعوا في نفس الوقت جيدا قيمة التنظيم السياسي والاداري والاقتصادي للمجتمع وأنه السبيل الوحيد والأساسي لبناءء دولتهم الحديثة .

هـوامـش

- (*) أعد برسم الدوة التي انعقدت بالجزائر في موضوع : «تكوين الدول المعاصرة بالمغرب العربي». وقد نشر بالمجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، عدد 2-8 / 1988
 - (1) انظر جوزيف شتراير، الأصول الوسيطة للدولة الحديثة، ص 9 ـ 14
- (2) مدا واضحا أنه متخلف ليس فقط عن أوروما ولكن حتى عن بعض الاقطار العربية كمصر أو الاسلامية كتركيا، فبدأ يرسل بعثاته إلى هناك لاجل التكوين.
 - (3) كتاب الجهاد ص. 139.
 - (4) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1623 د
 - (5) المصدر السابق، ص. 11 ـ 12
 - (6) طبع على الحجر بفاس سنة 1303 / 1886.
 - (7) المصدر السابق، ص. 6.
 - (8) طبع على الحجر بفاس في نحو 80 صفحة.
 - (9) مخطَّوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم 113
 - (10) كشف الغمة . . . ، ص 46 .
 - ملاحطة : الكرطي : يقصد به الكورطيس Cortes وهو مجلس البرلمان الاسباني كما هو معروف
 - (11) مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم 1030.
 - (12) الحسام المشرفي، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم : 2276 ك ص. 321.
 - (13) محطوطُ الحزانةُ الحسنية بالرباط رقم : 2502
 - (14) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 979 د، ص. 527 ـ 528
 - (15) انظر محمد المنوني، مظاهر يقظة ألمغرب في العصر الحديث، 1: 252_253
 - (16) الاستقصا، 9: 208.

العلاقات المغربية الاسبانية خلال القرن السادس عشر العهد السعدي الأول نهوذجــا (*)

ان أهم شيء يمكن ملاحظته ونحن بصدد الحديث عن العلاقات المغربية الاسبانية خلال القرن السادس عشر هو التقارب الذي كان يقع باستمرار بين المغرب والاسبان نتيجة الصغط التركي مما سيؤثر عمليا على قضيتين أساسيتين ظلتا محور الأحداث طيلة هذه الفترة وهما قضية الثغور المحتلة، وقضية المورسكيين.

_ 1 _

بمحرد وصول محمد الشيخ السعدي الى فاس بدأت تبدو في الأفق ملامح السياسة الاسبانية تجاه المغرب، فقد كان الاسبان يترقبون التعاون التام بين محمد السيح السعدي والأتراك (۱) ويهيئون انفسهم لهذا الظرف الجديد، خاصة انهم يعلمون ال هذا التقارب سيكون له تأثير كبير على القضيتين الاساسيتين : الثغور المغربية المحتلة والقصية المورسكية.

ففيها يتعلق بالثغور المحتلة تشير الوثائق الاسبانية إلى ان السلطان السعدي ساع في بناء أسطول بحري لتحرير جميع السواحل المغربية، خاصة أنه يملك موانيء مهمة على المحيط مثل العرائش والمعمورة وسلا وأسفي، وبإمكانه بناء السفن في مدينة فاس وحملها الى المعمورة عن طريق وادي سبو، ولن يجد صعوبة في ذلك لان التجار الاجانب والفرنسيين خاصة يمكنهم ان يزودوه ممختلف المواد اللازمة لذلك (2)

القضية المورسكية: كان مورسكيو غرناطة يتقاطر ون باستمرار على فاس للانضهام الى محمد الشيخ، وكانوا يحثونه على توجيه ضربة للاسبان فيي الصميم، وذلك بالهجوم عليهم في معاقلهم الرئيسية بالمغرب (3) خاصة أن صدى انتصارات محمد الشيخ قد تعدى الحدود ليصل إلى مورسكيي إسبانيا نفسها، إذ كان لهم أمل

قوي في أن يأتي الشريف السعدي لخلاصهم على أساس أن يقوموا بثورة في الداحل متى شعروا باقترابه من اسبانيا (4).

وقد كان رد فعل الاسبان على مستويين :

- مستوى تدعيم الثغور سواء منها الاسبانية أو البرتعالية، وذلك نتيجة تخوف الاسبان من الخطر المعربي، واعتبار الثغور البرتغالية حزام أمن متقدم للدفاع عن شبه الجزيرة الايبرية، وتمكن من مراقبة الملاحة في المضيق، وعرقلة الاتصال بين المغاربة ومورسكى غرناطة، والحد من نشاط مجاهدي تطوان وسلا والعرائش (6).

على المستوى التجاري: صدر في 29 مارس 1549 أمر ملكي من شارك الخامس يمنع كل العلاقات التجارية بين موانيء الأندلس وموانيء سلا والعرائس وغيرها من الموانىء الخاضعة للحكم السعدي (6) وقد برر هذا القرار بعدة أسباب، منها:

1 _ الاتجار في القمح يؤدي إلى نقصه بإسبانيا وغلائه.

2 ـ تصدير الأثواب والأغطية الى المغرب يؤدي الى وفرتها بكثرة وانخفاض ثمنها، مما يؤدي الى صعوبة افتكاك الاسرى، لانه يتم على أساس هذه السلع، وقد سبق في الماضي ان اغرقت أسواق بادس بالأثواب الاسبانية فرخص ثمنها وتأثرت عملية الافتكاك بذلك، بحيث وصل ثمن الاسير الذي كان يفتك سابقا بعشر دوكات الى مائة وخمسين دوكا.

3 _ ستسمح التجارة مع المغرب بتهريب الاسلحة

4 ـ حرية التجارة تمكن المغاربة من الاطلاع على تحركات الأسطول الاسباني وعلى الأوضاع داخل اسبانيا.

5 ـ المورسكيون الذي يتعاطون التجارة مع المغرب «يعودون» إلى ديانتهم الأولى بمجرد التحاقهم بالمغرب (7).

لكن الأطماع التركية في المغرب افشلت جميع الجهود، واضطرت محمد السيح الى التقرب من الاسبان، بل وطلب المساعدة منهم لمواجهة الاتراك. (8)

وقد أرسل حاكم وهران فعلا الى فاس وفدا يتكون من ثلاثة أشخاص جاؤوا للاتفاق مع محمد الشيخ حول تهييء حملة مشتركة اسبانية مغربية ضد الأتراك (®). وقام العشانيون بأول رد فعل على التقارب السعدي الاسباني، إذ شددوا الحصار على وهران باعتبار أن حاكمها الاسباني كان أداة الاتصال بين فاس ومدريد، الا أن جميع الجهود فشلت نتيجة للنجدات المتواصلة التي كانت تبعثها اسبانيا للمدينة المحاصرة.

وقد أرسل الاتراك اثر هذا سفيرا الى الشيخ يعدونه بالمساعدة لمحاربة المسيحيين شريطة ان يعترف بالسيادة العثمانية (١٥) وهذا ما يوضحه المؤرخ المجهول قائلا: «... وفد عليه رسول السلطان سليم صاحب اصطنبول وهو لسعده بملكه ويهنيه به ويعلمه بها كان عليه بنو مرين من الهدايا والوداد والخدمة والميل اليه والرغبة فيه وانه في نصرتهم. وقد كان ظهر ذلك مع آخر ملوك دولتهم أبي حسون الذي أعطاه أربعة آلاف من جيش الجزائر ودخل بها فاس فسكت عنه ولم يجبه بشيء وبقي عنده الى أن طال جلوس الرسول فطلب منه ان يسرحه فقال له مولاي محمد الشيخ: سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له ان سلطان الغرب لابد أن ينازعك على عمل مصر ويكون قتاله معك عليه: إن شاء الله ويأتيك الى مصر . . . » (١١) .

وإثر هذا الرد أرسل السلطان التركي قوات الى الجزائر ليستعين بها الحاكم العام على احتلال المغرب، لكنهم عدلوا عن ذلك نتيجة التقارب السعدي الاسباني (12)

ونتيجة لهذه الظروف: ظروف التقارب المغربي الاسباني، وتحت ضغط التجار الاسبان، وخاصة تجار المدن التي تعتمد اعتبادا أكبر على التجارة مع المغرب مثل: قادس، ومالقة، واشبيلية، فقد صدر مرسوم يسمح بالتجارة مع المغرب لكن في حدود معينة (13):

- 1 ألا يسمح بالتجارة مع بادس أو الجزائر إلا بواسطة تصريح خاص.
- 2 يجب أن يتم التبادل بالنسبة لاسبانيا انطلاقا من موانيء الأندلس وممالك غرناطة ومرسيه.
 - 3 ـ لا يسمح بتصدير أو الاستيراد إلا البضائع المرخص بها.
- 4 يمنع ادخال البضائع التالية الى افريقيا: الذهب والفضة والأسلحة أو أية بضائع أخرى ممنوعة حسب القانون.
 - 5 ـ يشترط على من يذهب الى المغرب أو الاتجار به ما يلي:
 - ـ أن يكون مسيحيا قديها.

- ـ ألا يكون من اصل مغربي أو يهودي.
- _ ألا يكون غير مشكوك في تعامله مع المغاربة.
- ألا يكون من الفئات التالية: الضباط، الصناع في محال الخشب، والحديد، والسفن، والبارود...
- 6 ـ لا يمكث التجار في المغرب أكثر من سنة، ولا بد أن يقضوا بعدها شهرين على الأقل بإسبانيا
- 7 م تسجل البضائع في الموانيء عند التصدير والاستيراد، وتؤخذ حقوق الجمارك مسبقا قبل الذهاب، كما تؤخذ أجرة المراقبين.
- 8 ـ عند اتمام المراقبة والتفتيش يركب المعنيون بالأمر في السمن ولا يغادروها أبدا قبل الاقلاع .

والواقع أن تعدد هذه الشروط تدل على تخوف الاسبال من أل يكون لهذه العلاقات التجارية مع المغرب نتائج في المجال السياسي عير النتائج التي كانوا يهدفول إليها، لانهم دائها كانوا يفرقون بين مصلحة التجار ومصلحة الدولة، لأن مصلحة التجار الاسبان كانت لا تسير دائها مع مصالح الدولة

وفعلا إذا حاولنا أن نقوم هذه العلاقة فإننا سوف بلاحط أن هناك حوانب إيجابية وسلبية بالنسبة للاسبان :

- فيها يتعلق بالجواس الايجابية ندكر ما يلي :
- اسدى التجار الاسبان خدمات عديدة لدولتهم، فبواسطة هؤلاء كانت تحصل على ما تريده من معلومات عن أحوال المغرب، كما أن التحارة انخذت كغطاء لتحركات الجواسيس والمبعوثين السريين الاسبان (14).
 - كما كان بعض التجار يعملون على افتكاك الاسرى (15)
 - أما الجوالب السلبية بالنسبة للاسبان فهي متعددة، نذكر من بيها .
- استغلال عدد من التجار الاسبان لهذا القرار لبيع الأسلحة ، والمواد الممنوعة للمغرب (16) .
- · _ استغل عدد من المورسكيين هذا القرار للفرار إلى المغرب، بل ومحاربة الاسبان أنفسهم في عقر دارهم (١٦) .

ازداد تقارب المغرب من الاسبان، بل من دول أوروبية أخرى (18) إثر التجاء الاتراك الى اغتيال محمد الشيخ (19) فقد انتهج ابنه عبد الله الغالب نفس سياسة والده، ويتجلى هذا بالخصوص في نقطتين:

- احتلال بادس: إذ اطلق يد الاسبان في احتلالها خاصة انها كانت بيد العثمانيين منذ أن تنازل لهم عنهها أبو حسون الوطاسي مقابل مساعدته له ضد محمد الشيخ، ولانها كانت مثار رعب وخوف بالنسبة له، يقول المؤرخ المجهول في هذا الصدد «... وكانت عمارة أهل الجزائر وسفنهم لا تخلو من مرسى بادس ومسافري أهل الجزائر لا يركبون إلى المشرق أو المغرب إلا من بادس ولا تنقطع معها عمارة الترك في كل أوان فاهتم مولاي عبد الله منذ ذلك وقنط منه وخاف أن تخرج عمارة الترك من تلك البلاد إلى المغرب فكتب الى سلطان النصارى واتفق معه أن يخطي له الادالة من حجرة بادس ويبيع له البلاد ويخليها من المسلمين وتنقطع مادة الترك من تلك الناحية ...» (20).

بالاضافة الى هذا فإن الاسبان كانوا يدركون فعلا الأهمية الاستراتيجية لهذه الجزيرة، فهي أقرب نقطة مغربية إلى جبل طارق ومالقة، وكانت مصدر قلق بالنسبة لهم إذ كانت مقر المجاهدين البحريين الدين كانوا يلحقون خسائر فادحة حتى بالسفن التجارية الاسبانية. (2)

- موقف عبد الله الغالب من ثورة المورسكيين بغرناطة (1568)⁽²²⁾:

يقول المؤرخ المجهول وهو بصدد الحديث عن ثورة المورسكيين بغرناطة: «... فصاروا يكتبون الى ملوك المسلمين شرقا وغربا وهم يناشدونهم الله في الاغاثة وأكثر كتبهم الى مولاي عبد الله لانه هو القريب الى أرضهم. . . فأمرهم غشا منه بأن يقوموا مع النصارى ليثق بهم في قولهم بظهور فعلهم، فلما قاموا على النصارى تراخى عما وعدهم به من الاغاثة وكذب عليهم غشا منه لهم ولدين الله عز وجل ومصلحة لملكه الزائل. . . » . (23)

وعن السبب الذي جعل عبد الله الغالب لا يقدم المساعدة للمورسكيين في ثورتهم يذكر نفس المصدر: «... وكانت بينه وبين النصارى مكاتبات في ذلك ومراسلات...» (24).

وهكذا فقد التجأ السلطان السعدي الى التقارب في سياسته مع الاسبان تحت ضغط التهديد العثماني للمغرب، إذ كانت علاقته مع الاسبان تشكل عامل توازن بالمنطقة يستخدمه في مواجهة الاطماع التركية أي أنه كان يريد الحفاظ على كيان مستقل للمغرب بأقل قدر ممكن من الخسارة: اما التنازل عن نقط معينة للاسبان وغيرهم أو احتواء المغرب بأكمله من طرف الاتراك.

_ 3 _

سوف تتكرر الأحداث بنفس النسق تقريبا في عمل أحمد المنصور الذهبي فقد واجه الأتراك بعنف وهو في أوائل حكمه. (25) بل وأعطيت الأوامر الى علوج على قائد الأسطول العثماني لغزو المغرب، وقد وصل القائد بالفعل إلى الجزائر في يونيو 1981 بينها كان المنصور يرابط بقوات جرارة عند نهر تانسيفت. (26)، وهذا ما جعله يتقرب أكثر من الاسبان، بل ويعدهم بالتنازل عن العرائش (27).

وسيكون لهذا التقارب أيضا تأثير على القضيتين الاساسيتين:

الثغور المحتلة: ألح العلماء على ضرورة استغلال نصر معركة وادي المخازن في سبيل تحرير الثغور المحتلة، فهذا الشيخ، رضوان الجنوي ـ مثلا ـ يذكر في رسالة موجهة للمنصور: «... وإلى هذا فالله، الله في الحزم وامضاء العزم وهو ما ظهر لرعيتكم من انتهاز الفرصة الممكنة في هذا الوقت من الحركة لمدائن الكفار التي هي طنجة وأصيلا وسبتة فإنهم في هذه الساعة في دهش وخزي وذلان بها أمكن الله منهم، ولا أظن ـ نصركم الله ـ مشل هذا يخفي عليكم حتى تحتاج أن نذكركم به منهم ، ولا أظن ـ نصركم الله ـ مشل هذا يخفي عليكم حتى تحتاج أن نذكركم به منه » (28) .

لكن المنصور لم يستطع أن يفعل أي شيء يؤدي به الى الارتماء بين أحضان الأتراك، لهذا فضل التريث والمناورة.

_ أما فيها يتعلق بالقضية المورسكية فمن الطبيعي أن يكون أيضا تأثير لهذا

التقارب على المورسكيين بإسبانيا، ففي صيف عام 1580 اكتشفت مؤامرة مورسكية واسعة النطاق، وقد يكون سفراء المنصور أنفسهم هم الذين افشوا سرها للاسبان (29) فتحالف المورسكيين مع الاتراك، كان يجعله دائها حذرا منهم.

وخلاصة القول: لا يمكن فهم العلاقات المغربية الاسبانية خلال هذه الفترة إلا من خلال العلاقات المغربية التركية كعنصر مؤثر فيها بدليل أن هذه العلاقات ستعرف وجهة أخرى حين اختفاء التهديد التركي للمغرب، وحين هزيمه الاسبان في معركة الارمادا ضد الانجليز في 10 غشت 1588.

إذ سيلتجيء المنصور الى التحالف مع هؤلاء ضد الاسبان، وسوف يسعى جادا لتحرير الثغور المغربية، وتقديم المساعدة للمورسكيين داخل المغرب وخارجه. (30)

هو امـش

- الله العد برسم المدوة التكريمية للاسباذ محمد حمي (كلية الآداب بارباط، 1990) وقد بشر بمحلة المناهل العدد 38، سنة 1989، ص 184 ـ 193.
- (1) تكشف التقارير والرسائل التي بعتها حاكمم وهران الاسباني الكونت الكوديت الى حكومته عن أن محمد الشيح كتب إلى ماشا الحرائر واقترح عليه القيام بعمليات مستركة لفتح وهران والمرسى الكبير، وأنه بعث بهدايا الى درعوت باشا يقترح عليه كذلك الدخول في حرب ضد اسبانيا
 - انظر : المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب ، اسبانيا السلسلة الأولى، 246 . ٦
 - (2) المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب، اسانيا، السلسلة الأولى، 242 [
 - (3) انظر محمد رروق، الاندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 164
 - (4) نفس المصدر والصفحة.
- R Ricard, les places portugaises du Maroc et le commerce d'Andalousie in Annales (¯) de l'Institut d'Etudes Orientales 1983, Alger, T VI page 131.
 - (6) المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب، اسبانيا، السلسلة الأولى، 214 / 1
 - (٦) المصدر السابق 57 1
 - (8) المصدر السابق 270 . 2
 - (9) المصدر السابق، 181: 2
 - (10) المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب، اسانيا، السلسلة الأولى ، 42 : 2
 - (13) لان تخوف الاسبان ظل قائمًا رغم الطروف المستحدتة.
 - (14) المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب، اسبانيا، السلسلة الأولى، 307. 1
 - (3 ") المصدر السابق، 46 : 4 أ
 - (16) المصدر السابق 86: 5
 - (17) محمد رزوق، المصدر السابق، 87 ـ 88
- (⁹) تراجع عن تحرير البريجة (الحديدة) بعد أن اقترب المجاهدون من تخليصها من أيدي البرتعال، كها تنازل للفرنسيين عن القصر الصغير.
 - (19) أبو القاسم الزياني، الترجمان المعرب، محطوط لخزانة العامة بالرماط رقم 658 د، ص 347
 - (20) تاريخ الدولة السعدية، ص 36
 - (21) انظر الحس الوزان، وصف افريقيا، 253 ـ 254
 - مارمول كاربخال، افريقيا، 2 : 230 ـ 243.
 - (22) عن تفاصيل هذه التورة، انظر . محمد رزوق، المصدر السابق 92 ـ 103
 - (23) تاريخ الدولة السعدية، ص 37 _ 38.
 - (24) المصدر السابق، 38
 - ر 25) انظر محمد رزوق. المصدر السابق. 178 ــ 187
 - (26) عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا، ص 61.
- (27) كان الاسبـان يدركون جيدا الأهمية الاستراتيجية لهذا المرفأ الهام بالاصافة الى أنها كانت كمنطلق للعمليات الجهادية التي كان يقوم بها المحاهدون البحريون ضد السفى النحارية الاسبانية
- انطر المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب، الأراضي المىخفضة، السلسلة الأولى، 194_191 : 1. (28) أحمد المران، تحفة الاخوان، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 154 ك. ص 423_44.
 - (29) محمد رروق، المصدر السابق، 181
 - (30) المصدر السابق، 186 ـ 187

دور الكناشات في الكتابات التاريخية المغربية (*)

كثيرا ما ردد الباحثون انتقادهم للوثائق الرسمية من حيث أنها لاتفيد في معرفة ملامح الحياة العامة، وأنها تقتصر فقط على علاقات السكان بالدولة. وأثاروا الانتباه الى صرورة البحث عن مصادر أخرى لاستجلاء تلك الملامح، واتجه نظرهم في هذا الشأن الى الوثائق الخاصة التي تحتفظ بها بعض الاسر، وهي تتكون من عقود الانكحة، والطلاق، والخلع، وملكية الأرض، ووالرهان، والبيوع وجرائد الشركات وضوابط عدد من المعاملات المتعددة الوجوه كشركات القراض، والسلم، والسلف وغيرها. وقد سبق أن أكد جاك بيرك مثلا على أهمية هذه الوثائق الحاصة ولاحظ مدى حرص ناس جيال الأطلس على كتابه معاملاتهم، كها سبق أن استغلها في أبحاثه في منطقة سكساوة. (1)

وبالاصافة الى ذلك فإننا نعثر فيها على إشارات تاريخية هامة تتعلق بالمواليد والسوفيات والقحوط والمجاعات، والأوبئة وتواريخ تعيينات حكام القبائل أو صراعات الجهاعات إلى غير ذلك من الأحداث المحلية وحتى العامة في بعض الأحيان وغالبا ما نجد هذه الوثائق عند ورثة القواد والشيوح والطلبة والمرابطين والقضاء والعدول والكتاب المخزنيين وحفظة وثائق القبائل وأعرافها. وقد كان عدد من الزوايا والأضرحة في الماصي مستودعا أمينا للوثائق، ولولا التفريط في بعض ودائع هذه الزوايا لكانت بمثابة أرشيف محلي.

وسوف نحاول أن نتناول بالدرس نوعا واحدا من هذه الوثائق الخاصة ، ألا وهو الكناشات ، لنبين الدور الذي يلعبه هذا النوع من الوثائق في الكتابات التاريخية المغربية خاصة أن المغرب يتوفر على رصيد مهم منها موزع بيين الخزائن الخاصة والعامة . (2) وقد أكد ذلك أيضا محمد المختار السوسي بقوله : «وما أكثر أمثال هذه الكنانيش عند العلماء» (3) ، وذكر عبد السلام بن سودة أنه كان يتوفر على أزيد من أربعين كناشة في خرانته الخاصة . (4) ، ووصف أزيد من 56 كناشة في كتابه . (5)

مفهوم الكناشة:

الكناشة مذكرة يسجل فيها الشخص ما وقع له من الأحداث، أو كان شاهد عيان على وقوعها، كما يدون فيها ما نظمه من الأشعار، أو ما راج بينه وبين أقرانه من مساجلات أدبية، أو مناظرات علمية إلى غير ذلك . . . وكثيرا ما توجد للفرد الواحد عدة كنانيش لسعة اطلاعه ووفرة مباحثه (۵) ، وبما يدل على اهتمام المغاربة بهذه الكنانيش أن كثيرا من العلماء لا نجد لهم تأليف في موضوع معين ولكن نجد لهم عدة كنانيش تضم خلاصة أبحاثهم .

وتنتشر هذه المذكرات بالشرق أيضا، غير أنهم يطلقون عليها في الغالب اسها آخر (التذكرة)، مثل تذكرة ابن خلدون، وتذكرة ابن مكتوم وتذكرة الصفدي. (٦)

وهكذا فقد أصبح لفظ كناشة اسها مغربيا صميها، كها ييشير الى ذلك شارح القاموس بقوله: «... ومنه الكناشة لاوراق تجعل كالدفتر، تقيد فيها الفوائد والشوارد للضبط، هكذا استعمله المغاربة، واستعمله شيخنا محمد بن الطيب الشركي» (8).

كما أكد ذلك دوزي أيضا : « والكناشة عند المغاربة مجموعة تدرج فيها قواعد وفوائد» ($^{(9)}$.

ولم يستعمل هذا اللفظ (كناشة) أيضا في الأندلس، وإنها يذكر لسان الدين ابن الخطيب اسم الكناش ـ بالتذكير ـ للدلالة على موضوعين من مؤلفاته. (10)

ظهور الكناشة بالمغرب:

لا يعرف ـ بالضبط ـ تاريخ ظهور هذه المذكرات بالمغرب، وأقدم كناشة مذكورة كانت لعبد الرحمان الجادري (ت. 818/1415 ـ 1416)، إذ وقف عليها أبو حامة محمد العربي الفاسي (ت. 1642/1052) وأفاد منها في بعض مؤلفاته. (11)

ومن المؤكد أن هذه التسمية بدأت تنتشر منذ الفترة الوطاسية ، وهكذا استعمل اسم الكناش عنوانا للترجمة الذاتية التي كتبها لنفسه أبو العباس أحمد زروق (ت. 899 هـ/ 1493 _ 1494) (12) ويأتي بعده عبد الواحد الونشريسي ، إذ ورد على أنه خلف عدد من الكنانيش (13) ، وكذلك الشأن بالنسبة لعبد الرحمان سقين (ت. 1549 هـ/ 1549).

الكناشات في العهد السعدى:

يعتبر العصر السعدي فترة انتظام أكثر لهذه المذكرات، وهكذا فإن المنجور يشير في طالعة فهرسته (14) إلى مجموعة من كنانيشه، كها أن أحمد بابا التنبكتي يصنف الكناشات من بيين مصادرها مؤلفاته. (15) ونشير أيضا في هذا الصدد الى محمد بن قاسم القصار القيسي (ت. 1012/1004) الذي كان كثير التقييد في بطاقات ترك منها أعدادا وفيرة، وصارت بعد وفاته تباع بالأرطال. (16) ويحتذي حذو القصار نخبة من طلابه، منهم عبد الرحمان الفاسي (17)، وأبو حامد محمد العربي بن أبي المحاسن يوسف الفاسي، وكان له من الاعتناء بتقييد شوارد الفوائد ما لم يكن لغيره، حتى أنه يكون راكبا في السفر فيتذكر مسألة يبدو له فيها جديد، فيوقف فرسه حتى يسجل ما عن له في الوقت ثم يتابع السير (18)، ويقول عنه الحسن اليوسي أنه كان منذ دأبه متى لقي انسانا يسأله من أي بلد هو ؟ ومن ببلده من أهل العلم والصلاح متى لقي انسانا يسأله من أي بلد هو ؟ ومن ببلده من أهل العلم والصلاح والأعيان، ويقيد ذلك كله (19).

وقد عرف العصر العلوي نفس الاهتمام بهذه الكناشات (20) .

بعض مميزات هذه الكناشات:

- تسجل فيها المقيدات بدون انتظام، إذ يدون فيها صاحبها ما يهمه حسبها اتفق له، ولهذا لم تكن مبوبة في الغالب، وقليل منهك يصدر بفهرس للكشف عن الموضوعات، وقد يتداول كتابتها أكثر من واحد.

ـ من حيث الخط: خطها على العموم من النوع السريع الدقيق المدمج، وفي غالب الأحيان تكون هذه الكناشات بخطوط أصحابها.

من حيث موضوعاتها: تعكس في الغالب اتجاه أصحابها، فيغلب ـ الفقه على مقيدات المتصوف، مقيدات المتصوف، والتاريخ على مدونات المؤرخ وهكذا...

ـ غالبية هذه المدونات لا تحمل اسم صاحبها أو أصحابها بطريقة واضحة، وإنها يستخرج ذلك عرضا من ثنايا المقيدات، أو بواسطة مقارنة الخط.

من مزايا هذه الكناشات انها قد تنفرد بإفادات تاريخية منوعة، وربها تكون غير معروفة بالمرة، فتكشف عن معلومات جديدة: في موضوع التراجم أو أحداث مجهولة يجليها شاهد عيان، أو افتباسات من مؤلفات صارت ضائعه، وأحيانا يقع العثور على حقائق لم تكن إذاعتها ميسورة في حياة مدونها، هذا الى أن عديدا من هذه المقيدات يستفاد منها الترجمة الذاتية لصاحبها كلا أو بعض.

هل يعتمد المؤرخ كل ما ورد في هذه الكناشات ؟

إذا كان من وظيفة المؤرخ ألا يهمل أي مصدر يمكنه من الاستفادة في التاريخ لقضية من القضايا التاريخية، فإن هذا يجب ألا يجره الى الأخذ بكل ما وجد بين يديه ويعتمده في صياغة رأيه تجاه الموضوع المقترح بل لابد أن يضع أي شيء يتم بين يديه نحت ميزان النقد والتمحيص. كذلك الشأن بالنسبة للكاشات فيجب أن تخضعها لمعايير معينة تساعدنا على الخروج بتصور واضح حولها، (21) وهذا ما نلاحظه بالفعل عن مؤرخي المغرب القدامي، إذ لم يكونوا يعتمدون الا على الكناشات الموثوق بصحتها لاثبات حقيقة أود شبهة، فالافراني يصنف كناشه أبي زيد التمناري ضمن مصادر كتابه صفوة من انتشر (ص 228)، ومحمد بن الطيب القادري يسجل انه رجع الى كثير من الكنانيش الموثوق بها، (22) فهو ينقل _ مثلا _ عن كناش محمد العربي رجع الى كثير من الكنانيش الموثوق بها، الموضوع وغيره . . . »، (24) كما استفاد من هذه القادري : «طالته وقيدت منه في هذا الموضوع وغيره . . . »، (24) كما استفاد من هذه الكناشات أيضا عدد من مؤرخي القرن الحالي مثل ابن زيدان، ومحمد الكانوني، ومحمد بن علي الدكالي، والعباس بن ابراهيم، ومحمد المختار السوسي، ومحمد داود

نهاذج من موضوعاتها:

- كناشة محمد بن قاسم الزجالي الفاسبي (ت 1072 / 1552) وهي ملأى بالقصائد والمقطعات لادباء من العصر السعدي فضلا عن أشعار من الفترة الوطاسية، وبعض هذه الأدبيات لا يعرف إلا من خلال هذه المجموعة، وتبدو أهمية هذه المجموعة إذا لا حظنا أن ترجمة صاحبها في المصادر المعروفة لا يتعدى بضعة أسطر (26) في حين تسد هذه الكناشة بعض الفراغ في حياته فتذكر أساتذته وتشير إلى رحلته الدراسية الى القاهرة، وبعض من أخباره بصفة عامة.

تقع هذه الكناشة في 96 صفحة مكتوبة بخط صاحبها ـ على الأرجح ـ وهو خط مغربي دقيق منهج، ليس في بدايتها مقدمة ولا في نهايتها خاتمة، وليس فيه أيضا ما يدل على النقصان. وتشتمل هذه الكناشة على نحو ألف بيت من مختلف بحور الشعر المعروفة، قصائد وموشحات في عصر أحمد المنصور الذهبي، وهم على الشكل الآتي:

ملكان _ وفقيهان _ وأربعة عشر مشاركا في علوم مختلفة إلى جانب الأدب والشعر _ وأربعة عشر أديبا صرفا، من بينهم أدباء مغمورون أو مجهولون تماما (27) _ كناشة في شؤون بحارة العدوتين، (89) إبتداء من شعبان 1183/1189.

وهي تشتمل على لواثح بأسهاء بحارة مدينتي الرباط وسلا وما يتقاضونه من الأجور، وهو أمر بالغ الأهمية إذا علمنا أن المصادر التاريخية تغفل عن ذكر عموم البحارة وتكتفي بذكر قادتهم المشهورين فقط، ولا يتعرض في الغالب لاجورهم (29)

_ كناش «مرسى العرائش» ابتداء من تاريخ 3 رجب 1334. (٥٥)

ـ ثلاثة كنانيش لمرسى الصويرة تهم الفترة المتراوحة ما بين 1318 و1319. (٥١)

ومن الكناشات المهمة كذلك كناشة الطيب بوعشرين يتراوح تاريخها بين أعوام 1276 إلى عام 1261 هـ.

وهي تشتمل على 114 ورقة متوسطة الحجم، وتتضمن من جملة ما تتضمن:

- ـ تقاييد لمخلفات بعض القواد
- ـ أسهاء قواد نواحي زعير ودرعة وزمور وغمارة والريف وبني زروال .
 - ـ عملية احصاء المزروعات بشرق مدينة فاس.
 - ـ تقاييد امكاس الموازين والأبواب.
 - ـ ما تدفعه قبائل الحوز من القمح إلى المراسي.
- ـ رسالة في موضوع رفع الحظر عن تسويق الصوف والحبوب إلى الخارج. (32)

وبعد هذه نظرة سريعة عن الكناشات ودورها في كتابة تاريخ المغرب حاولنا إثارة الانتباه الى أهميتها، ونعتقد أنه من الضروري إحصاؤها وتجمعها وفهرسة الموجودة منها في المكتبات العامة، ومحاولة جلب ما هو عند الخواص ليوضع هو الآخر رهن إشارة الباحثين، وأرى من جهة أخرى أنه آن الأوان لتوجيه الباحثين الشباب إلى مثل هذه الوثائق الخاصة عوض توجيههم لدراسة مواضيع تقليدية قتلت بحثا، بل وتكرر ما سبق أن درس.

هو امـش

- (*) اعد بر سم الندوة التي نظمت مالحرائر (بوببر 1988) في موصوع : «المصادر والوتائق الحاصه»
- Notes sur l'histoire des echanges dans le Haut-Atlas in A.E.S.C 1953 PP 289 314 (1)
- (2) محمد المنوني، «الكناشات المغربية ودورها في الكشف عن الدفائن التاريخية»، مقال مجلة المناهل،
 الرباط، مارس 1975، ص 210.
 - (3) سوس العالمة، ص. 219.
 - (4) دليل مؤرخ المغرب الاقصى، 2 · 462
 - (5) المصدر السابق، 2 161 ـ 470 ـ 470
- (6) وقف عبد السلام بن سودة على أزيد من عشرة كنانيش للحافظ أبي عيسى المهدي بن الطالب انظر المصدر السابق، 2 · 462
 - (7) هناك لائحة مطولة لهده التداكرات عبد حاجي حليفة في كشف الظنون، 1. 383. 394
 - (8) مرتضى الزبيدي، تاج العروس، 4 : 347.
 - (9) ذيل المعاجم العربية، 2 : 94 .
- (10) هما : أرجُورته الالفية في أصول الفقه الحلل المرقومه، في اللمع المنظومة. ورساله مثلي الطريقة في ذم الوثيقة.
 - انظر نفاضة الجراب، ص 187 ـ 188.
 - (11) شرحه على دلائل الخيرات للجزولي. مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم 1532، ص 113
 - (12) قام ىتحقيقه أحيرا الباحت الليبي الدكتور على فهمى خشيم وقد صدر بليبيا في بداية الثبانيبات.
 - (13) فهرس أحمد المنجور، ص 50.
 - (14) فهرس أحمد المنجور، ص 10.
 - (15) نيل الابتهاج، ص 361
 - (16) محمد الأفرآني، صفوة من انتشر، ص 18.
 - (17)
 - (18) محمد الافراني، المصدر السابق، ص 71.
 - (19) المحاصرات، 72.
 - (20) انظر محمد المنوني المصدر السابق، ص 200 ـ 201.
- (21) للقدماء رأي خاص في موضوع النقل من الحواشي والطرر المدونة على هوامش الكتب. فالشهاب القرافي يمنع بالمرة اعتباد هده التعليقات الكتوبة بهوامش المؤلفات، لكن ابن فرحون يحلل نظرية القرافي يقول : «مراده إدا كانت الحواشي غريبة النقل، واما إذا كان ما فيها موجودا فلا فرق بينها وبين سائر التصانيف» تبصرة الحكام، 1 : 59.
 - (22) نشر المثاني، 1 : 323
 - (23) نشر المثاني، 3 : 158
 - (24) السر الظآهر، الملزمة 18 ص 3. طبعة حجرية.
 - (25) يوجد الاصل في ملك الاستاد محمد الفاسي، وتوحد منها مصورة بالخزانة العامة بالرباط عدد 67
 - (26) أنظر مثلاً ـ نَشْرُ المثاني، 2: 127
- (27) انظر مزيدا من الايضاح عن هذه الكماشة، محمد حجي، كماشة أدبية مغربية ضمر أعمال ندوة حول جوانب من الادب في المغرب الاقصى، ص 281 ـ 295.
 - (28) الاصل بالمكتبة الباصرية بسلا، ومنه مصورة بالخزابة العامة بالرباط رقم 1409 في 160 لوحة
- (29) استفادًما بدورنا من هذه الكناشة عند إعدادنا لاطروحتنا حول الأندلسيين وحهادهم البحري بالمغرب.
 - (30) الخرانة الصبيحية ممدينة سلا، دون رقم
 - (31) نفس الخزانة
 - (32) انظر مزيدا من الايصاح عند محمد المنوني، المصدر السابق، ص 209 ــ 210.

ملحق لبعض الكنانيش الموجودة بالخزانة العامة بالرباط

* * *

| رقمهسا | مؤلفها أو جامعها | اسم الكناشة |
|--------------|--|---------------------|
| | | |
| s 163 | محمد بن محمد بن سودة (ت. 1122/1710) | كماتمة السودية |
| 1056) د 1056 | إبراهيم بن محمد البرسي (ت. 1130/1717_18' | كناشة البرنسي |
| 1044 | أحمد س محمد بن عاشر عبد الرحمان السلوي | كناشة الحافي |
| | (ت. 1749/1163 ـ 1750) | |
| 9115 | محمد بن العربي بن أحمد | كناشة الفيلالي |
| 3303 ك | محمد س أحمد الفاسي (ت 1799/1213) | كباشة بنيس |
| 464 4 | أبو ىكر ىن محمد الحسني (ت. 1240 /1824). | كناشة المنجرة |
| 1081 4 | عبد العزيسر | كناشة الغرديس |
| 1182 🖆 | أحمد بن عبد السلام | كناشة السريفي |
| 491 4 | محمد بن المعطى المراكشي (ت. 1296/1878) | كناشة السرغيني |
| 29 4 | محمد المدني بن على (ت 1880/1298) | ۔ کناشة ابن حلوں |
| 480 ك | عمد بن أحمد الحسيني الفاسي | كناشة الصقلي |
| د 158 | عبد الواحد بن محمد الانصاري | كاشة ابن الفقيرة |
| ك 469 | علال بن أحمد علال بن أحمد | كناشة بنشقرون |
| | | - |



العلاقات العربية الافريقية في القرن السادس عشر (*) (الوجود المغربي بالسودان الغربي كنموذج)

إن العلاقات العربية الأفريقية ينظر إليها اليوم بطرة خاصة منبثقة من المكوّنات السياسية والاقتصادية والثقافية التي يعيشها كلا الطرفين. إبنا اليوم حينها ننظر إلى هذه العبلاقات سنظر اليها على أنها علاقات جديدة منبثقة أساسا من علاقات مصلحية بين الطرفين، فالعالم العربي يعرص مساعدته على أفريقيا مقابل مواقف معينة لهذه الأخبرة تجاه القصايا العربية، وهذا فعبلا ما تشجع عليه الدوائر الاستعمارية لأنها هي نفسها يمكن أن تستغل هذا العامل لصالحها. فلم يلتفت بعدئذ، إلى الجوانب الأخرى غير الاقتصاد لبعث هذه العلاقات وخاصة دراسة التراث العربي بأفريقيا، فهازالت بصهات الوجود العربي بأفريقيا موجودة إلى يومنا هذا. ومارال الأفارقة ينظرون نطرة خاصة إلى العرب ملؤها التعاطف والتضامن. إما نقصد من كل هذا الرجوع إلى التاريخ لاستخلاص التجربة، ولدراسة الوسائل التي استخدمها العرب لتركيز وجودهم بأفريقيا. إن العرب القدامي استطاعوا بإمكانياتهم الضعيفة أن يركزوا وجودهم بأفريقيا وإلى يومنا هذا، في حين طل الاستعمار هامشيا رغم ضخامة وسائله وطول فترته، لأن العرب كانوا يعتبرون أنفسهم أبناء المنطقة، فهم يتاجرون وينشرون الاسلام واللغة العربية، ولم يطع أي هدف على الأخر، في حين كان للاستعرار هدف واحد فقط هو الاستغلال الاقتصادي للمنطقة مما نفر منه الأفارقة. وحذار أن نقع في نفس الخطأ فنهمل تراثنا الفكرى هناك لنركز في إقامة هذه العلاقات على الجّانب الاقتصادي فينظر إلينا الأفارقة بنفس النظرة التي كانوا ينظرون بها الى المستعمر القديم.

وعلى كل فإننا سنتعرض لتجربة من التجار ب التاريخية التي مرت بها العلاقات العربية الأفريقية ألا وهي تجربة الوجود المغربي بالسودان الغربي وهي تجربة تتميز بتداخل المكونات الاقتصادية والفكرية لتفرز نموذجا خاصا من نهاذج العلاقات الاسابية بين الشعوب.

1 ـ دوافع فتح السودان: الجهاد كعامل أساسي لتركيز الاسلام هناك تعددت العوامل التي أدت بالمغرب إلى فتح السودان، وهي تتراوح بين العوامل الاقتصادية والدينية والدولية، لكننا سوف نقتصر في هذا العصر على جانب الجهاد لأنه يبرز أهمية الدور المغربي في إنقاذ السودان، وذلك ما سنحاول أن نبرزه في النقاط الآتية:

- _ قامت الدولة السعدية على الجهاد ضد الاحتلال البرتغالي، ومن هذا المنطلق كانت عملية فتح السودان من ضمن المهام المنوطة بها دينياً ووطنياً.
- كانت هذه العملية كرد فعل مباشر ضد سقوط الأندلس، وما كان يعانيه من تبقى من المسلمين هناك، لذلك فلا غرابة أن نرى وقوف الأندلسيين المطرودين والمغاربة صفاً واحداً لفتح السودان، لتركيز الاسلام به.
- الوجود الأجنبي بالسواحل المغربية، وتطلع أوروبا المسيحية إلى جولة انتقامية فوق البرّ الأفريقي .
- المستعمرات البرتغالية تجاه ساحل السنغال، والتمركز الاسباني في جزر الكناري يحملان أخطار الاحتواء الأوروبي لأراضي واقعة في بلاد الاسلام وتستوجب حمايتها والجهاد من أجلها.

وبالاضافة إلى ذلك فقد كان أحمد المنصور الذهبي (1578 ـ 1603) يهدف من وراء ذلك أيضاً إلى استغلال خيرات السودان للجهاد في إسبانيا وإرجاعها إلى حظيرة العرب كما تدل على ذلك إشارة مؤرخه عبد العزيز الفشتالي في تبربره لاستغلال خيرات السودان: (... للاستكثار من الأسطول لغزو عدو الدين والاجلاب عليه بحول الله فيي عقر داره...) (۱). والجدير بالذكر أن فكرة فتح السودان لم تكن لتقبل بسهولة لدى مستشارى المنصور، وذلك لسبين:

1 - عامل طبيعي ويتمثل في الصحراء القاحلة التي سوف تعترض الجيوش كما صرح بذلك مؤرخه: (اعتراض المفاوز البيد، والمجاهل والقفاز، التي لا تشقها الرفاق القلائل، إلا بعد عصب الريق، والافلات من مخالب الهلكة. . .) (2) .

2 ـ لم تفكر أية دولة من الدول السابقة في غزو السودان بالرغم مما اتصف به بعضها من : (وفور الأجناد وامتداد ظل السلطان... ولو كان ذلك في طوق إمكانهم لكان همهم الذي يسرع إليه هو ابتدارهم...). (3) لكن المنصور استطاع أن يقنع مستشاريه مركزا على نقط عدة منها :

- تفوقه العسكري وما يتوفر عليه الجيش المغربي من أسلحة فتاكة خلافا لما كانت عليه الحال بالنسبة للدول المغربية السابقة التي لم تخرج عن (عساكر الخيل والفرسان الرامحة وعصائب الرماة الناشبة. . .) (4) .

_ توفر المغرب على قواعد الانطلاق نحو السودان في كل من توات وتيكوراين .

_ توفر المنطقة على موارد اقتصادية ضخمة . وقد اتّخذ المنصور من التجار الذين كانوا يتاجرون مع السودان، ويقطعون الفيافي والقفار للوصول إليه مثالا يمكن الاقتداء به، (ثم هؤلاء التجار الخائضون لغمارها المختلفون إليها يعبرونها بأوقار البضائع الثقيلة، وأحمال المتاع الجمّة بين صدر وورد) (5).

وفعلاً فقد تنبه الاسبان إلى السواحل الغربية لبلاد السودان لاستغلال خيراتها، خاصة وأن هذه الأخيرة اضطربت فيها الأحوال بانهزام البرتغال في وادي المخازن وزوال أمبراط وريتهم. وحسب السرسالة التي وجهها الاسباني ولزوال أمبراط وريتهم. وحسب السرسالة التي وجهها الاسباني Moura Mignel إلى Melchoir de Petoney فإن جزيرة Arguin القريبة من الربأس الأبيض، عند مصب نهر السنغال في المحيط الأطلسي والمناطق الأفريقية المجاورة ها بلاد غنية بالقمح والشعير والماشية والفواكه وبمعادن الذهب وأن أهالي المنطقة وأرسل سفناً عمّلة بالمصنوعات الزجاجية والخناجر والأجراس والثياب والمرايا وغيرها لمبادلتها مع الأهالي بالذهب لعاد ذلك بالنفع العميم على اسبانيا بدلاً من ترك هذه الخيرات للمنصور. وقد استولى الاسبان فعلا على الجزيرة المذكورة وأخذوا يتاجرون منها مع المناطق المجاورة (6)، الأمر الذي يمكن اعتباره كمنافسة للمنصور في غربي أفريقيا وبلاد السودان، ومن العوامل التي جعلته يعجّل بالتدخّل العسكري في السودان قطع الطريق على الاسبان: (وهو الآن - أيده الله - لهذا العهد من عام سبعة وتسعين وتسعائة واقف على قدم الأهبة والاستعداد. . . من جهاد المشركين وإغراء أرضهم في الجنوب بعساكره الأمامية . . .) (7).

ـ توحيد المسلمين بغربي أفريقيا :

كان المنصور يرمي بهذا الفتح الى تجمع كلمة المسلمين في غربي أفريقيا، وتوحيد قواهم للوقوف صفا واحدا أمام التهجهات الخارجية التي يمكن أن يقوم بها الاسبان بصفة خاصة أو غيرهم من الأوروبيين الذين كانوا يتربصون الدوائر ببلاد السودان الغنية وذات السواحل الاستراتيجية التي تتحكم في طريق الهند البحرية:

(وقصدنا بها يحصل من دلك صرفه إن شاء الله في سبيل الغرو والجهاد وفي أرزاق ما لنظرنا العملي من العساكر والأجناد التي جعلناها لنكاية عدو الدين بالمرصماد واعتدناها للذب عن كلمة الاسلام وحياطة البلاد والعباد. . .) (8) .

وفعالًا فقد أشرف المنصور بنفسه على الحملة، إذ في مطلع شهر محرم لعام 999 هـ أخذت الحملة طريقها نحو السودان بقيادة جؤدر باشا (٩) ، وقد جعل له مخدومه هيئة استشارية عليا من كبار القواد · (وشد مولانا الامام . . . أزر ملكه . . . متقات من كفاته . . . أولى الدهاء والرأي وذوي النجدة في مضايق الحروب . . . يرجع إليهم في مخص زبده الآراء ومجال المفاوصة) (١٥) .

وقد كانت بلاد السودان حلال السنوات العشر الأخيرة من القرن العائشر للهجرة (900 هـ ـ 999 هـ / 1581 ـ 1591) تعيش أوضاعاً داخلية سيئة كها أكد دلك المؤرح السوداني عبد الرحمن السعدي . (ثم بدلوا نعمة الله كفرا، وما تركوا شيئا من معاصي الله تعالى إلا وارتكبوها جهرا) (١١) ومنذ أن وصلت الحملة المغر بيية إلى (كارابار) على نهر البيجر، جددت نداءات الأمان للسودايين :

(واعتقدوا مع دلك كل من أمتموه من عساكرنا الطالعة براياتها البيض على تلكم الأقطار السودانية . . فقد أمناه ، ومن أجرتموه فقد أجرناه) (١٤) . غير أن تساؤلات عديدة تطرح بقسها ونحن بصدد تقويم العمل المغربي بالسودان ، ويمكن تلخيصها فيها يأتي :

1 - مدى تجاوب السودانيين مع الفاتحين المغاربة.

2 - وما مدى عدالة حكمهم .

كان لنداءات الأمان وحسن المعاملة كبير الأثر في تعامل الفئات المختلفة من العامة في السودان مع الفاتحين: (وأخذوا في التمهيد، وتسكين الشارد، وتأمين الطريد، وبسط الهدر، وخفض الجناح، حتى اطمأنت النفوس المستنة في مجال القلق، واستقرت الأفئدة الجائشة بها خامرها من الرهب والذعر الذي ملا أحشاءهم، وأزاغ أبصارهم، وأشكت لرحبه مسامعهم، من أجل حدة الدولة، وتقل الوطأة، وجلال السلطان) (13). وبتوالي الأيام ازدادت الصلات ببن المغارية والسودانين، وتعددت مجالات تعاونهم. (وانحشرت عوالم من دهمائهم لمشاهدتها، وارتاع لها أقاصيهم وأدانيهم) (11).

وإلى جانب الفئات الشعبية هناك العديد من حكام المناطق الدين رحبوا بالفاتحين وتعاونوا معهم: (وجاز هو على حاله إليهم ومعه جنكي عبد الله بجيشه وسلطان ماسته وسلطان سنقربوب ول بجيشهم) (15).

وأيد الهاتحين أيضا عدد من العلماء السودانيين وفي مقدمتهم قاصي تمبوكتو عمر ابن محمود بن عمر، وخطبت كاعو محمود رامي، (وهو شيخ كبير يومئذ. . وتلقاهم الخطيب المذكور بالترحيب والاكرام وأضافهم ضيافة فاحرة كبيرة) (16).

أما عن مدى عدالة الحكم المغربي في السودان، فاعتبادا على ما أورده المؤرخ السوداني عبد الرحمن السعدي في (تاريخ السودان)، فإن سلوك أغلبية المسؤولين المعاربة كان محموداً: فعدما رفع عبد الله بن شين المحمودي بشكواه إلى المنصور في شأن إبل له صادرها جودر (ووافقوا بإبل عبد الله بن شين المحمودي فأحد مهم جودر مقدار حاجتهم فركب وغرب إلى الأمير مولاي أحمد في مراكش اشتكاء بها باله منهم من الطلم. . . وكتب له أن يعطوه ما أخدوا من إبله . .) (17) .

وسوف نتعرف على عدالتهم أكثر عندما بلقي نظرة على المجهودات التي بذلها المعارة لتطوير المنطقة اقتصاديا.

2 _ الآثار الاقتصادية للوجود المغربي في السودان:

ليس هنالك من سبيل إلى إنكار التطور الذي عرفته الحياة الاقتصادية في إقليم السودان مبذ وصول المغاربة وإلى الوقت الذي حل فيه الحبش الفرنسي في تلك الربوع. لقد أتر الوحود المغربي في السودان على نحو لا يقبل التأويل أو الشك في الأسس البنيوية للاقتصاد السوداي مما أدى إلى أحداث تغيير حدري في كمية ونوعية الانتباج وفي التصيع والتجارة وساهمت ظروف الأمن والتنطيم الاداري الجديد والقوانين التجارية في تطوير ونمو اقتصادي كبير.

كان الأثر الأول للوجود المغرب في السودان هو الوحدة الادارية بين أقاليم السودان، ففي عهد الأساكي الحمسة السابقين للحكم المغربي كانت أمراطورية السويغاي الى وحدها الاسكى الحاح محمد قد تعرقت إلى ممالك وإمارات وأقاليم

إقطاعية ، وحتى في فترات السلم والامن التي كانت تسود تلك الأقاليم في بعض الأحيان ، فإن القيود التعسفية التي كانت تفرض على التجارة جعلت انتقال السلع بين جهة وأخرى يكتنفه التعقيد . وغثلت تلك القيود في فرض الضرائب عند أبواب المدن وأخذ الغرامات ، والأتاوات الباهظة لخزائن الحكام . ويضاف إلى تحقيق الوحدة التي حققها المغاربة عودة الأمن والنظام واختفاء قطاع الطرق الذين كانوا في السابق يوالون السطو على القوافل البرية والسفن التجارية . والأتر الثاني للحكم المغربي كان تزايد إقبال التجار على نقل بضائعهم من وإلى المغرب ، فالأوضاع خلقها النزاع المستمر على مناحم الملح انعكست بشكل سلبي على التواصل التجاري بين الجانبين ومع اختفاء ذلك النزاع وأسبابه والأوضاع التي نتجت عنه أخذت التجارة في الاتساع والنمو وبدأ الحديث عن القوافل التي تضم الاف الجمال التي كانت تقطع الصحراء من الجهتين .

والأثر الثالث: تمثل في استيلاء السلطان على مناجم الذهب والملح والنحاس باعتبار أن حكم الشرع فيها يقضي بملكية السلطان لها، ونحن وإن كنا نحهل بمقتضى ما بين أيدينا من وتائق له الطريقة التي كانت تدار بها تلك المناجم المحروسة بالجيش، فإننا نجزم بأن أمر الاستثهار والنقل والبيع قد شهد تبديلا جوهريا، ونستدل على ذلك من ارتفاع قيمة الذهب، والأثر الرابع تحول المعاملات في الحملة عن المقايضة إلى التعامل النقدي، وهو أمر أثر بكيفية ملموسة على النمو الاقتصادي في السودان ، فذهب السودان لم يكن يدهب كله إلى خزائن السلطان بل كان القسم الأعظم منه يدخل دار السكة في تنبوكتو ويضرب مثاقيل ودنانير لم تكن تشبه لا في الشكل ولا في الوزن مثيلاتها في الشمال .

الأثر الخامس: هو إدخال الموازين والمكاييل والمقاييس إلى السودان على يد المغاربة وقد أدى ذلك إلى وحدة المعايير السودانية وخضوعها جميعاً للدقة المطلوبة في ميدان التجارة والمعاملات الأخرى وإلى كبح الغش والتدليس وإسقاط الوساطات والمزايدات التي كانت إحدى عيوب التجارة السودانية القديمة.

والأثر السادس: تنظيم الأسواق المحلية على شاكلة ما كان يوجد في المغرب الشمالي، فبيما كانت الأسواق الكبرى تعقد كلما قدمت قافلة أو همّت قافلة بالتوجّه إلى الشمال، وكانت الأسواق الصغرى عبارة عن اتصالات بين القبائل للمقايضة،

أصبحت هناك أسواق يومية في كل المدن الكبري، وأسواق أسبوعية في القرى تعقد فيها البيوع على أساس التعامل النقدي بضمانة أكيدة وموثوقة من بيت المال بتنبوكتو.

والأثر السابع : ظهور الصناعة التحويلية والكمالية على نحو لم تعرف له السودان نظيرا من قبل، ولقد كان للأعداد الكبيرة من الصناع المهرة الذين صحبهم جؤذر معه إلى السودان أو الذين توافدوا بعد ذلك إلى البلاد الأثر المحمود في خلق صناعات جديدة وتحسين الصناعات البدائية التي كانت معروفة قبل مجيء المغاربة إلى السودان.

والأثر الثامن تمثل في بقل بذار ومزروعات جديدة إلى السودان بها في ذلك أنواع من الحوامض والبطيخ الأحمر والقمح الصلب والتبغ وقصب السكر، وكذلك في تحسين المزروعات التي كانت موجودة عن طريق تنظيّم الدورة النباتية، واختيار الأماكن الصالحة لكل ببتة واستخدام السياد الحيواني المركب، وضمن هذا المجال أيضًا نذكر الأعمال الهامة في ميدان الريّ وشق القنوات وتحويل روافد نهر النيجر التي أنجزها المغاربة ولم تمرعلي محيئهم إلى تنبوكتو سوى بصعة أشهر

هذا ما يتعلق الآن بالأثار الاقتصادية فها حدثت آثار فكرية موازية لسالفتهما ؟ ذلك ما سنحاول أن نتعرف عليه في العنصر الموالي.

3 _ الآثار الفكرية للوجود المغربي بالسودان:

كان للاسلام الفصل الأكبر في نقل اللغة العربية ومختلف علوم الدين إلى أماكن كترة من السودان الغربي، ولم يكن لجهود الدعاة والوعاط ولا لحلقات العلم في الجوامع من هدف سوى تعريف السودانيين بالأداب الاسلامية وقواعد الدير وتنظيم المحتمع على أسس جديدة، ولم تعرف الشعوب التي أسلمت عف الصراعات المذهبية التي عرفتها الأندلس والمغرب لأن المذهب المالكي كال مندعهد الم انطين هو المعتمد بكيفية تكاد تكون شمولية.

ويمكننا أن نتصور ثلات مراحل عبرت حلالها الثقافة الاسلامية العربية إلى المحتمعات السودانية. المرحلة الأولى: نهض بها الدعاة وسط القبائل والمساجد في المدن واستمرت حتى أواسط القرن الرابع عشر، وكان ما نتج عن تلك المرحلة تعليم سواد الناس العبادات والمعاملات والسلوك الديني.

المرحلة الشانية: امتازت بتوثيق العلاقات المغربية والمشرقية مع السودان وانتقل خلالها علماء الفقه والحديث، وجماعة من المهندسين المعاريين إلى مناطق متباعدة في السودان، وأدّت جهودها إلى إدخال الثقافة العربية والفنون العربية وخلق مدرسة إسلامية سودانية وبصفة خاصة في مجال علوم الدين من فقه وحديث ومسائل ونوازل.

والمرحلة الثالثة: تبتدىء منذ أواخر القرن السادس عشر وقد وسعت المجالات السابقة وصقلتها وأضافت إلى أغراضها الفكرية مجالات وآفاق تمثلت في فنون أدبية أكثر عمقاً وإشراقاً وإبداعاً كالفلسفة والمنطق والتاريخ وآداب الرحلات والشعر.

ويمكن القول بكل اطمئنان بأن المراكز الثقافية الاسلامية في ذلك الوقت كانت قد حققت نجاحاً كبيراً في ربط الفكر الديني العربي بالحضارات الأفريقية (18) ، وسار ذلك الربط في بطاق التأثير المتبادل دون حدوث نكسات أو أدنى مظهر للرفض من طرف الأفارقة الذين أصبح ما تعلموه وخبروه جزءاً من كيانهم الخاص ، وهذا ما أطلقنا عليه المدرسة الأفريقية .

ولقد توارد على بلاد السودان عشرات العلماء من المغرب، واستقبلت جامعة القرويين العشرات أيضا ممن لمع اسمهم في تاريخ البلدين معاً، وازدهرت تحارة الكتب وحفلت خزائن مدن السودان بكل ما كان معروفاً من كتب في محتلف الفنون، وبارك الاساكي (ملوك السودان) الحركة العلمية والثقافية العربية وشجعوها واحترموا العلماء والفقهاء، وأسقطوا عنهم وظائف للسلطنة وغراماتها ومنعوا عنهم ظلم الحكام بحيث كان للاسكيا وحده حق النظر في أية شكوى ضد عالم أو فقيه (19).

ومن أهم رجالات العلم في هذه الفترة الذين أعطوا للثقافة العربية الاسلامية دورها الحاسم في المنطقة نذكر : محمد بن الكريم المغيلي، وصالح بن محمد أندي

المعروف بالشيخ العمري، وعبد الله بن أحمد ابن سعيد، ومحمد عيسى ابن علي التلمساني، وأبو القاسم التواتي، وعبد الرحمن ابن علي ابن أحمد القصري . . . إلى غير ذلك من العلماء.

وبعد هذه جملة أحداث سياسية واقتصادية وفكرية من شأنها أن تلقي الضوء على فترة من أهم فترات تاريخنا، فترة كان المغرب فيها ينازع القوات الاستعمارية الكبرى آنذاك (اسبانيا والبرتغال) من أجل إنقاذ نفسه أولا وتركيز الاسلام ونشر نفوذه بالسودان من جهة أخرى، وهي فترة قال عنها المؤرخون الاستعماريون الشيء الكثير، وصموا الوجود المغربي بالسودان في هذه الفترة بأنه احتلال تعسفي، في حين سموا وجودهم بالمنطقة انطلاقا من القرن الثامن عشر والى غاية القرن العشرين عملا (تحضيرياً) لاخراج الشعوب الأفريقية من ظلامات الجهل والفقر والمرض (الأفريقي) إلى النور (الأوروبي). وقد حققوا فعلا من جراء ذلك كل ما أرادوا، فأزالوا الجهل والفقر والمرض، لكن ليس من أفريقيا بل من أوروبا، التي ظلت وحتى بعد خروجها من المنطقة ترفض أية محاولة تخرج الشعوب الأفريقية من دائرة نفوذها.

إن المجهود الذي يجب أن يبذل من أجل دعم وتمتين العلاقات العربية الأفريقية لا يجب أن يرتكز فقط على الجانب الاقتصادي، بل يجب أن يتعداه إلى استغلال التراث التاريخي المشترك، خاصة وأن الشعوب الأفريقية ما زالت إلى يومنا هذا تنظر إلينا نظرة خاصة، فلنستفد من التاريخ، وحذار أن نقع في نفس الأخطاء فنفقد ثقة الشعوب الأفريقية فينا.

الموامش

- (*) سر هذا البحت بمجلة البحوت التاريخية ، ليبيا ، العدد 2 ، 1985 وقد أعيد نشره ممحلة المؤرخ العربي ، بعداد ، العدد 3 ، 1987
 - (1) أنظر عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا، ص 190.
 - (2) نعس المصدر، 126
 - (3) نفس المصدر والصفحة.
 - (4) نفس المصدر، 127.
 - (5) عس المصدر والصفحة
 - (6) المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب، فرنسا، السلسلة السعدية، 2 . 67 .
 - (7) عبد العزير الفشتالي المصدر السابق، 81
 - (٤) من رسالة المنصور لاسكيا اسحاق، انظر رسائل سعدية ص 132.
 - (9) عبد العزيز الفشتالي، المصدر السابق، ص 130.
 - (10) نمس المصدر والصفحة
 - (11) أنظر عبد الرحماد السعدي، تاريخ السودان، ص 139
 - (12) عبد العزير الفشتالي، المصدر السابق، 133.
 - (13) نفس المصدر 147.
 - (14) نفس المصدر 148.
 - (15) عبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، 162
 - (16) نفس المصدر، 141.
 - (17) نفس المصدر 139.
 - (18) أنطر حسن أحمد محمود. الاسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص 10 ـ 11.
 - (19) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص 73.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

1 ـ المصادر السودانية:

_ كعت، محمود (توفى سنة 1002 هـ/ 1593)

تاريخ الفتاش، في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، نشر ميزونوف، باريس

_ مؤلف مجهول

تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، تحقيق هوداس، باريس 1901.

ـ السعدي عبد الرحمن (توفي بعد 1062 هـ/1652)

تاريخ السودان

المطبعة الأميريكية والشرقية بباريس، 1964.

_ السوداني أحمد بابا (توفي سنة 1036 هـ / 1627).

نيل الابتهاج بتطريز الديباج مطبعة المعاهد بالقاهرة، 1351 / 1932.

معراج الصعود، مخطوط دار الوثائق بالرباط رقم 1079 د.

2 _ المصادر العربية :

 ابن القاضى أحمد (توفى 1025 هـ / 1616) المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور

دراسة وتحقيق محمد رزوق، جزآن، الرباط، 1986

الزياني أبو القاسم (1249 هـ / 1833)

الترجمان المعرب، عن دول المشرق والمغرب

مخطوط المكتبة العامة بالرباط رقم 658 د.

ـ الفشتالي عبد العزيز (توفي سنة 1031 هـ / 1622)

مناهل الصفا، في أخبار الملوك الشرفا

نشره عبد الله كنون، المطبعة المهدية بتطوان، 1964.

ـ الناصري أحمد (توفي سنة 1315 هـ / 1897)

الاستقصا، في الأخبار دول المغرب الأقصى

الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتاب بالدار البيضاء، 1954 ـ 1956 الجزء الخامس.

ـ اليفرني محمد (ت 1140 هـ / 27 ـ 1728)

نزهة الحادي، في أخبار ملوك القرن الحادي

طبعة هوداس، باريس 1889.

ـ الوزان الحسن بن محمد (توفي بعد 957 هـ/1550)

وصف أفريقيا.

116

ترجمة محمد حجى ومحمد الأخضر، الرباط 1980 ـ 1982.

3 - المصادر الاسبانية:

_ كاربخال مارمول ألف كتابه بعد 1571)

أفريقيا

الجزء الأول، ترجمة عن الفرنسية، محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق. أحمد بنجلون. الرباط 1984.

ثانيا: المراجع

ـ التميمي عبد الجليل

«كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا

معلمة بيبليوغرافية للاعلام المغاربة».

مقال بالمجلة التاريخية المغربية، العدد 33 ـ 34، يونيو 1984 تونس.

ـ الجمل، شوقى:

تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، القاهرة 1971.

«أحمد بابا السوداني»، مقال بمجلة المناهل الصادرة بالرباط، العدد 6، يونيو

1976، ص 144 ـ 177.

ـ حركات، ابراهيم

المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، الدار البيضاء، 1978.

ـ حجي، محمد

الحركة الفكرية في عهد السعديين جزآن، مطبعة فضالة، 1978.

- زاهر رياض

كشف القارة الأفريقية، القاهرة 1969.

_ زبادية، عبد القادر مملكة سنغاي في عهد الاسقيين، الجزائر، 1971. بداية الحكم المغربي في السودان الغربي بغداد، 1982. - كريم، عبد الكريم المغرب في عهد الدولة السعدية، الدار البيضاء. 1977.

2 ـ المراجع الأجنبية :

Braudel, F.

- La mediterranée et le monde mediterranéen, 4ème édition, 2 tomes. Paris 1979.

Gastries H. de

- La conquête du Soudan par el Mansour, Hespéris 1923, trim Drami, ISSIFOU ZAKRI
- L'Afrique noire dans les relations internationales aux XVIème Siècle, Analyse de la crise entre le Maroc et le Sonrhai 257 p. Paris 1982.

Delafosse, M.

- Les relations du Maroc avec le Soudan a travers les âges in «Hesperis» 2ème trim. 1924.



الجهاد البحري في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (*)

اهتم السلطان سيدي محمد بن عبد الله اهتهاما بالغا بالجهاد البحري (١) وذلك لوعيه بالدور الخطير الذي تلعبه الثغور المغربية على المحيط الأطلسي، فاتجه إلى تبني سياسة دفاعية تهدف أساسا إلى الوقوف في وجه الاطهاع الأوروبية. وسنحاول في هذا العرض أن نتناول بالبحث جهود السلطان المذكور في سبيل تقوية الأسطول المغربي، واهتهامه بالثغور المغربية وكذا إلى ردود الفعل الأوروبية تجاه أعهاله.

أولا: جهود السلطان سيدي محمد بن عبد الله في سبيل تقوية الأسطول المغربي

تزخر المصادر المغربية المعاصرة بالعديد من الاشارات التي تهم الموضوع ، فهذا كاتبه وسفيره أحمد بن المهدي الغزال ـ مثلا يسجل في مقدمة كتابه فتيجة الاجتهاد : «جد ـ إليه الله ـ في تهييء المراكب للجهاد ، واجتهد وشحنها بالعدد والعدد ، وخص عساكره المؤيدة بالله على حضور النية على القتال لتكون كلمة الله هي العليا . . . » (2) . وهذا ما سجله أيضا محمد الضعيف الرباطي في تاريخه وهو بصدد الحديث عن منجزات السلطان : « . . . وأعظم من هذا كله ما فيه من الوجهة للجهاد وجمع آلاته وجميع ما يحتاج إليه من عدة وعدد ، وقد جمع من ذلك ما لم يتفق للجهاد وجمع آلاته وجميع ما يحتاج إليه من عدة وعدد من أهل سلا ورباط الفتح وغيرهما . . . » (3) . وفعلا فإنه لم يذخر وسعا في سبيل تحقيق ما كان يهدف إليه رغم الصعوبات التقنية التي كانت تعترضه ، فقد قام بتجديد فن بناء الاسطول ، وصرف الموال في سبيل تحديث أوراش بناء السفن (4) ، وكل تفكيره كان متجها إلى شيئين أساسين : بناء سفن قادرة على مواجهة أهوال المحيط من جهة وقادرة على مواجهة أساسين : بناء سفن قادرة على مواجهة أخرى (5) .

ومن أمثلة ذلك أنه: «أمر بإنشاء السفينة الكبيرة من طبقتين، وانفق فيها مالا كثيرا،

أسناها بسلا ورئيسها هو الرايس سالم، ولما طلعت وأراد الخروج بها في البحر لم تقدر على الخروج لكبرها إلى أن أفرغ ما فيها وأخرجها بحيلة . . . » (6) . وهكذا نلاحظ أن المسواسيء التي توجد بمصبات الأنهار لا تلائم حجم السفن التي كان يريد السلطان بناءها، فالحاجر الرملي في الشتاء ومستوى المياه المنخفض في الصيف يمنعان الفركاطات المجهزة بالمدافع من التحرك إلا خلال شهرين في السنة فقط (7) . وقد أشار إلى هدا كاتبه أحمد بن المهدي الغزال حيث حديثه عن العوائق التي تعترض السفن الجهادية قائلا · «على أن سفن سيدنا الجهادية مقصور جهادها على شهرين في السنة لاتصال المراسي بالأودية بصفة يتعذر الخروج منها قبل فتح الطمس بالأزمنة الشتوية . فهناك تقرصن وتعود لمرساها إلى القابل، وقد استعمل الحكاء وأهل الهندسة حهدهم في تنظيف المراسي من الرمل المانع لخروج المراكب، فلم يحصلوا على طائل، وصار العدو الكافر يترك البحر في الشهرين المعلومين ويسافر بقمة السنة لينال في ذهامه وإيابه ما منه . . . (6) .

أما عن كيفية تحهيز هذا الأسطول فنشهر إلى أنه كال يحصل عليه عن طريقين:
- الطريق الأول · الاستيراد الماشر من أوربا: «وسخر الله له أجماس الروم، فها يأمرهم بالاتيان بثيء من ذلك إلا بادروا لامتثاله مسرعين وقاموا بين يديه سامعين وله مطيعين ..» (⁹) وهكذا فقد بعث السلطان ـ مثلا ـ بسفيرين من رياس البحر وهما الحاج التهامي المدور الرباطي والعربي المستبري الرباطي، إلى السويد والمجلترا قصد حلب الذخيرة الضرورية لأسطوله.

- الطريق الثاني : الغنائم.

تقوى الأسطول المغربي في هذه الفترة أيضا عن طريق الغنائم التي كان يحصل عليها المغاربة بتيحة عملياتهم البحرية المتكررة، وهذا ما أشار إليه بكل وصوح محمد الضعيف وهو بصدد الحديث عن أعال السلطان الجهادية: «... تكاثرت سفنه في البحر من أهل سلا ورباط الفتح وأقبلت عليه الأبام... وكان الرابس من أهل سلا والرباط يقدمون عليه بمراكش بالنصارى الأسرى في كل سنة، مثل الرايس العربي المستيري والرايس عواد السلاوي والرايس العربي حكم وغيرهم... وهؤلاء كلهم بالسفن وكلهم يأتون إليه بسفن المصارى إلى مراكش. « (10)، ويقول في مكان آحر: «... وفد (السلطان) على رباط الفيح وسلا فوجد الرايس محمد عواد مانطة السلاوى، والرابس محمد عواد المعروف بقيديل السلاوى، والرابس العربي مانطة السلاوى، والرابس العربي العربي

المستيري في الحين فغم اثنين من السفن واحدة من جنس البرطقيز والثانية من جنس السويد . . . » (11) .

وكان من نتيجة الجهود الحبارة التي بذلها السلطان أن تقوى الأسطول المغربي في عهده وأصبح بإمكانه تقديم المساعدة للأتراك العثمانيين أنفسهم: «ثم إن السلطان _ نصره الله _ سمع بحور البصارى على السلطان، عبد الحميد العثماني أيده الله _ فأراد إعانته على الروم. وأصدر أمره للحاج المكي على أن يرجع ويتهيأ ليأتي بالسفن هدية من السلطان _ أيده الله تعالى _ للعتماني، وأن يقف على السفن بالعرائش، وصار يمد العثماني بالبارود وملح البارود نحو الأربعة آلاف قنطار بارودا ومثلها ملحا لطنجة، ومها تسير للعثماني _ أيده الله _ » (10) .

ثانيا: اهتهامه بالثغور المغربية:

كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله يدرك حيدا الأهمية الستراتيحية للتغور المغربية على المحيط الأطلسي، ودلك نتيجة للاهتهام المتزايد الذي أصبح هذا المحيط في المواصلات الدولية بين أوروبا الغربية وأمريكا وبينها وبين الشرق الأقصى عبر رأس الرجاء الصالح، فأقر سياسة دفاعية لتحصين السواحل المعربية الأطلسية، وهذا ما أشار إليه سفيره أحمد بن المهدي الغرال قائلا: «وشرع سيدنا أيده الله في عهارة الثغور وتشييد ما هذه منها تتابع الأزمنة والدهور، وحصنها بالعدد الكبير من المدافع والعدد حتى صارت مموعة من العدو محفوظة من عين حاسد إدا حسد» (13).

ويمكن هذا العمل من الحصول على نتيجتين أساسيتين:

_ تأمين الحماية اللازمة للبلاد.

ـ الانفتاح على العالم الخارجي بعقد معاهدات وإرسال سفارات إلى دول أوروما الغربية والشرق الإسلامي .

وهكذا نلاحط أنه في إطار هذه السياسة قام ببناء حصون وتحصين أخرى وتحرير البعض الأخر.

ـ بناء الحصون:

بناء الصويرة: يذكر الضعيف في هذا الصدد: «وفي سنة تهان وسبعين ومائة وألف أمر السلطان ببناء الصويرة. وحصنها وأنفق عليها مالا عظيما... وفي مهل دي القعدة عام 1179 هـ قدم الصفار مع مائتي رجل من البحرية بقصد أن يأخذوا الانفاص التي بفاس الجديد ويذهبون بها إلى العرائش والصويرة...» (14).

ويرجع اختياره جزيرة الصويرة لبناء القلعة الحصينة إلى صلاحيتها للملاحة طوال السنة خلافا لمعطم الموامىء المغربية الأخرى الواقعة عند مصبات الأنهار. وقد وصفها وصفا دقيقا محمد بن المهدي الغزال قلائلا: «لها بابال شرقية وغربية تسافر منها القراصين متى شاءت من غير أن تفتقر لطيب هواء... وحصن _ أيده الله _ الجريرتين الدائرتين بالمرسى كبرى وصغرى، بالعدد الكثير من المدافع، وشيد بها على صخرة داخل البحر إحكامه الصنوف الهندسة جامع، فالقاصد للمرسى لايدحلها إلا تحت رمي المدافع، من البروج والجزيرة، فإذا جاوز المدافع وحصل المرسى لا يمكنه الخروج منها إلا بدليل له بها معرفة وبصيرة، فهي محصنة محفوظة، وبعين الرعاية ملحوطة... وقد شاع خبرها في سائر الآفاق، وأجمع الكل على تعضيلها وتقديمها على ما سواها بالاستحقاق، بإبداعها وإنشائها تنابع الجهاد وتوالى...» (15).

ويدخل في هذا الاطار أيضا بناؤه لمرسى فضالة سنة 1186 هـ (١٥).

ـ تحصين الثغور:

لم يكتف السلطان ببناء قلاع جديدة ، بل حصن القديمة منها خاصة تلك التي لها ماض معين مشل العرائش . (17) ويذكر الناصري في هذا الصدد : «بنى لها الصقائل والأبراج وصونها ، ثم كان قدوم ابنه المولى يزيد في هذا التاريخ إلى فاس ، وفي ركابه حماعة من رؤساء البحر والطبحية أهل الاجادة في الرمي ، وكان قدومه بأمر السلطان لجر المدافع ، والمهاريس النحاسية التي كانت بفاس الجديد ومكساسة ونقلها إلى تغر العرائش ففعلوا . . . » . (18) وأراد السلطان أن يشرك معه في هذه العملية القيائل المجاورة : « . . . وأمر السلطان القبائل الذين بالطريق أن يتولوا جرها ،

فكانت كل فبيلة تجرها إلى التي تليها. . .» . (19) وقد رحب سكان مدينة العرائش أيها ترحيب بهذه التحصينات التي تمكنهم من الدفاع عن مدينتهم : «ثم جرها أهل العرائش وقبائل حوزها إلى المدينة، وكان يوم دحولها مهرجانا عظيها أخرجت فيه المدافع والمهاريس والبارود، وتسابقت القبائل على الخيول ولعبوا بالبارود إلى المساء . . . (20) .

ـ تحرير الثغور:

عمل السلطان سيدي محمد بن عبد الله حلال الفترة الفاصلة بين سنتي 1182 هـ و1188 هـ على تحرير عدد من الثغور المحتلة، وذلك بعد أن تمكن من إقرار الأمن الداخلي ومن تدعيم أسس وحدة البلاد. وهكذا فقد توجه بنظره إلى تحرير البريجة عام 1182 هـ، وكذا إلى محاصرة مدينة مليلية خلال عامي 1185 ـ و 1188 هـ.

- تحرير البريجة:

لقد حاول المغاربة ومنذ أن احتلت من طرف البرتغال تحرير المدينة سواء على الصعيد الشعبي يكفي أن نذكر أن الصعيد الشعبي يكفي أن نذكر أن المدينة كانت محاصرة باستمرار من طرف مجاهدي دكالة وغيرهم، بل وأقيمت نقط الوثوب على المدينة . أما على الصعيد الرسمي فنذكر المحاولات الآتية :

- محاولة محمد الشيخ السعدي، لكن الضغط التركي اضطره إلى مهادنة القواب البرتغالية والاسبانية بالسواحل المغربية لمواجهة التدخل العثماني بالمغرب.

- محاولة عبد الله الغالب. إذ كادت المدينة أن تفتح بعد حصارها لولا الضغط التركى على حدود المغرب الشرقية مما أدى به إلى التراجع.

- كما أصدر عبد الملك المعتصم أوامره بمحاصرة البريجة قبيل معركة وادي المخازن وذلك خوفا من خروج قوات برتغالية منها.

- وعندما انتهت الحملة البرتغالية على المغرب بالفشل، تدخلت قوات إسبانية بالبحر لحماية المدينة من الهجومات المغربية وحال الاسبان دون تحرير المدينة، بالاضافة إلى أن الضغط التركي تدخل من جديد مما جعل أحمد المنصور الذهبي يتخلى عن تحرير المدينة والتمسك بالهدنة مع الاسبان.

وعلى كل فقد استفاد السلطان سيدي محمد بن عبد الله من الظروف التاريخية السابقة التي حالت دون تحرير المدينة فيسعى إلى تهييء أرضية دبلوماسية ملائمة.

وهكذا فقد سعى إلى تحسين علاقاته مع فرنسا، وضهان حياد إسبانيا في أي حرب تحريرية ضد البرتغاليين، كها عقد معاهدة مع الدانهارك خلال عام 1181 هـ نص الفصل السابع عشر منها على التزام الدنهاركيين بتقديم أسلحة وعتاد حربي من بينها خسة وعشرين مدفعا من العيار الثقيل والمتوسط وقذائفها وجميع لوازمها. ويدخل في نطاق هذا الاستعداد لهذه الحرب أيضا الامدادات العسكرية التركية التي وصلت إلى المغرب في نفس السنة. (21)

وهكذا عندما هيأ الأرضية الدبلوماسية لتغطية عملياته العسكرية انطلق لتحرير المدينة، ومن المصادر المعاصرة الهامة التي يمكن الرجوع إليها للوقوف على الكثير من دقائق هذه الحملة نذكر كتاب الحلل البهيجية في فتح البريجة (22) لمؤلفه يحمد بن أبي القاسمي بن محمد بن معلم بن سليمان المراكشي، فيذكر في هذا الصدد: «. . . ثم إن الملك أخذ في إصلاح شأنه وأرسل إلى جنوده وعساكره يأتون للجهاد في سبيل الله ويتهيأون للحرب كها أمرهم وأن يركبوا الخيول المسومة ويلبسوا الثياب لقوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم). ثم أرسل الملك إلى قبيلة دكالة أن ينزلوا البريجة المخلية وأن يربطوا عليها حتى يقدم الملك عليهم . . . » . (23) وتصف مصادر أخرى هذه العملية والدواعي التي دعت السلطان إلى ذلك : «ولما أحس _ أعزه الله برضاه وأدام علاه لرعيته توجه إليها بعزمه وعنايته وحاصرها بالجيوش التي لا قبل لهم بها، ورماها بالكور والبومب، فلم يلبث إلا أن أخرجهم منها أذلة صاغرين وهدمها، فهي الآن تسمى المهدومة وتسمى اليوم الجديدة على أمره، وهو الذي سماها بذلك

_ نصره الله وأيده وأعانه ووفقه وسدده _ فاستولى عليها. .» (24) وفعلا فقد خرجت الحملة المغربية من مراكش سنة 1182 هـ ورابطت في فحص المجاهدين القريب من المدينة وأخذت تمطر الحصن بوابل من قذائفها، كما حاصرت في نفس الوقت الميناء، وحالت دون وصول نجدات عسكرية برتغالية قدمت من لشبونة، وظل الأمر كذلك إلى أن أعلنت الحامية البرتغالية استسلامها وطالبت بالساح لها بالجلاء، وتم ذلك صبيحة يوم السبت 2 ذي القعدة سنة 1182 هـ، وقد دامت هده الرحلة 58 يوما وانتهت بتحرير المدينة بعد أن خضعت للاحتلال البرتغالي نحو ثلاثة قرون.

ثالثاً : رد الفعل الأوروبي تجاه الجهاد البحري :

كان رد فعل الأوروبيين تجاه الجهاد البحري قويا حاصة من الجانب الفرنسي والاسباني، إذ قررت كل من فرنسا واسبانيا حماية سفنهم من الهجومات المغربية المتكررة بجميع الوسائل المتوفرة لديهم. وهكذا فقد كلف الفرنسيون فيها بين سنتي 1763 و1764 القائد Fabry بمحاصرة الشواطىء المغربية لكن دون حدوى، إذ تمكن المجاهدون السلاويون أمام مدينة قادس من الاستيلاء على سفية فرنسية كبيرة (La Sirène)، والتي سرعان ما حولت إلى سفينة جهادية. (25)

وفي سنة 1765 أصدر الملك الفرنسي لويس الخامس بعشر أوامره إلى الأميرال Chaffault للعمل على القضاء وبصفة نهائية على الجهاد البحري بالمغرب. (20) وهكذا في 31 ماي رسا الأسطول البحري الفرنسي أمام مدينة سلا وشرع في رمي المدينة بالقنابل انطلاقا من 2 يونيو، ورغم أحوال الطقس الرديئة آنذاك فإنه استمر في حصار المدينة لكنه لم يعلح، وأمام فشله اتجه إلى العرائش في 27 يونيو لكنه لقى هزيمة منكرة أيضا. (27) وقد سجل أحمد بن المهدي الغزال هذه الحادثة بدوة كبيرة فوضعها على الشكل الآتي: «... رمى بمرسى من الأنفاط والبوبه ما ظن أنه أواخرها الأوائل، وخر هاربا مهزوما سافط الألوية مدلولا مدموما، فعالج ما انصدع من أجفانه وأعاد الكرة يطلب حتفه بيده ويسعى في مذلنه وهوانه، ووب على مرسى ثغر العرائش. .. واقتحمها بالبنب والمدافع، وضحن الفوارب العديده

بالشلظاط (28) والفسيان (29) مما يزيد على الثانيائه، ظنا أن ليس لهم بها مقابل ولا مدافع وعبر المرسى بقواربه المشحونة بعساكره قاصدا حرق مركب كان أخذ لهم قبل داخل الوادي، فخلى المسلمون سبيله حيلة، حتى توغلوا في الموضع الذي لا تمكنهم الخروج منه، وركب لقطعهم من حضر من الحواضر والموادي وقطعوهم قطعة لايسعهم منه قرارا. . . واستعملوا فيهم السيف فقتل وعرق وأسر منهم عدد كبير، فهم بين غريق وقتيل وأسير. . . » . (30) لكن القوات الفرنسية كانت مصرة على تنفيذ أوامر الملك مها كلفها ذلك من ثمن فظلت تحاصر قواعد المجاهدين في سلا والمهدية والعرائش، وتقطع سبيل الاتصال بين المجاهدين والعالم الخارجي، وهكذا فقد اعترصت قطع الأسطول الفرنسي سبيل سفن هولندية ودانهاركية كانت محملة بالعتاد اعترصت قطع الأسطول الفرنسي سبيل سفن هولندية ودانهاركية كانت محملة بالعتاد السلطان وأسرتها وقادتها إلى مدينة Toulon الفرنسية (31) وأمام هذه الوضعية عقد السلطان في 28 ماي 1767، معاهدة هدنة مع فرنسا اعتبرها بعض المؤرخين الأجانب نهاية الجهاد البحري المغربي، مستنتجين ذلك من خلال الأحداث التي تلت هذه المعاهدة.

غبر أنه وبالرغم من توقيع هذه المعاهدة، فإن السلطان اسنمر في الحفاظ على قوة بحرية معينة مشجعا إياها على القيام بالحهاد البحري، فهي شتنبر من سنة 1773 كانت هناك مجموعة من خمس سفن تحت قيادة الهاسمي المستيري قد التقت برأس سبارتيل بهركاطة توسكانية تحت قيادة Acton ولكن بمجرد الطلقات المدفعية الأولى غرقت السفينة المغربية واستسلم القائد، وهربت بافي السفن إلى العرائس، وإثر ذلك لم يعد أحد يتكلم عن قوة بحرية مغربية قادرة على مهاجمة السفن الأوروبية.

أما رد الفعل الاسباني فيتجلى بالخصوص في معاملة الأسرى المغاربة بإسبانيا إلى درجة وصل معها صدى هذه المعاملة إلى السلطان نفسه: «... فاتفق له أن وردت عدة كتب من أسارى المسلمين، منها ما هو لمطلق العامة، ومها لبعص الطلبة وعلماء الدين، الكل من البلاد الأصنيولية، وأصله للحضرة العلية فقرأت على مسامع سيدنا الشريفة...». (32) فكتب السلطان إلى كارلوس الثالت ملك إسبانيا يبلغه اهتمامه البالغ بقضية هؤلاء الأسرى: «إننا في دينا لا يسعنا إهمال الأسارى وإبقاؤهم في قيد الأسر، ولا حجة للغافل عنهم ممن ولاه الله تعالى

التصرف والأمن...». (33) وكلف سفيره السالف الذكر أحمد بن المهدي الغزال بهذه القضية، وقد كللت سفارته بالنجاح إذ أطلق المملك الاسباي سراح الأسرى المغاربة.

ولم يكتف السلطان بالاهتهام بالأسرى المغاربة فقط بل كان يهتم بجميع الأسرى المسلمين فقد سجل محمد بن عثمان المكناسي في هذا الصدد: «... وكان من اختصه الله تعالى بالشفقة على عباده، والسعي في إصلاح في أرصه وبلاده، والبحث عن أسارى المسلمين الذين بأيدي الكافرين، وقد كان عند النصارى الأصبنيول قبل هذا منه أسارى المسلمين عدد كثير، وجمهور غفير، وكلهم من البلاد المشرقية مثل طرابلس وتونس، والجزائر وعمالاتها، فسرح الله تعالى جلهم على يده الكريمة ...». (48)

ويعد هذا جانب لامع من الجوانب اللامعة في أعمال السلطان سيدي محمد بل عبد الله حاولنا فيه أن نلقي بعض الضوء عليه. لقد حاول تطوير القوة البحرية المغربية ما يتلاءم وعصره، وحاول تبني سياسة دفاعية تمكنه من حماية ثغوره وتمكن بالفعل من تحقيق الكثير مما كان يرغب فيه. لكن القوات الأوروبية المتربصة بالمغرب كانت تقف بالمرصاد لجميع الأعمال التي من شأنها تطوير القوة البحرية المغربية، وظلت تراقب عن كثب هذا التطور.

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هو امــش

```
(*) اعد برسم الندوة التي نظمتها كلية الآداب بالجديدة، (1988) في موضوع: «السلطان سيدي محمد ابن عبد الله».
وقد نشر بمجلة دعوة الحق (المغرب، العدد 274، 1989)
```

(1) حول المدوافع التي حدت بالباحث إلى استخدام هذا المصطلح المغربي بدل استخدام مصطلح «القرصنة» وكذا المراحل التي مرجما الجهاد البحري إلى غاية السلطان محمد بن عبد الله : محمد رزوق، والفرنسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و 17، ص 210

(2) نتيجة الأجتهاد، ص 34.

(3) تاريخ الضعيف، ص 166.

(4) عبد الرحمان بن زيدان، الاتحاف، 3: 259.

RAmón Lourido, «Transformación de la Pirateria marroqui en Guerra del corso», in **Hespéris-Tamuda,** vol X Face 1-2, 1969, PP. 51-52,

Roger Coindereau, Les Corsaires de Salé, P. 201. (5)

(6) تاريخ الضعيف، ص 169.

Roger Coindereau op. cit. p.201. (7)

(8) نتيجة الاجتهاد، ص 37.

(9) تاريخ الضعيف، ص 166.

رم) فاريخ الطبعيف، ص 169. (10) المصدر السابق، ص 169.

(11) المصدر السابق، ص 166.

(12) المصدر السابق، ص 187. (12)

(13) نتيجة الاجتهاد، ص 37.

(14) تاريخ الضعيف، ص 172 ــ 173

(15) نتيجة الاجتهاد، ص 38.

(16) تاريخ الضعيف، ص 176.

(17) للمُزيّد من الإيضاح حول مختلف المراحل التي مر منها تاريخ مدينة العرائش انظر :

Tosas Garcia Figueras y Carlos Rortriguez Joulia Saint-CYR, Larache, datos par su historia en el siglo XVIIe

(18) الاستقصا، 8 _ 26.

(19) نفس المصدر الصفحة.

(20) أبو القاسم الزياني، البستان الظريف، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 1577 د.

(21) أبو القاسم الزياني، الترجمان المغرب، مخطوط العامة بالرباط، رقم 658 د.

مُلاحَظُةً : يعتبر السَّلطَان سَيْدي محمَّد بن عبد الله أول ملوَّك المغرَّبُ الذي كان يبدي عطفا كبيرا على الاتراك. انظر : محمد بن تاويت، تاريخ سبتة، ص 190.

(22) حققه أخيرا (1986) الدكتور عبد الكريم كريم.

(23) الحلل البهيجة، ص 20.

(24) تاريخ الضعيف، ص 166.

Roger Coindreau, op. cit. p.60. (25)

Loc. Cit. (26)

Romóm Lourido, op. cit. p. 60 (27)

(28) من الكلمة الإسبانية Soldados

(29) من الكلمة الإسبانية Oficiales أي الضباط.

(30) نتيجة الاجتهاد، ص 36.

Roger Coindreau, pop. cit. p. 203. (31)

(32) نتيجة الاجتهاد، ص 39.

· (33) نفس المصدر والصفحة.

(34) الإكسير في فكاك الأسير، ص 5.

صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين اليمن والمغرب خلال القرن السادس عشر (*) (التمديد العثماني نمو ذجا)

علاقة اليمن بالمغرب علاقة قديمة قدم البلدين، فكثير من كتب الرحلات المغربية تحمل اخبارا تتعلق باليمن وأحوالها وظروفها، كها ان العديد من العائلات اليمنية استقرت بالمغرب في فترات مختلفة من تاريخه. وهكذا فإن اليمن لم يكن ابدا غائبا عن الساحة التاريخية المغربية، ومع ذلك، فإننا لانجد حسب علمنا دراسة تتعلق بالموضوع، وهذه محاولة نريد من خلالها أن نثير الانتباه الى ضرورة توحيد الرؤيا حول العديد من القضايا التاريخية التي تهم البلدين، وسنأخذ كمثال على ذلك قضية التهديد العتماني لليمن والمغرب خلال القرن السادس عشر.

هناك ثوابت في السياسة العثمانية سواء اتجاه المغرب أو اليمن تجعل الاحداث تسير على نفس النمط تقربا.

فنشير أولا بالنسبة للمغرب إلى مجموعة من العوامل تذكرنا الى حد كبير بأوضاع اليمن خلال نفس الفترة :

- _ الصراع حول السلطة
- ـ الغزو البرتغالي للشواطىء المغربية
- ـ تدهور اقتصادي واجتماعي هز المجتمع المغربي بعنف.

وفي هذا الاطار يدحل التهديد العثماني للمغرب. فقد تدخل العثمانيون أول الامر لصالح الوطاسيين ضد خصومهم (السعديين) وانتهى الامر باغتيال محمد الشيح (المؤسس الحقيقي للدولة (السعدية)، مما جعل ابنه عبد الله الغالب يتجه إلى التعامل مع الاسبان والفرنسيين لمجابهة الخطر التركي، وقد كان لهذا التعاون آثار سلبية كبيرة نذكر من بينها:

- قضية الأندلس: اذا كان الاندلسيون ينتظرون الدعم من المغرب ابان ثورتهم التي اندلعت سنة 1568، لكن السلطان السعدي لم يستطع تقديم اي شيء لصالح هذه الثورة نتيجة التهديد العثماني... (١).

- الثغور المغربية المحتلة (سبتة، مليلية، الجزر الجعفرية...): ظلت العديد من الثغور المغربية محتلة (سواء من طرف الاسبان أو البرتغال)، ولم يستطع السلطان السعدي القيام بأي عمل من شأنه تحرير هذه الثغور وذلك نتيجة التهديد العثاني، واضطراره إلى التفاهم مع الاسبان.

وسوف تتكرر الصورة مرة أخرى في أحداث جديدة، اذ انقسم المغرب من جديد فاستنجد المعتصم بالاتراك، فيي حين اتجه المتوكل الى البرتغال مما أدى إلى وقوع معركة وادي المخارن (1578)، والتي تجلت فيها الوحدة الاسلامية بوضوح، وكان لها صدى مدوفي الشرق العربي (2)، كما كانت ضربة قاضية بالنسبة للبرتغال الذين فقدوا فيها استقلالهم بوقوعهم تحت سيطرة الاسبان. لكن لم يستعد المغرب هنا أيضا من نتائج المعركة نتيجة التهديد التركى أيضا:

- فلم يستطع المنصور تحرير الثغور المغربية المحتلة (سبتة، مليلية الجزر الجعفرية...).

ولم يستطع أن يذهب إلى حد بعيد في تقديمه المساعدة للاندلسيين، خاصة انه اكتشف تواطؤ بعضهم مع الاتراك (ق). لكنه استطاع أن يقف في وجه الاتراك، ليضمن للمغرب استقلاله، وهذا سفيره الى السلطان العثماني مراد الثالث، يقول: (... والعثمانيون من جملة المماليك والموالي الذين دافع الله بهم عن المسلمين وجعلهم حصنا وسورا للاسلام، وان كان أكثرهم وأكثر اتباعهم عن يصدق عليهم قوله ـ ص _ : «ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» وان كانوا انها حملوا الامارة، وقلدوا الامر في الحقيقة نيابة وأمانة يؤدونها الى من هو احق بها، واهلها هم موالينا وسادتنا الشرفاء ملوك بلاد المغرب، الذين شرفت بهم الامامة والخلافة وكل مسلم وسادتنا الشرفاء ملوك بلاد المغرب، الذين شرفت بهم الامامة والخلافة وكل مسلم لا يقول عكس هذا و خلافه . . . » . (4)

وهكذا أمام اصدار المغاربة على الدفاع عن استقلالهم اضطر العثانيون إلى التراجع والتخلي عن فكرة السيطرة على المغرب. وتذكرنا هذه الاوضاع بها كان يجري في اليمن:

- _ انقسام على مستوى السلطة (الزيدية والطاهرية)
- ـ الغزو البرتغالي لسواحل البحر الاحمر والخليج العربي.
- ـ التدهور الاقتصادي والاجتماعي نتيجة اختفاء الوساطة العربية.

في ظل هذه النظروف إذن ابتدأت علاقة اليمن بالعثمانيين، فقد تقدم أمير اليمن (كان تابعا آنذاك للمهاليك بمصر) بفروض الطاعة والولاء للسلطان العثماني سليم (5)، وذلك نتيجة للخطر البرتغالي، اذ هدد البرتغاليون جدة سنة 1505، وتمكنوا من التسلل الى مكة نفسها (6)، وقد اقسم ملكهم أن يستولي عليها وأن يقوم بنبش قبر الرسول ـ ص ـ في المدينة (7)، وكان على الاتراك اذن أن يواجهوا البرتغال (8)

وقد كان موقع اليمن من بين العوامل التي برزت أهميتها في تحقيق الاهداف العثمانية ضد البرتغاليين، فوصول اليمن في الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية وامتداد حدودها من جنوب نجد والحجاز في الشهال الى خليج عدن في الجنوب، ومن حدود عمان والربع الخالي شرق البحر الأهر ومضيق باب المندب غربا (®) جعلها منطقة دفاع هامة عن حدود الامبراطورية العثمانية من الجنوب، وقد أدى هذا إلى اقتناع العثمانيين بأن سيطرتهم على اليمن تجعلهم يضمنون سلامة الاماكن الاسلامية المقدسة في الحجاز والتحكم في البحرين الاهر والعربي (١٥) وقد تمكن العثمانيون من تحقيق هدفهم على مرحلتين:

المرحلة الاولى: (1517 ــ 1538):

بدأت هذه المرحلة بعد فتح مصر مباشرة في سنة 1517 بإرسال بعثة عثمانية حملت أوامر السلطان العثماني لقادة الماليك في اليمن لكي يعلنوا خضوعهم وتبعيتهم للسيادة العثمانية، غير أن بعض القادة الماليك لم يذعنوا لأوامر السلطان العثماني وتمسكوا باستقلالهم وخرجوا على من أعلن الطاعة منهم وقضوا عليه، لهذا رأت الدولة العثمانية أن ترسل ولاة للدولة غير أنها لم ترسل معهم في بداية الأمر قوة حربية

تدعم حكمهم مما شجع الماليك على تهديدهم حتى اجبروهم على الفرار من البلاد ناجين بأنفسهم، ثم حاولت الدولة العثمانية أن تنصب بعض القادة الماليك ليكونوا ولاة اليمن من قبلها على أن يضمنوا تبعية البلاد لسيادتها، غير أن هؤلاء القادة كانوا يستبدون بالأمر ويعلنون استقلالهم، وقد أدى كل ذلك إلى أن الدولة العثمانية ارتأت اخيرا ألا سبيل إلى ضهان سيادتها على اليمن إلا بالاحتلال المعلي وإقامة حكم عثماني مدعم بالقوة العسكرية، وكانت هذه هي المرحلة الثانية التي استمرت قرابة قرن.

المرحلة الثانية (1538 ـ 1635) :

ابتدأت هذه المرحلة في عهد السلطان العثاني سليان القانوني الذي أمر بتجهيز قوة ضخمة ابحرت من ميناء السويس في 27 يونيو 1538، وكان الهدف الواضح من توجيه تلك الحملة هو القضاء على البرتغاليين الذي كانوا يعيثون فسادا في موانيء البحر الاحمر والعربي، بينها كان الغرض الكامل من ورائها هو احتلال اليمن (11) الذي كان يمكن عن طريقه تحقيق الأغراض الدفاعية والتوسعية للدولة العثمانية حينذاك. وقد وصل الأسطول العثماني الى عدن في نفس السنة يقوده سليان بأشا الارناؤطي الذي كان من ابرز القادة العثمانيين في ذلك الوقت (12). واستدعى هذا القائد أمير عدن عامر بن داود الطاهري لزيارة سفينة القيادة، وكان عامر هذا قد كتب الى السلطان العثماني طالبا منه المساعدة للتغلب على الامام الزيدي شرف الدين الذي كان يسيطر على المنطقة الوسطى في اليمن ويطمع في ضم عدن الى منطقة نفوذه، وقد ابدى القائد العثماني لامير عدن استعداده لمساعدته ـ بناء على منطقة السلطان العثماني ـ عما شجع عامر على تلبية الدعوة والصعود الى سفينة القيادة، غير أن القائد العثماني غدر بعامر قبل أن يستقر به المقام على ظهر السفية وامر بقتله (13).

ثم انزل قواته العثمانية فاستولى على عدن بدون قتال في اليوم الثالث من غشت من نفس السنة (14) ، بل ان سليمان باشا أمر بقتل من بقي من آل طاهر ومصادرة ممتلكاتهم بحجة أنهم حاولوا تسليم عدن للبرتغاليين (15) وعلى كل فقد اناب سليمان باشا عنه في إدارة عدن احد ضباطه ، بينها أقلع اسطوله تجاه الهند لمواصلة الحرب ضد البرتغاليين ، غير أن مهمته انتهت بالفشل ، وانسحب الاسطول العثماني عائدا إلى عدن . (16)

ويرجع سبب هذا الفشل الى العثمانيين أنفسهم : إلى الطريقة التي فتحوا بها عدن وغـ درهم بأميرها عامر، مما جعل جل الامارات حذرة جدا من التعامل مع الاتراك وبالتالي لم تقدم على تقديم أية مساعدة لهم لمواجهة البرتغال. وهكذا عندما وصلت إلى مسلمي الهند اخبار عدن خافوا أن يقع لهم ما وقع لها إذا ما تم لهم الاقتصار فتخلوا عنهم (١٦) . وبعد عودة الاسطول العثاني الى عدن رأى قائده سليمان ماشا أن يعود الى مصر مارا بسواحل اليمن بعد أن يضمن تبعيتها للدولة العثمانية، هٰذا عندما وصل الى ميناء مخا اليمني طلب من الناخوذة احمد الحاكم المملوكي في اليمن حينداك إعلانا تبعيته البلاد للسيادة العثمابية ففعل.

وكان العثمانيون قد اتجهوا في ذلك الوقت الى ميناء الصليف حيث انزلوا قواتهم التي تقدمت الى ربيد، وعدروا بالماخوذة أحمد واعدموه هو وجمعا من رفاقه وقضوا نهائيا على الحكم المملوكي في اليمن (١٤). وهكذا خضعت اليمن خضوعا فعليا للسيادة العثانية في أواخر عام 1538.

لم يمض وقت طويل من سيطرة العشانيين على عدن حتى اعلنت القبائل اليمنية ثورتها على الحامية العثمانية المرابطة في المدينة عندما رأت ما حدث من غدر العثمانيين بأميرهم عامر بن داود الطاهري.

واضطر العثمانيون أن يرسلوا اسطولا حربيا عبر البحر الاحمر تحت قيادة «بيري» الذي تمكن من استعادة عدن بعد أن أخمد ثورة القبائل (19) .

أما القائد العثماني سلى باشا الذي كان مرابطا في ميناء الصليف فإنه اعتبر مهمته قد انتهت وقرر العودة الى بلاده (20) بعد أن أسند حكم اليمن للوالي العثماني مصطفى عزة (21) ، وقد اتخذ هذا الوالي مدينة زبيد مركزا لولايته.

بدأ العثمانيون القيام بعمليات التوسع في اليمن منذ مطلع سنة 1539 مما أدى إلى وقوع الصدام بينهم وبين الامام الزيدي «فكان بينهم وبين ولاة الامام شرف الدين حروب في جهات شتى . . . » . (22) وقد سيطر العثمانيون على ثغز في ستة 1545 كما سقطت بعدها صنعاء في قبضتهم (23) ، ولكن المحافظة على صنعاء أو

أي من المدن الأخرى في جبال اليمن ما كانت لتواجه مقاومة اتباع الامام الزيدي الذي كان يسيطر على المنطقة الجبلية الشمالية الممتدة من صعدة شمالًا إلى ذمار ورداع جنوبا، (24) وعلى الرغم من أن بقية أجزاء اليمن يدين معظم سكانها بالمذهب الشافعي السني فقد التقوأ مع اخوانهم الزيديين (25) حول راية الامام شرف الدين لمقاومة العشانيين اللذين يختلفون عنهم في الجنس واللغة، واحسوا انهم اعداء مغتصبون، وإن كانوا يدينون بالاسم ويتبعون المذهب السني، وازاء تضامن الشعب اليمني وتكاثفه في مقاومته العثمانيين، فإن هؤلاء لجأوا في بعض الاحيان إلى استعمال أساليب المكر والدهاء والوقيعة بين اليمنيين وكانوا يحققون بها مالا تستطيع أن تحققه قواتهم المجادة، وعلى الاقل يشغلون بها عناصر المقاومة اليمنية حتى تصل إليهم الامدادات الكافية لتحقيق اغراضهم الحربية. وقد فعلوا ذلك مع الامام شرف الدين عندما أرسلوا اليه احدهم ويدعى حسن البهلوان، فأحدث هذا العثماني فتنة بين الامام وابنه المطهر اثارت قتالا مروعا بينهما (26) شغلهما عن صد تيار التوسع العثماني في ارجاء اليمن، ولم يخمد ذلك القتال سوى بتدخل «بعض العقلاء»، وتنازل الامام لابنه المطهر عن الامامة حقنا للدماء، بينها استولى الترك في أثناء ذلك النزاع على المنطقة الممتدة من تعز جنوبا الى جيزان شمالا. ثم تقدم الوالي العثماني ازدمر من زبيد تجاه صنعاء والتحم مع قوات المطهر الذي هزم بعد قتال عنيف انسحب بعده بينها دخل اردمر صنعاء بمعاونة بعض اتباع المطهر في سنة 1547، بعد أن سفكت دماء كثيرة، ونهبت المخنازل والمتاجر في أثناء سقوط المدينة فى قبضة العثمانيين.

وبعد سيطرة العثمانيين على صنعاء توطد مركزهم في اليمن وثم لهم الاستيلاء على كثير من بلاده.

ولم تضعف مقاومة الامام المطهر للعثمانيين على الرغم من استيلائهم على مدينة صنعاء ومحاولتهم المستمرة لتثبيت دعائم حكمهم في اليمن اذ استعاد هذا الامام قواه في عهد الوالي العثماني رضوان باشا (⁷²) وتمكن من قطع خطوط التموين عن صنعاء وغيرها من المدن الجلية الخاضعة للعثمانيين، بل ان المطهر تغلب على الوالي العثماني مراد باشا الذي قتل في احدى المعارك. (⁸²) بينها تمكن المطهر من دخول صنعاء في سنة 1568، وعقد صلحا مع العثمانيين، انسحبوا بموجبه إلى زبيد وسهول تهامة.

وعندما علمت الدولة العثانية بالمقاومة الضارية التي تزعمها الامام المطهر ضد قواتها في اليمن ارسلت حملة مزودة بأحدث الاسلحة يقودها سنان باشا. (29)

وأخيرا وجد العثمانيون أنفسهم في الحين يواجهون تيارا عنيفا من التدمر والعداء والثورات المستمرة والمقاومة العنيفة الضارية التي كان يشترك فيها مع الزيديين في الجبال اخوامهم الشافعيون وكاست القوات العثمانية تتكبد بصفة دائمة خسائر فادحة في الأموال والأرواح مما جعل العثمانيين يفكرون في الجلاء عن اليمن تخلصا من هذا الحلم المزعج الذي عاشوا فيه قرابة قرن من الزمان وهكذا كان جلاء العثمانيين عن اليمن الذي تم تفي سنة 1635 في عهد السلطان العثماني مراد الرابع استجابة طبيعية لما فرضت المقاومة الطبيعية التي قام بها الشعب اليمني ضد العثانيين، ويمكننا أن نعطى عدة أسباب لفشل الوجود العثماني في اليمن:

- ـ ضعف سيطرتهم على مصر في منتصف القرن السابع عشر
- ـ تناقص أهمية البحر الأحمر بزيادة الاقبال على طريق الرأس الرجاء الصالح.
- _ وقوع اليمن في اقصى جنوب البلاد العربية بعيدة عن اسطنبول، وصعوبة ايصال الامدادات إليها والتكاليف الباهضة التي كانت تتحملها الدولة
 - _ اختفاء المنافسة البرتغالية (بفعل معركة وادى المخازن)
 - _ اختفاء خطر الدولة الصفوية في ايران.
 - _ الظروف الداخلية للدولة العثمانية (هزيمة لبانتو 1571)
 - ـ الموقف الدولي.

تلك كانت هي احداث اليمن خلال فترة معينة خلال القرن السادس عشر، وقبلها عرضنا لاحداث المغرب خلال نفس الفترة فماذا يمكن أن نستخلصه من كل ذلك ؟

- ـ ان رغبة السيطرة كانت واضحة لدى العتمانيين سواء في المغرب أو اليمن ولو على حساب المصلحة الخاصة لكل بلد، وكان المبرر الشرعي الذي يعطى دائها لتبرير ذلك هو توحيد المسلمين في اطار خلافة اسلامبة واحدة.
- ـ اساليب العثمانيين في السيطرة كانت واحدة في البلدين : فهي تتراوح بين الخديعة والمراوغة والعنف والقمع.
- _ فكر بعض حكام المغرب، كما فكر في ذلك بعض حكام اليمن، في التعاول مع

قوات اوروبية معينة، لخلق عامل توازن في علاقاتهم مع الاتراك. فعبد الله الغالب في المغرب تعاون مع الاسبان لضهان استقلال بلده، واتجه الى هذه المحاولة ايضا داود ابن عامر عندما فكر في التفاهم مع البرتغال، لكن نجح الاول وفشل الثاني. لقي العثمانيون في كل من اليمن والمغرب مقاومة عنيفة، وإن اختلفت أساليب المقاومة في كل من البلديين، فقد فرض على البلد الأول (اليمن) أن يواجهه بقوة السلاح، في حين اتجه البلد الثاني (المغرب) إلى المقاومة الدبلوماسية.

هو امـش

- (*) اعد برسم الندوة التي نظمتها جامعة عدن بالجمهورية اليمنية سنة 1989 في موضوع: «اليمن عر التاريخ» وقد نشر البحث بحوليات كلية الآداب بالدار البيضاء، العدد الحامس 1989، ص 85 _ 94
- (1) انظر في هذا الصدد: محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم الى المغرب خلال القرنين 16 و17.
 الفصل الثاني من الباب الثاني
 - (2) ينقل لنا احمد بن القاضي صدى المعركة في الشرق العربي قائلا .
- «... وحدثني بعض من اثق به أنه جلس ذات يوم بجرجة من بلاد الصعيد قاعدة امارة بني عمر مع أميرها يونس بن عمر، وتفاوضا في غزوة مولانا وماله من العدل والمآثر الحسنة والسير المستحسسة، فتأوه لذلك وتاقت نفسه للدخول في سلك بيعته ...» انظر المنتقى المقصور، 2 · 846.
- ويضيف قائلا . «وبما شاهدته من مبرة اهل المشرق بأهل قطرنا حينئد لما انتهى اليهم امر غروته العظيمة ما يكل عن وصفه اللسان ، ولا يحيط به بنان ، وترى الواحد منا بينهم كأنه أعجوبة عظيمة يشار اليه قائلين فلا الغروة المشهورة ، مما لا يدركه الا من شاهد ذلك ، وصار لنا بذلك ينهم حظا عظيما ، ووقارا جسيا وصار العرب من مملكته يفحرون بذلك على الترك بهذا الملك العظيم . . . » المصدر السابق ، نفس الصفحة .
 - (3) انظر محمد رزوق، المصدر السابق، نفس الفصل.
 - (4) على التمجروت، النفحة المسكية، ص 147 .
 - (5) محمد بن اياس، بدائع الزهور، 3 . 166
 - (6) محمد بن اياس، المصدر السابق، 3: 191.
 - Kammer, La Mer Rouge... T: 2, p: 144 (7)
 - (8) عن دوافع الغرو البرتغالي للمحر الأحمر والخليج العربي، انظر :
- محمد رزوق، صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين المغرب والخليح العربي حلال القرن السادس عشر (المغزو البرتغالي كنموذج)، مقال بمجلة حوليات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالدار البيضاء، العدد الثاني، 1985، ص 123 ـ 131
- (9) كانت هذه هي الحدود القديمة لليمن الكرى. انظر الحس بن احمد الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص 51.
 - (10) فاروق عثمان أماظة، الحكم العثماني في اليمن، ص 19
 - (11) عبد الله بن داعر، الفتوحات المرادية . 1 : 188 عن فاروق عنهان أباظة ، المصدر السابق، 24
- (12) يذكر عنه محمد أنيس انه كان : «تحاوز التهانين من عمره سفاكا للدماء صعيف العقل عديم الرأي . . . » .
 - انظر كتابه الدولة العثمانية والشرق العربي، ص 122

138

(13) عبد الله الجرافي، المقتطف من تاريخ اليمن، ص. 88

(14) عبد الصمد الموزعي، كتاب الاحسآن. . ص. 8

عن فاروق عتمان أبأظة، المصدر السابق، ص. 25

(15) ينفي احمد شرف الدين هذه التهمة عن الطاهريين، انظر اليمن عبر التاريخ، ص. 262. كما لا يستبعد الدكتور عبد العزيز سليان نوار أن تكون هناك محاولات من جانب عامر بن عبد الوهاب للوصول الى تفاهم ما مع البرتغاليين الذي كانوا يمثلون خطرا ساحقا على عدن في الوقت الذي كانت فيه عدن آخر معقل الطاهر بيين معرفة لهجهات عنيقة من جانب الامام الزيدي انظر كتابه، الشعوب الاسلامية، 104.

(16) فاروق عثمان أباظة، المصدر السابق، 22

(17) - محمد أنيس، المصدر السابق، 122

(18) ـ عبد الصمد الموزعي، المصدر السابق، ص. 8 عن فاروق عثمان أباظة، المصدر السابق، 22.

(19) احمد فضل العمدلي، هدية الزمن في اخبار ملوك لجيج وعدن، ص. 100

(20) عبد الله بن اللمصدر السابق، 1: 188، عن فاروق عثمان اناظة، المصدر السابق، 24

(21) محمد العقيلي، الجنوب العربي في التاريخ، 1. 308

(22) - حسين العرشي، بلوغ المرام . . ص. 60

(23) ـ عند الصمد اللوزعي، المصدر السابق، ص 10، عن فاروق اباطة، المصدر السابق 24.

(25) ـ امين الريحان ملوك العرب، 1 126

(26) قطب الدين لحنفي، البرق اليهاني في الفتح العثماني، ص. 84، عن فاروق أباظة، المصدر السابق، ص. 23

(27) المصدر السابق ص 136

(28) عبد الله بن داعر المصدر السابق، 1 . 201، عن فاروق أباظة، 24.

(29) حسين العرشي، المصدر السابق، ص. 61

(30) احمد فخري، اليمن ماضيها وحاضرها، ص. 156 ـ 157

المصادر والمراجع

ـ اباظة فاروق عثمان

الحكم العثماني في اليمن، القاهرة، 1986

ـ ابن ایاس محمد

بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة

ـ أنيس محمد

الدولة العثمانية والشرق العربي، القاهرة 1985

_ حسن ابراهيم حسن

اليمن البلاد السعيدة، القاهرة 1958

- حسن محمد

قلب اليمن، بغداد، 1947

ـ رزوق محمــد

- الاندلسيون وهجراتهم الى المغرب خلال القرنين 16 و17، الدار البيضاء 1989

- «صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين المغرب والخليج العربي خلال القرن 16 - الغزو البرتغالي نموذجا -، مقال بحوليات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالدار البيضاء، العدد الثاني، 1985، ص 123 - 131.

- العلاقات العربية الافريقية في القرن السادس عشر» مقال بمجلة المؤرخ العربي، بغداد، العدد 31، 1987، ص 99 - 103

ـ التمجروي علي

- النفخة المسكية في السفارة التركية، باريس

ـ سالم السيد مصطفى

تكوين اليمن الحديث، القاهرة 1963

ـ شرف الدين احمد حسين

اليمن عبر التاريخ، القاهرة 1963

ـ العبدلي أحمد فضل

هدية الزمن في اخبار ملوك لحج وعدن، القاهرة 1932

- العرشي، حسين بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى اليمن من ملك، وامام، القاهرة 1939

ـ العفيلي محمد

الجنوب العربي في التاريخ، الجزء الأول بمطابع الرياض 1958 والجزء الثاني

ـ فخري أحمد

اليمن ماضيها وحاضرها، القاهرة 1957

دولة اليمن الزيدية، مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية، القاهرة 1950

تُّاريخُ الْدُولة السعدية التاكمدارتية، نشره جورج كولان بالرباط 1934

ـ مؤنس حسيـن الشرق الاسلامي الحديث، القاهرة 1938

- الهمداني الحسن صفة جزيرة العرب، القاهرة، 1953 - الواسعي عبد الواسع تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، القاهرة

- Berreby, J J

La Péninsule arabique, Paris 1958

- Kammer

La mer rouge, l'Abyssinie et l'arable depuis l'antiquité

- Neibuhr, C.

Voyage en Arabie en d'autres pays, Amsterdam 1776

- Braudel (F)

La méditerranée et le monde méditerranéen, 2 tomes, Paris 1979.

- Castries (H. de)
- Sources inédites de l'Histoire du Maoc. 1ère série, Paris 1905-1953
- Ricard (R)

Etude sur l'histoire des Portuguais au Maroc, Coimbra, 1951

صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين المغرب والخليج العربي خلال القرن السادس عشر (الغزو البرتغالي كنموذج)

تعددت الصفحات المشتركة بين المغرب والخليح العربي لفترات طويلة في التاريخ الاسلامي، فلدكر في المجال السياسي - مثلا ـ لجوء عبد الرحمال بي معاوية إلى المغرب أيام ابي جعفر المصور، إد طل يكابد المشاق إلى حين تأسيس الدولة الأموية بالأندلس وفي نفس السنة التي توفي فيها عبد الرحمال الداخل كانت دولة الحرى تنبتق من الشرق هي دولة الادارسة التي كان يشعر افرادها بنوع من الالتزام المعبوي تجاه العراق، وما اتحاذ مدينة البصرة ـ بصرة المغرب ـ عاصمة لبعض أمراء الادارسة الادليلا قاطعا على دلك. وقد كانوا يهدفون بذلك إلى أن يباهوا (سصرتهم) بصرة العراق. وبالفعل فقد قصدها الادباء والعلماء والشعراء من المغرب والاندلس والمشرق (۱۱). ومازالت إلى يومنا هدا أسرة العراقيين المشهورة بالمعرب، كما لا نسبى ان السعديين اصلهم من شبه الحريرة العربية وكدا أبناء عمهم العلويين فانهم هاجروا منها.

وسحاول في هذا العرص الموجز أن نركز على صفحة مهمة من أهم الصفحات المشتركة بين حناحي العروبة، تلك هي الصفحة التي اشترك في كتابتها عرب المشرق والمغرب على السواء خلال القرن السادس عشر. فمن المعروف أن هذا القرن الاخير عرف احداثا خطيرة على الساحة السياسية والاقتصادية في العالم أدت الى تغيير وجه العالم الموسطوي تماما وظهرت قوات سياسية واقتصادية جديدة، وعقليات ومفاهيم حديدة، وقد كان نصيب مطقتنا من كل ذلك تعرضها للعرو البرتغالي. ومن أهم ما تميز به هذا الغزو شموليته بالنسبة للمغرب والخليج العربي فقد كان يهدف إلى تطويق المنطقة العربية بالاستيلاء على منافذها البحرية ونقطها الاستراتيحية قصد القصاء على الوساطة العربية ، أي ضرب الاقتصاد العربي في الصميم، وبالتالي احداث خلل في التوازن الاجتهاعي بالمنطقة، لكن المواجهة العربية كانت عنيفة خاصة في المغرب (بفعل معركة وادي المخازن) مما أدى بالبرتعال الى التراجع عن المطقة العربية وتعرية نفسه بالعالم الحديد (البرازيل).

وسوف نتعرض في هذا البحث لعوامل الغزو ومراحله ونتائجه على المنطقة العربية.

الغزو البرتغالي

قبل التعرض إلى عوامل هذا الغزو نبدي أولا ملاحظة أساسية، وهي أن هذا الغزو بدأ مبكرا بالنسبة لباقي الدول الاوروبية (احتلال سبتة ـ مثلا ـ كان سنة 1415)، ولعل ذلك يرجع إلى عاملين :

- عامل تاريخي : خرج العرب من البرتغال منذ القرن الثالث عشر، في حين ظل الوجود العربي باسبانيا إلى غاية سقوط غرناطة (سنة 1492)، فلم يكن هناك اذن ما يشغل البرتغال عن ممارسة غزوهم للشواطيء الافريقية (2).

- عامل جغرافي : قرب البرتغاليين من السواحل الافريقية ، اذ تواصلت حملاتهم بعد غزو سبتة الى أن وصلوا سيراليوني عام 1461. (3)

عوامل الغزو:

- عامل ديني : تتبع المسلمين بالمغرب الوصول الى الاماكن المقدسة بالحجاز.

صرح الامير البرتغالي هنري الملاح بأن الميدان الحقيقي الذي يكسب فيه أفراد البيت المالكي الفخار هو ميدان الجهاد ضد المسلمين في المغرب، وإنه سيمنح أكبر وسام في بلاده (وهو وسام السيد الاعظم) لمن يجاهد في هذا الميدان (4). يضاف إلى هذا أن هذا الأمير نفسه كان على رأس الجماعة التي عرفت باسم (جماعة المسيح)، وكان يصرح بأن هدفه الأسمى هو نشر الكاثوليكية بين الأفارقة (5)

وقد كانت القرارات البابوية (Les Bulles Pontificales) تمنح للملوك البرتغاليين امتيازات مالية وجبائية مهمة جدا قصد تشجيعهم على الاستمرار في محاربة الاسلام والمسلمين وغزو أراضيهم . (6)

- عامل استراتيجي : أهمية المنافذ البحرية بالمغرب الأقصى والخليج العربي.

هنـاك صفـة مشـتركـة بين المغـرب الأقصى والخليج العربي تتمثل في أهمية المنطقتين بالنسبة للمواصلات البحرية العالمية، فالمغرب يشرف على بحرين مهمين: البحر الأبيض المتوسط بحضاراته العريقة، والمحيط الأطلسي، منطلق الأوروبيين إلى العالم الجديد غربا، وأوروبا الغربية شهالا، وافريقيا الغربية جنوبا، بالاضافة إلى تحكمه في مضيق جبل طارق الذي لا تخفى اهميته إلى يومنا هذا. أما بالنسبة للجزيرة العربية فإنها تمثل نقطة التقاء بين قارات ثلاث : أوروبا وآسيا وافريقيا، فمنها تنطلق السفن من بحر عمان متجهة نحو المحيط الهندي لينتهي بها المطاف إلى الصين واليابان. كما تستطيع السفن أن تنزل جنوبا نحو شواطىء افريقيا الشرقية إلى جزيرة مدغشقر وفي امكان السفن أن تدور حول جنوب الجزيرة العربية عبر باب المندب لتصل الى البحر الأحمر فبرزخ السويس، ومن هناك يمكن الانطلاق الى البحر الابيض المتوسط.

فمن شأن السيطرة على المنطقتين اذن التحكم بسهولة في طرق المواصلات العالمية، وجعل سكانها تحت رحمة المسيطر.

ـ عامل اقتصادي: القضاء على الوساطة العربية بالخليج العربي والمغرب.

استولى البرتغال على الشواطىء المغربية واحتلوا عددا منها وحاولوا التوغل إلى الداخل، وحاولوا قطع أي اتصال بينها وبين الخارج. وهكذا قطعوا بالقوة علاقاتها مع تجار البندقية وجنوة الذين ظلوا يترددون عليها طيلة قرون بقصد المبادلات التجارية ، فطاردوا أولئك التجار بعنف ولم يترددوا في قتلهم أحيانا . (7) وفي الجنوب توغل البرتغاليون نحو مصادر الذهب ووصلوا في 847 هـ (1343)، (أرجين) ثم الى (مينا) و (أكسيم) بافريقيا الاستوائية في سنة 891 هـ (1486)، وامكنهم اثر ذلك أن يحولوا جزءا كبيرا من الذهب المستخرج نحو سفنهم الراسية على الشاطىء، بدل أن يتركوا ذلك الذهب يتابع طريقه التقليدية نحو الشال أي نحو المغرب، عبر الصحراء. ومن المعلوم أن المغرب كان يعتمد يومئذ في توازنه الاقتصادي والاجتماعي على تجارة القوافل الصحراوية وحاصة على تجارة الذهب. (8)

ونفس الامر حدث بالمشرق العربي فقد كانت السياسة البرتغالية مرتبطة بهدف واضح : القضاء على الوساطة العربية ما بين أوروبا والمناطق الاسيوية المنتجة للتوابل والعقاقير والعطور. (9)

الغزو:

كان البابا يحث باستمرار البرتغال على مهاجمة المسلمين وذلك كرد فعل ضد فتح بيزنطة من طرف الاتراك العثمانيين سنة 1453. وهكذا فقد هاجم البرتغاليون مدينة القصر الصغير بقوات عظيمة سنة 1453، وقد كان على رأس الحملة الملك الفونسو الخامس نفسه، واحتلال هذه المدينة يرجع في أساسه إلى أنها ميناء هام على مضيق سبتة وطنجة ، ويمكن الاعتهاد عليها لتقوية سبتة ولمهاجمة طنجة فيها بعد. (10)

وفعلا فقد تعرضت هذه المدينة لحملات عديدة فشلت جميعها للمقاومة الداخلية الامر الذي حذا بالبرتغاليين الى القيام بمهاجمة أصيلا واحتلالها سنة 1471، واتخاذ هذه الأخيرة قاعدة لاحتلال طنجة التي فر منها أهاليها ودخلتها قوات الاحتلال بعد ثلاثة أيام من التاريخ المذكور. (11) فتعززت بذلك وضعية البرتغال في شهال المغرب، وقويت أماني ملوك لشبونة في اتخاذ هذه المراكز نقطا لاحتلال داخل البلاد. (12)

وفي نفس الوقت كان البرتغاليون يسيرون في خطة مماثلة بالشرق العربي، فقد كان تدمير المقدسات الاسلامية في الحجاز جزءا من أهداف النشاط البرتغاني في المياه الشرقية الاسلامية. (13) وقد اتبع البرتغاليون فعلا في سيطرتهم على البحار والمحيطات سياسة صليبة لا انسانية ضد العرب، فقد كان البوكرك قاسيا مع العرب حتى انه كان يملأ بهم المساجد ويضرم فيها النار (14). واطلق القادة البرتغاليون عنان جنودهم فسمحوا لبحارتهم بمارسة القرصنة ضد السفن العربية، وكان الاسطول البرتغالي يقوم بشن الحرب على المعاقل التجارية العربية، فإن لم يستطيع احتلالها ضرب الاهداف المدنية واحرق الميناء بمشآته وسفنه وقواربه الراسية فيه، وهذا ما فعله البرتغاليون في عدن وقمران ومسقط والبحرين وصحار مثلا (15).

ولقد أدرك البرتغاليون أن استمرار تحركهم في التجارة الشرقية ومنع العرب من نقلها عبر الشرق الادنى ومصر الى اوروبا يتوقف على سد منافذ الطريقين العالميين عبر الشرق الأدنى إلى أوروبا هما طريق الخليج العربي الذي تسيطر عليه هرمز،

وطريق البحر الأحر الذي تتحكم فيه عدن وسقطرة وباب المنذب. وكانت عدن شديدة المقاومة للبرتغاليين سنة 151 (١٥)، ثم دمر الموانىء الساحلية التابعة لهرمز على الخليج العربي وخاصة مسقط وصحار، وحولوا الضريبة السنوية التي كانت تدفعها لهرمز إلى خزينة البرتغالين. ثم وجه البوكرك اسطوله الى هرمز وتمكن من بسط نفوذه على ملك هرمز الذي أصبح تابعا لملك البرتغال يدفع له ضريبة سنوية، وبنى البرتغاليون حصنا في هرمز واعفى التجار البرتغاليين من الضرائب (١٦). وهكذا تسنى للبرتغاليين التحكم في الملاحة التجارية بالمنطقة. لكن ماذا كان موقف العرب من كل هذه التطورات ؟

المواجهة العربية:

لقد تجند المغاربة للدفاع عن بلادهم بصفة تلقائية وبتوجيه من العلماء الذين قادوا الناس بأنفسهم للجهاد، وظل الامر كذلك إلى حين تقلد الدولة السعدية مقاليد الأمور، اذ قادت الجهاد لتحرير البلاد من البرتغاليين إلى حين وقوع معركة وادي المخازن سنة 1578 التي قضت على الاطماع البرتغالية بالمغرب، وفرض المغرب نفسه كدولة تتمتع بالاحترام الدولي اللازم لجميع المعاملات الدولية خاصة أمام جيرانها الاسبان والاتراك بالجزائر.

أما في المشرق العربي فإن البرتغاليين وجدوا أيضا مقاومة عنيفة رغم تشتت القوات العربية التي لم يجمعها تنظيم سياسي موحد (١٥). وهكذا فقد استهات العرب هناك في الدفاع عن حريتهم وكيانهم، وعند عجزهم كانوا يتجهون الى الدول الاسلامية المجاورة، فقد اتجه ملك هرمز إلى الماليك، ثم بعد ذلك إلى الشاه السهاعيل الصفوي لكن هذا الأخير تخلى عن هرمز مما اقنع عرب هرمز ومدن الساحل الغربي للخليج العربي بضرورة الاعتهاد على النفس فقاموا بثورة مباغتة ضد البرتغاليين في هرمز ومسقط والبحرين وقريات وصحار، وهاجموا الحاميات البرتغالية في الجزيرة (١٩). لكن الامر كان يتطلب تدخل قوى بحرية كبيرة مثل الدولة الصفوية الناشئة القريبة من معاقل البرتغاليين في الهند وفي الخليج العربي. غير أن الشاه السهاعيل الصفوي ركز جهوده في الاناضور والعراق دون أن يقدم أية مساعدة المحربي بالخليج وفضل عوضا عن ذلك التحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين على حساب مصير الخليج العربي (٥٥).

ولم تحول القوى الاسلامية مرة أخرى إلى الهجوم الا بعد أن سيطر السلطان سليم الاول على الشام ومصير والحجاز (1516 ـ 1517)، وأصبح يتحمل مسؤولية الكفاح صد البرتغاليين سواء من أجل انقاد الاراضي المقدسة الحجازية من تهديداتهم المتكررة لها أو من حيث اعادة التجارة الشرقية إلى طريق مصر (21). وقد أدى وصول الاسطول العثماني إلى الخليج العربي إلى رفع معنويات المقاومة لدى أهل المنطقة وخاصة في القطيف في أعقاب سيطرة العثمانيين على البصرة، فثارت القطيف ثورة كبيرة ضد البرتغاليين في سنة 1550 وسلموا المدينة للاتراك العثمانيين. فكان رد البرتغاليون على ذلك بأن دمروا القطيف ممدفعية اسطولهم (22)

هكدا نرى أن كل المحاولات التي كان يقوم بها العرب كانت تبوء بالفشل بسبب تشتتهم السياسي أولا وتفوق الملاحة العسكرية البرتعالية ثابيا لكن ومع اقراربا بهده النتيجة لما أن نتساءل: هل نجح البرتغال بالفعل في تحقيق ما كانوا يطمحون إليه من تطويق المنطقة وضرب التجارة العربية في الصميم ؟

لقد ظل الرأي السائد لفترة طويلة لدى الاوربيين أن البرتغال استطاعوا القصاء على الموسماطة العرببة سواء بالسبة للسودان أو بالنسبة للشرق الاقصى لكن الابحاث الحديثة تثبت غير هذا، فلقد استمر المغاربة في عرض التبر ببعص الموانيء التي بقيت حرة وازداد العرض مع السنوات رعم كل المحاولات البرتغالية لقطع الطُّريق على القوافل إلى حد جعل المؤرخ البرتغالي الكبير (عودينبو) يعتبر ما عبر عله بالتقام القوافل من الكرافيلات الرتغالية أهم أسباب انتصار المغاربة السياسي والعسكري على البرتغاليين (٤٦) . كما لاحظ المؤرخ الفرسي الكبير فرباند بروديل أن السرتغاليين فشلوا في حصارهم التجاري وأن البحر الأحمر عرف ازدهار كبيرا في أواسط القيرن السادس عشر ولمدة تتحاوز عشرين سنة (24). ولاحظ كبرك أل البرتعاليين لم يستطيعوا مطلقا تحويل برمتها عن الطريق البري، فقد بقى تجار العرب طوال القرن السادس عشر يقومون بجلب الحرير والاصباغ والعقاقر من الشرق والبن من اليمن وينقلونها جميعا في البحر الأحمر، ثم عمر الصحراء إلى القاهرة والاسكندرية (25) ويقول المؤرخ الكبير أحمد عزت عبد الكريم. «اذا كال الجانب الأكر من التجارة الشرقية قد تحول إلى الطريق البحري الماشر، فإن اسواق العواصم والثغور العربية في بغداد والبصرة ودمشق وحلب والاسكندرية طلت عامرة ممنتجات الشرق مما تجلبه إليها القوافل وتردد عليها التجار من جنسيات مختلفة لير ودوا منها يها يريدون» (26)

لكن الانتصار الحقيقي _ كما يقول استاذنا محمد زنبير ـ «لم يأت من المحاولات العثمانية ولا من أي جهة أجنبية عن العرب، بل جاء في الحقيقة من التضامن الفعلى بين العرب» (27) وهو يقصد بذلك دور معركة وادى المخازن في التراجع النهائي للبرتغـاليين عن أطهاعهم بالمغرب والمشرق على السواء، وهو انتصار كان المشارقة يقدرونه حق قدره إذ ينقل لنا مؤرخنا أحمد بن القاضي (28) اصداء هذه المعركة في المشرق العربي قائلا: « وحدثني بعض من أثق به انه جلس ذات يوم بجرجةً من بلاد الصعيد قاعدة امارة بني عمر مع أميرها يونس بن عمر، وتفاوضا في غزوة مولانا وماله من العدل والمآثر الحسنة والسبر المستحسنة، فتاوه لذلك وتاقت نفسه للدخول في سلك بيعته » (29) . ويضيف قائلا : «ومما شاهدته من مبرة أهل المشرق بأهل قطرنا حينئذ لما انتهى اليهم أمر غزوته العظيمة ما يكل عن وصفه اللسان، ولا يحيط به بنان، وترى الواحد منا بينهم كأنه أعجوبة عظيمة يشار إليه قائلين : هذا من أهل الغزوة المشهورة ! يما لا يدركه إلا من شاهد ذلك، وصار لنا بذلك بينهم حظا عظيها، ووقارا جسيها، وصار العرب من كل مملكة يفخرون بذلك على الترك بهذا الملك العظيم. . . . » (30)

هذا هو التــاريخ وهذه صفحاته المشتركة بين مغرب الوطن العربي ومشرقه، فأين نحن اليوم من كل هذا ؟ وماذا فعلنا من أجل خلق تضامن عربي فعلى في مواجهة تحديات العصر، التحديات التقنية التي يأتي بها الغرب اليوم والتي كانت سبب فشلنا بالامس، التحديات السياسية والتي كانت أيضا سبب انهزامنا بالامس بسبب وحدة الغرب ووعيه بالامور وتشتت العرب وجهلهم.

موامش

- (*) أعده الباحث برسم الندوة العلمية الخامسة التي انعقذت ببغداد في أواحر ابريل 1984، وقد كان موضوعها «الخليح العربي والعالم». وقد نشر بحوليات كلية الآداب بالدار البيضاء، العدد الثاني، 1985.
- (1) محمد بن تاويت، «المغرب ودول الخليج عبر التاريخ الاسلامي» مقال بمجلة المناهل الصادرة بالرباط، عدد 27، يوليوز 1983، 106/104.
 - (2) انظر شوقى الجمل، تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، 154.
 - (3) المصدر السَّابق، 155
 - (4) المصدر السابق، 154
 - (5) نفس المصدر والصفحة
- (6) انظر أحمد بوتترب، «مساهمة الموثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغرو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي»، مقال بمجلة المشاهل الصادرة بالرباط عدد 29، السنة العاسرة، مارس 1983، ص 73 ـ 74.
- (7) J Moulu, les Etats Barbaresques (collection que sais-je?) N° 1097, p. 108
- (8) J Brignon et autres Histoires du Maroc, p 189
- (9) أحمد بوشرب، المقال السابق، 77
- (10) _ انظر عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، 8
 - (11) نفس المصدر والصفحة.
 - (12) نفس المصدرة والصفحة.
 - (13) انظر عبد سليان نوار، الشعوب الاسلامية، 130
 - (14) المصدر السابق، 131
 - (15) نفس المصدر والصفحة.
 - (16) نفس المصدر والصفحة.
 - (17) المصدر السابق، 132.
- (18) انظر أحمد عزت عبد الكريم، دراسات تاريخية في النهضة العربية، 190.
 - (19) انظر عبد العزيز سليمان نوار، المصدر السابق، 134
 - (20) المصدر السابق، 135.
 - (21) المصدر السابق، 135.
 - (22) المصدر السابق، 142
 - (23) أحمد يوشرب، المقال السابق، 82
 - (24) La Méditerranée et la Monde Méditerranéen à l'Epoque de Philipe II, 1 : 166.
- (25) أورده محمـد زنسير في مقاله «بين جناحي العروبة» مجلة المناهل الصادرة بالرباط، عدد 16، سنة 1979، ص 189.
 - (26) دراسات تاريخية في النهضة العربية
 - (27) المصدر السابق، 189.
 - (28) انظر ترجمته في المقدمة التي عقدناها لتحقيق كتابه «المنتقى المقصور على مآثر الخلفية المصور»
 - (29) المنتقى المقصور، ص 745.
 - (30) نفس المصدر والصفحة.

ملاحظات منهجية حول كتابة تاريخ الأمة العربية (*) «المغرب في القرنين 16 و17 نموذجا»

إن الكتابة حول مهجية كتابة تاريخ الأمة العربية تقتضي تجزىء هذه الدراسات إلى وحدات زمانية ومكانية من طرف المختصين، ثم تجميع الخلاصات التي وصل إليها هؤلاء قصد الخروج بتصور موحد لمعالم مدرسة عربية واحدة لكتابة تاريخ هذه الأمة.

وهذه ملاحظة أساسية لأن التعمييم من شأنه أن يفقدنا القدرة على التمييز بين مختلف فترات تاريخ أمتنا، فتاريخ الأمة العربية قبل الاسلام ليس هو تاريخها في الفترة الاسلامية، وفترة العصر الحديث (القرنين 16 و17) ليست هي الفترة المعاصرة (القرنير 19 و20)، وتاريح الشرق العربي له خصوصياته تميزه عن تاريخ المغرب العربي وإن كان يشترك معها في بعض النقط.

وهذه مساهمة متواضعة لدراسة تاريخ قطر من أقطار هذه الأمة في فترة معينة نبدي فيها بعض الملاحظات التي تمكننا من مقارنتها بتجارب أخرى في العالم العربي.

حينها نتحدث عن المغرب في القرنين 16 و17 فإن قضايا عديدة تطرح أمامنا، وتطرح معها نوعية الوثائق الممكن الاستفادة منها.

1 _ المد الاستعماري الايبيري في شمال إفريقيا:

من المعلوم أن إسبانيا تتبعت ما بقي من الأندلسيين في شبه الجزيرة الايبيرية وقدفت بهم خارج الحدود، فكان رد فعل هؤلاء عنيفا، إذ تعاونوا مع القوات الاسلامية بشهال إفريقيا (مغربية وتركية) للوقوف في وجه من أخرجهم من ديارهم ولاسترجاع ما ضاع منهم، وهنا ببرز نوعية الوثائق المستخدمة. فالوثائق الأوربية

تعتبرهم مكل بساطة قراصنة يسعون الى السلب والنهب دون أن يقيموا أي اعتبار للأهداف الحقيقية التي حعلت الأندلسيين يواجهون الاسبان والأوروبيين عموما بهذا العنف، وعندما حاول عدد من الدارسين الأوروبيين دراسة المغرب في هذه الفترة انطلقوا من هذه الوثائق (۱)، مما جعلهم يسقطون في أحكام خاطئة حول هؤلاء. وفي السنوات الأخيرة بدأ بعص الدارسين المغاربة ينظرون برؤية جديدة إلى هذه الوثائق محاولين استنطاقها، وفي نفس الوقت وضعها أمام الوثائق الوطنية لكي يبرزوا من خلالها حقيقة الدور الذي كان يقوم بها هؤلاء لصد العدوان الايبيري على المغرب، وبذلك أعطوها صفة «الجهاد البحري» إنطلاقا من الدوافع الحقيقية التي كانت تحرك الأندلسيين. إننا لا نقصد بهذا التقيص من قيمة الوثائق الأوروبية، وإعلاء قيمة الوثائق العربية لتأييد ما نذهب إليه. فهذا عمل من شأنه أن يسقطنا في شوفيية ما، وبالتالي فهو لا يخدم التاريخ المغربي والتاريح العربي في شيء، ىل بالعكس يبعدنا عن الحقيقة التاريخية مسافة كبرة.

إننا نقصد بالخصوص أن نعطي للوتيقة الوطنية وزبها بحاب الوثيقة الأجنبية ، فعندما نكتب عن هؤلاء الأبدلسيين ننطلق أولا مما كتبه عنهم المعاربة ، ثم نحاول أن بلقي بعض الأصواء على بعض القضايا إنطلاقا من وثائق أوروبية معينة ، ونحاول أن بقوم بعملية مقابلة بين هذه وتلك ، فنجد في النهاية أن الوثائق في حقيقنها متكاملة فإذا بحثنا الدوافع التي كانت تحرك الابدلسيين في الوثائق الوطنية وجدناها تتلخص في «الجهاد البحري ضد الكفار» ، وإدا بحثنا عنها في الوتائق الأوروبية وجدناها تركر على القرصنة قصد الحصول على الغنائم ، وبدلك تصبح الدوافع كالآتي : الجهاد البحري للانتقام عمن أخرجوهم من ديارهم + وللحصول على الغنائم في نفس الوقت ، بل ولم لا الحصول على نفوذ سياسي داحل المغرب ، ونفوذ معنوى لدى القوات الأوروبية

أما عن الاستعمار البرتغالي بالمغرب فالوثائق البرتغالية تحاول أن تصور لنا تعاول بعض المغاربة مع البرتغاليين، بل واعناق بعضهم للمسيحية، «والانتصارات الباهرة التي حققها البرتغاليون بالمعرب. «فعندما درس الأوروبيون الاستعمار البرتغالي بالمغرب درسوه إنطلاقا من هذه الوثائق دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحت عن الوثائق الوطنية، وموقف المغاربة الحقيقي من هذا الاستعمار، بعم لقد تعاون

بعض المغاربة مع البرتغاليين ؟ لماذا دخل بعض المغاربة في النصرانية» ؟ هل حقق البرتغاليون فعلا «إنتصارات»، ماهي وضعيتهم في المراكز المحتلة ؟

بطبيعة الحال الوتائق الأوروبية سكتت عن الأحوبة، وهنا أيضا يعرز دور الوثائق الوطنية. فإذا حاولنا أن نبحث عن المتعاونين مع المرتغاليين نجد أنه قليل جدا، وحتى إن وجد فهو من طرف أصحاب المصالح، وبالتالي فهم لا يمثلون المغاربة في شيء، فهم عملاء للبرتغال، مفصلين عن المغاربة، بدليل أن المغاربة قاطعوهم، وكانوا يتحينون الفرصة للتخلص منهم إلى أن تمكنوا في العديد من المرات من ذلك. أما عن السؤال الثابي حول «دخول عدد من المغاربة إلى النصرانية» فنشير إلى وصعية المغرب الاقتصادية والاجتهاعية والسياسية المتدهورة في أواخر القرن 15 وبداية القرن 16، إد تكالب على المغرب في العهد الوطاسي الجهاف والمرص والحروب الأهلية، مما اضطر المغاربة إلى بيع أبنائهم للبرتغال مقابل لقمة والمرص والحروب الأهلية، عما اضطر المغاربة إلى بيع أبنائهم للبرتغال مقابل لقمة عيش حتى لا يموتوا حوعا، وهما يبدو تفسير هذه الوضعية واصحا، إذ كانوا يعد ذكر هؤلاء الذين تطاهروا ناعتناق المسيحية، مما على تأمم لم يعتقوها أبدا. أمما على الحهاد، وطل البرتعاليون محاصرين في مراكزهم لا يقرون على الخروج منها.

2 _ التوسع العثماني:

لم يختلف العرب على قصية تاريخية معينة مثل اختلافهم حول تقويمهم للوجود العثماني بالعالم العربي.

فبيها اعتره البعض وجودا ضروريا لابه انقد هذا الأخير من المد المسيحي، اعتره البعض الآحر عامل حتى للقومية العربية بحيت طمس معالمها طيلة سنوات الوجود العتماني به، حاصة في الجانب الفكري. ولن بدخل في هذا النقاش وسوف نسير مع الحط الذي ارتأيناه هذا البحت ألا وهو البحت عن الوتائق التي تناولت قضايا معرب القرنين 16 و17

لقد كان المغرب هو البلد العربي الوحيد الذي نجا من السيطرة العثمانية، واعتبر ملوك الدولة السعدية أنفسهم أحق بالخلافة الاسلامية من (الماليك الأتراك)، وذلك بفعل شرف نسبهم الذي يعطيهم هذا «الحق»، (2) وما فتىء مؤرخوا الدولة السعدية يلحون على هذه القضية. (3) واتجه ملوك الدولة السعدية إلى تحسين علاقاتهم مع الاسبان لاستخدامها كعامل توازن في علاقاتهم مع الاتراك، أي أن السعديين كانوا يواجهون الأتراك بالاسبان. وهنا أيضا تبدو أهمية التكامل والمقابلة بين الوثائق الوطنية والوثائق الأوروبية التي دعونا إليها في مستهل هذا البحث. فإذا اعتبرنا الوثائق الركية وبعض الوثائق الوطنية فبعض ملوك الدولة السعدية خونة، (4) وإذا اعتبرنا الوثائق الأوروبية فهي علاقات القصد منها المحافظة السعدية خونة، (4) وإذا اعتبرنا الوثائق الأوروبية فهي علاقات القصد منها المحافظة على التوازن بالمنطقة.

وإذا حاولنا أن ندقق هذه النقطة وانطلاقا من نظرية التكامل والمقابلة فإن الامر يبدو عاديا من الوجهة الدبلوماسية. فمقابل أن يحافظ بعض ملوك الدولة السعدية على استقلال المغرب عن أي نفوذ تركي عمدوا إلى تحسين علاقاتهم مع الاسبان أعداء الأتراك.

تلك كانت نظرة سريعة عن أهمية التكامل والمقابلة بين الوثائق الوطنية والأجنبية، ولننتقل الى نقطة أخرى طالما اتفق فيها العديد من الباحثين المغاربة والأوروبيين على السواء ألا وهي قصور الأسطغرافية المغرب، ذلك أن كثيرا من المصادر التاريخ الاجتهاعي والفكري والاقتصادي للمغرب، ذلك أن كثيرا من المصادر التاريخية المغربية طالما اهتمت بالسلطة المركزية والفئات الاجتهاعية المحيطة به، (5) مهملة عن قصد أو غير قصد تاريخ الشعب (العامة) على اعتبار أن تصرفات مهملة عن قصد أو غير قصد تاريخ التسجيل. ولكن الأبحاث التي بدأت رالفئات الدنيا) من المجتمع لا تستحق التسجيل. ولكن الأبحاث التي بدأت تتصهر أخيرا بدأت تدعو الى إستخدام مناهج العلوم الاخرى (علم اجتماع، أنتربولوجيا، أتنولوجيا، لسانيات، أركيولوجيا.) لفك رموز هذه الوثائق ومحاولة تطويعها لميدان البحث التاريخي بمفهومها العصري.

كما نشير إلى أهمية إستغلال الوثائق التي لم يقع إستغلالها بعد بالشكل الكافي نتيجة تهميشها لسنوات طويلة من طرف الباحثيين، مثل: فهارس الشيوخ، والاجازات العلمية، والحوالات الحبسية، والكناشات، والتقاييد التاريخية، والرسوم العدلية، والعقود الخاصة الى غير ذلك. . . فهذه الوثائق تساعدنا مساعدة عظمى في محاولة استخلاص جوانب معينة من الحياة الفكرية والاجتاعية والاقتصادية للمغرب.

هو امـش

- (*) نص المداخلة التي تقدم بها الباحث في المؤتمر الذي عقده إتحاد المؤرحين العرب ببغداد في الفترة المتراوحة بين 29 و27 في موضوع : «نحو مدرسة عربية لفهم التاريخ وكتابته» وقد نشرت بحوليات كلية الأداب بالدار البيضاء، عدد 5، 1988 دجنر 1987.
 - (1) عبارة عن تقارير لمبشرين أو رهبان أو جواسيس أو تجار أو قناصلة يخدمون ىلدانهم الأصلية
 - (2) طبقا للحديث الشريف «قدموا قريشا ولا تقدموها»
- (3) انظر مثلا عبد العريز القشتالي، مناهل الصفا، وعلى التمحروني، النفحة المسكية. وأحمد ب القاضي. المنتقى المقصور
- (4) تنطق هده الملاحظة بالحصوص على عبد الله الغالب السعدي انطر تاريخ الدولة السعدية، لمؤلف
 - (5) علماء وفقهاء وتجار وقادة عسكريون.



قضية الشعوبية في التاريخ السلامي (*)

احتلت قضية الشعوبية مكانا بارزا في التاريخ الاسلامي يدل على ذلك ما ألف حولها قديما وحديثا، من طرف كتاب عرب واوروبين، وتأتي اهميتها من كونها تطرح مسائل عديدة تتعلق بنوعية العلاقة التي كانت سائدة بين العرب والعجم خاصة الفرس، وكذا بابعاد هذه الحركة فكريا وسياسيا ودينيا.

أولا: السياق التاريخي لقضية الشعوبية:

مرت لفظة الشعوبية بتطورين متباينين، فقد اطلقت في الطور الأول على جماعة تذهب الى انه لا فرق بين الشعوب من عرب وعجم، ولذلك سموا «باهل التسوية» (1) وكان هؤلاء من الموالي الذين وجدوا في تعاليم الاسلام ما يخرجهم من وضعيتهم المتدنية. الا ان الأحداث التي صاحبت قيام الدولة العباسية جعلت لفظة الشعوبية تنحرف عن مدلولها الاول لتطلق على فرقة جديدة لم تقف عند حد المساواة بل تعدتها الى الحط من شأن العرب واحتقارهم والطعن في امجادهم، وذلك ما سنوضحه في التحليل الآتي:

منذ بداية عهد الأمويين بدأ هؤلاء الموالي يكونون جاليات كبرى حول الامصار (تدل آنذاك على المدن العسكرية) التي أقامها الخلفاء والفاتحون لاستقرار الجيوش العربية، ومن جملتها البصرة والكوفة بالعراق، والفسطاط بمصر، والقيروان بافريقة، ورغم اسلام هؤء فإن الأمويين رفضوا منحهم المساواة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مما سبب لديهم تذمرا مشوبا بنزعة الانتقام، وبالتالي جعلهم ينضمون الى جل الحركات المناهضة الى الحكم الأموي كالخوارج والشيعة، وقد تجلى عدم المساواة فيها يأتى:

1 - في الموظائف الرسمية: منع الموالي من تقلد وظائف في السلطة مثل الولاية والقيادة والقضاء، ونشير هنا الى ان الأموين لم يكبونوا يجهلون كفاءة هؤلاء، فقد استفادوا منهم بالفعل في الميدان الاداري خاصة الادارة المالية. لكن الامر وقف عند هذا الحد اى حد المساعدة التقنية، بينها ظلت السلطة الفعلية بيد العرب.

2 ـ وضعيتهم داخل الجيش : كان الموالي يستخدمون في الجيش باعتبارهم مشاة لكنهم لم يكونوا مسجلين في الديوان ولهذا لا يدفع لهم العطاء

3 - وضعيتهم الاجتماعية: اعتبر العرب ان الحرب والتجارة اساس حياتهم المعاشية، وتركوا الاعمال اليدوية كالزراعة والصناعة للموالي، ويمكن ايضا ملاحظة انخفاض مكانة الموالي الاجتماعية في مخاطبتهم بالقابهم الخاصة ولا يحق لهم استعمال الكني الا ناذرا. كما لم يكن مسموحا لهم ان يتزوجوا نساء عربيات، كما ان ابناء العربي من امرأة غير عربية لا يأخذون نفس الحصة من ارث أبيهم من أبناء العربي من ام عربية.

4 - في السياسة المالية الموسعة: تجلت عدم المساواة بشكل واضح في السياسة المتبعة من طرف الأمويين، فقد ظل الموالي يؤدون الضرائب الثقيلة رغم اسلامهم نظرا للحاجة المستمرة للموارد المالية، نتيجة توقف الفتوح.

وهكذا وجد العباسيون في الموالي الفرس خير مساعد على تقويض دعائم الحكم القائم، حتى قيل بان الدولة العباسية اصطبغت بالصبغة الفارسية، بل عدها الجاحظ اعجمية اذ يقول في هذا الصدد «دولة بني العباس عجمية خرسانية ودولة بني مروان اعرابية». (2)

 ولا شك ان المكاسب التي احرزها الفرس في هذه الدولة الجديدة من الأهمية بمكان، ذلك انهم اثبتوا سيادتهم في المجال السياسي والاداري والاجتماعي فشغلوا المناصب العليا، وكان منهم الوزراء والكتاب والحجاب والبطانة الخاصة، وفي ذلك يقول المقريزي حين يتحدث عن المنصور: «هو اول خليفة استعمل مواليه وغلمانه في اعماله، وقد مهم على العرب فاقتدى به من بعده من الخلماء، حتى سقطت قيادة العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها. . . » (4) . وهنا اتخذ الصراع بين العرب والموالي طابعا جديدا، وانتقلت حركة الشعوبية من المطالبة بالمساواة الى مرحلة التعصب للعجم والاعتراف بفضلهم على العرب .

ثانيا: آثار الشعوبية على الدولة الاسلامية:

كان للشعوبية آثار عديدة على الصعيد الاجتماعي والسياسي والديني إلى غير ذلك.

1 _ عل الصعيد السياسي:

_ اضعاف الدولة الاسلامية نتيجة الفتن الداخلية :

اشترك الموالي في العديد من الفتن والثورات مما زاد في خطورتها واضاف اعباء جديدة على الدولة، وشغلها عن الزيادة في رقعة الاسلام. وقد ظلوا يترقبون الفرصة الى أن انضموا في النهاية إلى العباسيين، وحاولوا بث النفوذ الفارسي. فقد حاولوا ذلك مشلا م في عهد المنصور، لكنه فطن للامر، اذ لم يقبل تدخل ابي مسلم الخراساني في امور الخلافة، اذ شعر بالروح الشعوبية والعصبية الفارسية واضحة جلية عنده فأمر بتصفيته.

لكن القضية لم تنته بمقتل ابي مسلم بل أدى ذلك الى قيام كثير من الحركات التي ازعجت الخلافة لمدة غير قصيرة. فقد خرجت عدة فرق بغرض الثار لابي مسلم في صورة صراع شعوبي عنيف.

ـ تفكيك وحدة العالم الاسلامي .

نجحت الحركة الشعوبية في تفكيك الوحدة الاسلامية، وهكذا قامت الدولة الطاهرية في خرسان والدولة الصفارية، والدولة السامانية، والدولة الغزنوية، وهذه الدولة وان كانت تعلن تبعيتها للدولة العباسية الا انها كانت في الواقع تبعية اسمية.

- رات طائفة من الموالي ان حكم العرب لها ضرب من سخرية القدر، وان بني هاشم غير مؤهلين لان يسوسوا شعوبا عريقة في المجد والعظمة. وفي ذلك يقول شاعرهم :

بني هاشم عودوا الى نخلة لكم فقد صار هذا التمر صاعا بدرهم فان قلتم رهط عيس بن مريم (5)

لذلك عملت هذه الشعوبية على بعث المجد الكسروي وايقاظ القومية الفارسية عند المسلمين الفرس.

وقد اعتبر الموالي الفرس انتقال الخلافة من دمشق الى بغداد انتصار لهم، اذ اعتبروه اعترافا من الدولة الجديدة بفضلهم.

كما ان تطلع الاعاجم للوزارة ومنافسة العرب عليها، لم يكن الا مظهرا من مظاهر الشعوبية السياسية، حتى ان الوزارة اصبحت وقفا عليهم، فقد كان اغلب الوزراء من العناصر الفارسية. واول من لقب بالوزير في الاسلام هو ابو سلمة الخلال الهمداني. (6)

وقد اشتهر في هذا الصدد البرامكة في عهد الرشيد الذين كانوا يمثلون اوج النفوذ الفارسي وسلاح الشعوبية الحقيقي . (7)

والملاحظ ان الطابع الفارسي فرض وجوده على النظم السياسية والادارية فتعددت الدواوين، ولم يعد القضاء مقصورا على العرب وحدهم، وكان اول من تولى منصب قاضي القضاة فارسيا، وكذلك كان قاضي بغداد (8).

2 ـ على الصعيد الاجتماعي:

دعت الحركة الشعوبية الى نبذ التقاليد العربية واحلال التقاليد الفارسية محلها، وهي ترمي بذلك ان تجعل من المجتمع العباسي صورة لمجتمع الفرس، وقد سارع بعض العرب فعلا لمحاكاة الفرس حتى قال المقريزي: «فسموا عوائد العجم ادبا وقدم وها على السنة . . . »، بل تشبه بعض الخلفاء العباسيين بأكاسرة الفرس وقلدوهم في التعلق بمظاهر الترف والبدخ ، واتخاذ البطانة الخاصة ، ونصب الحجاب على الابواب

3 ـ على الصعيد الثقافي :

طعنت الحركة الشعوبية في تراث العرب الأدبي، وفي لغتهم، فقامت تتحامل على الابداع الادبي العربي، وترمي الشعراء بالبداوة والبعد عن الحضارة. ولم يقف الامر عند حد الشعر، بل تعداه إلى النثر ايضا: ذلك انه الفت كتب كثيرة في ذكر مثالب العرب، واظهار عيوبهم، ونقاط الضعف في تاريخ القبائل وانسابها، ويتضح لنا الدور الذي لعبته الترجمة في نقل التراث الفارس خاصة كتب الزندقة. وكان ابن المقفع رائدا في هذا المجال، كما كان للبرامكة دور التشجيع وتقديم المنح بسخاء للمترجميه والمؤلفين الذين يخدمون حركة الشعوبية هذه. (10)

4 ـ على الصعيد الديني:

ارتبطت الشعوبية بالزندقة ارتباطا شديدا ومن تم كانت تهدف الى افساد العقيدة الاسلامية واثارة الشكرك حولها. وهكذا فقد حاولوا اعادة بعث الديانات الفارسية القديمة من مانوية، ومزدكية. . . واذا كان بعض الشعوبيين لا يتورعون عن مجاهرتهم بالعداء للعرب والاسلام، فإن بعضهم لجأ الى الوسائل الخفية التي تحقق الغرض المقصود، دون ان تثير الشبهات، وهكذا انضم عدد من هؤلاء الى الحركات المتطرفة من شيعة ورفض، وارجاء، وتعصبوا لها. وانكبوا على دراسة

العلوم الدينية من فقه وتفسير وحديث، رغبة في التفوق على العرب من جهة وكسبا لثقة المسلمين من جهة اخرى، فلما نبغوا في تلك العلوم استهانوا بها، ثم قاموا بوضع أحاديث كاذبة ونسبوها الى الرسول (عليه)، وغرضهم من ذلك تضليل الناس وتشكيك ضعفاء العقول في امور دينهم. (11)

ثالثا: موقف العرب من الحركة الشعوبية:

ادرك العرب خطورة هذه الحركة، فكثيرا ماكان الخليفة يتابع المسؤولين عنها، فالمنصور _ مثلا _ امر بنفي الزنادقة والمجان الى البصرة، كها امر بالقبض على عبد الكريم بن ابي العوجاء وقلته، بعد ان اعترف بسعيه لتشويه الحديث وإنه وضع اربعة آلاف حديث مكذوبا (12)

كما استحدث المهدي منصبا جديدا اسماه (صاحب الزنادقة) مهمته تعقب الملحدين والاقتصاص منهم (13). ثم امر بتصنيف كتب الجدل بالرد على الزنادقة الملحدين (14).

اما الرشيد فقد هدم وكر الشعوبية بالقضاء على البرامكة ، وتصدى لهذه الحركة ايضا طائفة من العلماء المسلمين في مختلف الميادين ، وهكذا اصبحت اللغة العربية موضع اهتمامهم ، وألفت في ذلك عدة كتب مثل كتاب العين للخليل بن احمد والكامل للمبرد ، وكتب اخرى في الشعر والادب . اما الدفاع عن العقيدة الاسلامية ، فوكلت الى طائفة من ائمة المسلمين ، نذكر من بينهم الامام الصادق ، والامام ابو حنيفة والامام ابن حنبل .

هذا هو التاريخ، وهذه صفحاته فهاذا فعلنا لمواجهة الشعوبية الحديثة خاصة ان الامة العربية مستهدفة من واجهات متعددة ؟

- فاذا كانت الشعوبية القديمة تنكر على العربي فصاحته وبلاغته، فان الشعوبية الحديثة تحاول بكل الوسائل هدم اعمدة الشعر العربي: اوزانه وقوافيه، وكل هذا تحت غطاء تطوير الشعر العربي.

واذا كانت الشعوبية القديمة، تختلق القصص والحكايات لتشويه سمعة العرب وبث الشقاق بين صفوفهم، فإن الشعوبية الحديثة تقوم بنفس الدور، ويكفي ان نقرأ ونسمع ما يكتبه الصهاينة لنتاكد من ذلك.

- واذا كانت الشعوبية القديمة لا تتورع في وضع الاحاديث الكاذبة لتمحبد العجم وخاصة الفرس، فالشعوبية الحديثة تحاول التشكيك في الصحاح من الاحاديث الشعوبية القديمة قد عمدت باستمرار لفصل العرب عن ثراتهم الحضاري الاسلامي، فإن الشعوبية الحديثة تقوم الآن بنفس الدور على الاقل في نقطتين:

- الدعوة الى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتنية.

ـ الدعو الى الأخذ بالعامية عوض اللغة الفصحى.

الموامش

- (
 (*) اعد برسم «الندوة القومية لمواجهة الدس الشعوبي»، التي انعقدت ببغداد في سنة 1989.
 وقد نشر بالعدد السابع من حوليات كلية الآداب والعلوم الانسانية (1) بالدار بالبيضاء، 1990.
 - (1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، 3: 403.

ويقول الجوهري في الصحاح ، مادة شعب : «الشعوبية فرقة لا تفصل العرب على العجم»

- (2) البيان والتبيين، 3 : 367. أيان
- (3) أوردته زاهية قدورة في كتابها الشعوبية واثرها السياسي والاجتهاعي، ص. 79.
 - (4) السلوك لمعرفة دولة الملك، 1 · 15
 - (5) مروج الذهب، 3 : 291.
 - (6) تاريخ اليعقوبي، 2 . 352.
 - (7) زاهية قدورة، المصدر السابق، 178.
 - (10) الجهشياري، الوزارء والكتاب، ص. 232.
 - (11) ابن الأثير، الكامل، 8: 28 ـ 29
 - (12) المرتضى، الأمالي، 1 : 127 ـ 137.
 - (13) الطبري، تاريخ الامم والملوك، 8 · 165.
 - (14) السيوطّي، تاريخ الخلفاء، 271.



و ثائق جديدة عن الحركة الفكرية في العهد السعدي (*)

بدأ في السنوات الأخيرة الاهتهام ببعض الوثائق التي ظلت مهمشة لفترة طويلة. فإلى وقت قريب كان المؤرخ للحياة الفكرية يتجه الى كتب التاريخ التقليدية ليستقى منها مادته، فيصاب بخيبة أمل عند أول مواجهة مع المصدر، فيردد باستمرار أن المؤرخين المغاربة لم يهتموا إلا بالأحداث السياسية التي تتمحور حول السلطة. وهو قول ـ وإن كنا لانتفق معه في كل ما ذهب اليه ـ يعبر عن مدى قصور المصادر التقليدية عن كتابة التاريخ الفكري والاجتهاعي للمغرب. وانطلاقا من هذا فقد اتجهت ابحاث عديدة آلى مناهج جديدة في عاولة منها لفك (الحصار المضروب على الوثائق الوطنية)، وادخالها الى ميدان البحث التاريخي، مستخدمين في ذلك مناهج العلوم الاخرى كمنهاج علم الاجتباع، والأنتربولوجيا، والاتنولوجيا، والاقتصاد، والاحصاء. وقد اعطت هذه الابحاث بالفعل في مرحلتها الاولى نتائج مشجعة. ومن والوثائق التي بدأت تدخل ميدان تاريّخ الحركة بالمغرب: الفهارس والاجازات لمالها من اهمية في ابراز نوعية العلوم الملقنة، وطريقة تلقينها، ودراسة سلوك المشرفين عليها. ولاشك انه بتجميع هذه الفهارس والاجازات يمكن أن نرصد الحركة الفكرية ونتتبع تطورها، واشعاعها داخل المغرب وخارجه، وبالتالي فإن هذا النوع من الوثائق يوفّر لنا مادة خام لاتوفرها لنا المصادر التقليدية .

وسنعرض في مقالنا هذا لانواع من الاجازات لعلماء من العصر السعدي عاشوا في فترة معينة ، هي فترة أحمد المنصور الذهبي .

وتضم هذه الوثائق (١) :

- ـ أربع إجازات.
- ـ تدبيج واحد.
- ٠ ـ وفهرس واحد.

أولا: اجازة ابي القاسم بن عبد الواحد بن العباس المخلوف لاحمد بن القاضي سنة 999 هـ.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وإله [وصحبه وسلم تسليم] (2) . وبعد، فيقول اقل عبيد الله تعالى: أحمد بن محمد بن ابي [العافية الشهير] (3) بابن القاضي _ خار الله له بمنه وادخله برحمته في . . . (4) : قرأتُ . . . (5) الصالحَ المحدثُ المتفنن . . . (6) سيدي ابي القاسم بن عبد الواحد المخلوف . . . (7) الابر . الرحالة ، قدوة اهل زمانه، وفريد وقته . . . (8) مالك بن انس، واجازنا . . . (9) وحديث الرحمة المسلسل بالاولية، وأجازنا في كل ما يجوز له وعنه روايته بشرطه بحق روايته لذلك عن عدة مشايخ اعلام وعلماء عظام كالشيخ الصالح المقطوع بولايته المحدث ابي النعيم وضوان بن عبد الله الجنوي، والشيخ الصالح ابي عبد الله محمد بن ابي الحسن البكري الصديقي، والشيخ العالم العامل، محدث الانام، رجل اليالي والايام : الشيخ قطب الدين العجمي المكي، عن استجازة والده ـ رحمه الله ـ، عن مشايخ اعلام، كالشيخ نجم الدين الغيطي، والشيخ ابي الحسن البكري. . . . (١٥) ، [أَبِّي استحاق] (١٦) بن عبد الرحمان العلقمي ، والشيخ الطبلاوي ، وجماعة وافرة. واخذ شيخنا المذكور عن والده، عن نجم الدين الغيطي، وعن أبي الحسن البكري، وعن والده، وعن العلقمي، والطبلاوي المذكورين. واجاز لنا ـ ابقاه الله - كل ما يحمله من الكتب الحديثية وغيرها بشرطه المعتبر عند اهله. وكان السماع المذكور بمراكش المحروسة، وحضره جماعة من الاصحاب، كإمام الدين محمد بن قاسم بن علي الخليلي، وابي حفص عمر البسطي الفاسي. . . (12) بن سيدهم المحمدي، وأبي علي بن مسعود الدرعي، والحاج ابراهيم بن محمد. . . (13) ، وابي عبد الله محمد مسعود الدرعي ، وإي سرحان مسعود بن عمرو الشباني في يوم الجمعة الثامن عشر من المحرم الذي من شهور سنة تسع وتسعين وتسعيائة. وكتب للعبد المذكور، حامدا الله تعالى، ومصليا ومسلما ومحوقًا لله على مولانا محمد وعلى آله وسلم تسليها.

صحيح ذلك، وكتب عبيد الفقير اليه: ابو القاسم بن عبد الواحد بن العباس المخلوف _ رفقه الله لما يرضيه تعالى بمنه. ومولدي تقريبا سنة اثنتين وستين وتسعائة . . . (14) والصلاة والسلام الاتمام الاكملان على محمد وتلى آله وصحبه .

وأنشدنا محيزنا المذكور عن قطن الدين العجمي المذكور :

توهمته [قد عاش من أول الدهر] (15) إذا هو قد ابقى الجميل من الذكر] (16) وعش ذا نوال واغتم أطول العمر] (17)

إذا عرف الانسان اخبار من مضى وتحسست قد عاش [آخر عمره فكن عارفا اخبار [من مات وانقضى

ثانيا: اجازة على بن احمد القرافي لاحمد بن القاضي مؤرخه في 11 ذي القعدة سنة 986 هـ / 9 يناير 1579 (١٤).

الحمد لله العظيم الامحد، والصلاة والسلام على أشرف العالمين أحمد، وعلي آله وأصحابه واتباعه احزابه على الدوام.

وبعد، فقد قرأ على المولى الاجل العام العلامة ابو العباس احمد بن مولانا ابي عبد الله محمد بن القاصي المغربي الفاسي - نفع الله تعالى به - فاتحة الكتاب المبين بقراءتها مي على مولانا قاضي قصاة المالكية بمصر أبي عبد الله محمد التتائي المالكي، شارح مختصر مولانا الشيخ خليل وغير ذلك من كل مؤلف جليل بقراءته اياها على شيحه مولانا شيخ مشايخ الاسلام برهان الدين اللقاني المالكي، بقراءته اياها على الشيح علم الدين سليها معلم أولاد الجان بقراءته اياها على شمهروس قاضي الجان بقراءته اياها على رسول الله - مناقق مولانا احد مشايخ الاسلام الشيخ زين الدين بي بكر الغمري، وولده النجيب محمد وكذا الشيخ العالم العلامة زين الدين بن عبد الرحيم بن عبد الله (١٩) من اعمال فاس، واجزت كل من دكر منهم بها وبجميع ما يجوز لي وعني روايته بشرطه المعتبر عند أهل الحديث والاثر في صبيحة يوم الجمعة المبارك حادي عشر ذي بشرطه المعتبر عند أهل الحديث والاثر في صبيحة يوم الجمعة المبارك حادي عشر ذي عده الحرام سنة ست وثمانين [وتسعمائة].

وكتبه علي بن أحمد س على الانصاري القرافي الشافعي حامدا مصليا مسلما التهى بنصه ومن خطه ـ رضي الله عنه ـ.

ثالثا: اجازة جماعية للمفتى عبد الواحد الحسني السجلهاسي في أواخر شوال عام 998/غشت 1590 لاحمد بن القاضي، محمد التواتي ومحمد ابن يعقوب الايسى جميع ما اشتمل عليه فهرسه.

الحمد لله وحده و يشخ على سيدنا محمد وإله وسلم تسليما وبعد، فيقول أقل عبيد الله تعالى، واحوحهم اليه: أحمد بن محمد بن ابي العافية المكناسي الشهير بابن القاضي _ خار الله له بمنه وأدخله برحمته في فضله وامنه _ : قرأت هذه الفهرسة المباركة على مؤلفها الشيخ العالم العلامة، المتفنن الفهامة السيد . . . (20) المسند حجة الاعلام ، وحسنة الليالي والايام ، لسيدي وسندي ومفيدي ومعلمي ابو مالك سيد عبد الواحد بن احمد الشريف الحسني

_ ابقاه الله ملاذا للمسندير ، مطافا للمتعلمين ، محمد وءاله _ .

وأجازني فيها وفي كل ما يجوز له وعنه روايته بشرطه المعتبر عند أهله (21) وكانت القراءة المذكورة للفظي وحضرها حم غفير من طلبة العلم: كالشيخ الفقيه المحدث ابي عبد الله محمد ابن يعقوب الايسي الراوية الاديب الحافظ المتهنن، وجماعة، واجازني... (22) حضر بمثل الاجازة المدكورة في أواحر المبارك عام ثمانية وتسعين وتسعمائة.

و المن على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما آمبن صحيح ذلك. قال له وكتبه بخطه عبد الواحد بن احمد بن محمد بن الحسن الحسني غفر الله لمنه.

رابعا : تدبيج (23) احمد بن القاضي مع محمد بن ابي بكر التواتي (159 شوال عام 998 هـ / 26 غشت 1590).

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وإله وصحبه وسلم تسليما وبعد، فيفول كاتبه اقل عبيد الله تعالى احمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن علي ابن ابي العافيه الشهيرة بابن القاضي ـ خار الله له بميه، وادخله برحمته في فضله ويميه ـ : فرأت على الشيخ العالم ابي عبد الله محمد بن محمد بن ابي بكر بن الحاج موسى النواتي الدي ولد سنة احد وأربعبن وتسعمائة بعض صحيح الامام ابي عبد الله محمد النواتي الدي ولد سنة احد وأربعبن وتسعمائة بعض صحيح الامام ابي عبد الله محمد

ابن اسهاعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري، وأجازني فيه بحق قراءته اياه على الشيخ الفقيه محمَّد بن محمود بن ابي بكر بَغْيْغُ عن ابي عبد الله اند غمحمد بن محمد بن أحمد الدثر التازيخي، عن الشيخ ابي الفتح ابراهيم ابن علاء الدين القرشي القلقشندي، عن ابن حجر الي اخره. . . ونص اجازته بعد البسملة والتصلية الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، وافضل الصلاة واتم السلام على افضل المخلوقين سيدنا ومولانا محمد رسول رب العالمين وعلى آله واصحابه السادات البررة الاكرمين، وعلى التابعين لهم باحسان الى يوم الدين، وعلى سائر أنبياء الله والمومنين، وذلك كل وسائر عباد الله الصالحين. أشهد الا الاه إلا الله وحده لاشم يك له له الملك، الحق المبين، واشهد ان سيدنا محمد عبده ورسوله الصادق الأمين.

وبعد فقد اجزت للاخ في الله محمد بن محمد بن ابي بكر بن الحاج موسى التواتي _ نور الله قلبي وقلبه بأنوار اليقين، وشرح صدري وصدره لتلقي فوائد العلم والدين أن يروي عني صحيح الامام الحجة آبي عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن بردزبة البخاري - رضي الله عنه وأرضاه، وأعاد علينا من بركاته وبركات علومه لـ لسماعه مني قراءتي من أوله الى آخره سوى فوتات يسيرة. وقراءته له على من أوله لأخره عموماً فأجرت له روايته عني بالامرين المذكورين لما تحققته ــ مع ذلُّك ــ من تأمله لذلك وصلاحه له نفعه الله بذلك يوم لاينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم - وذلك بحق روايتي له عن شيخنا ناصر السنة وحامل لوائها ابي عبد الله اندغمحمد بن الفقيه محمد بن احمد الدثر التازختي ـ رحمه الله مع أسلافه واشياخه، وجازاه عنا وعن رسوله افضل واحسن ما جازى به حملة حديثة ونقلة سنته _ قراءة وسماعا من لفظه غير مامرة قائلا : أخبرنا اجازة شيخنا شيخ الاسلام قاضي القضاة جمال الدي ابو الفتح ابراهيم بن علاء الدين القرشي الشافعي القلقشندي ـ رحمه الله ونفعنا بعلومه وبركته ـ قال اخبرنا الحافظ ابو الفضل احمد بن حجر اخبرنا ابو على محمد بن احمد بن على بن عبد العزيز المهدوي اذنا مشافهة ، عن يحيى بن محمد بن سعد، عن جعفر أبن علي الهمداني. اخبرنا ابو محمد عبد الله بن عبد الرحمان الديباجي اجازة، اخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن على الباهلي، حدثنا الحافظ أبو على الجياني، اخبرنا ابو عمر بن محمد بن الحداء سماعا، وأبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد الله اجازة. قال أخبرنا ابو محمد عبد الله به محمد بن أسد

الجهني اخبرنا ابو علي سعيد بن. . . (24) بن السكن . أخبرنا ابو عبد الله محمد بن يوسف بن البربري . اخبرنا الحجة امير المؤمنين ابو عبد الله بن اسهاعيل البخاري ـ رضى الله عنه وأرضاه .

قال هذا وكتبه فقير رحمة ربه القدير محمد بن محمود بن ابي بكر بغيغ ـ لطف الله بهم آمين ـ مسلما على من يقف عليه، وطالبا منه الدعاء بخير الدارين انتهى من لفظه. بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه.

صحيح ماذكره السيد الفقيه ابو العباس احمد المذكور خبره، واجزت له رواية ماذكره على شرطه.

وكتب بدلك عبيد الله تعالى، احقر عبيده محمد بن محمد بن ابي بكر بن الحاج موسى التواتي في الرابع والعشرين من شوال ثمان وتسعين وتسعيائة.

خامسا: اجازة عبد الواحد السجلهاسي لاحمد بن القاضي فهرسه.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلك تسليها. وبعد، فيقول اقل عبيد الله تعالى واحوجهم اليه: احمد بن محمد بن احمد بن ابي العافية المكناسي الشهير بابن القاضي - خار الله له بمنه وادخله بفضله في رحمته وجنته -: قرأت جميع هذه الفهرسة المباركة على مؤلفها الفقيه المحدث، العالم الفاضل، العلامة المشارك، المتفنن الفهامة، وحيد عصره، ومصباح دهره: ابو مالك سيدي عبد الواحد بن احمد الشريف الحسني - ابقى الله به النفع للمسلمين بجاه سيد الاولين والآخرين، واجازني فيها وفي كل ما يجوز له وعنه روايته بشرطه المعتبر عند اهله.

سادساً : فهرس إمام الدين الخليلي مؤرخ في 25 محرم عام 999 هـ 3 نونبر 1590

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا وآله وصحبه الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين وعلى آله وصحابته والتابعين وتابع التابعين لهم بإحسان الى يوم الدين، صلاه وسلاما دائمين متعاقبين ما أسفر صباح، ودعا داع الى الرشد والفلاح. وبعد، فيقول العبد الفقير الراجي فضل ربه القدير، الواضح اسمه عقب تاريخه أدناه - أصلح الله له دنياه وأخراه - لما دخلت في المرة الثالثة أرض المغرب _ حماها الله _ قاصدا حمى مولانا أمير المؤمنين ابن الخلفاء الراشدين، والائمة المهديين، الليث الهصور، والملك المنصور، مولانا أبو العباس أحمد المنصور، وحصل من احسانه ما أعجز لساني عن آداء شكره، وكنت أتخلل مجالس العلماء والادباء وأخبرهم بمن لقيت من علماء الاسلام بمصر والشام، وأن لي سندا امتد بواسطتهم الى ابن حجر العسقلاني وغيره، فرغب الي من له الفضل على مفيدنا وبركتنا الامام الفاضل، والعلامة الكامل، الخير الدين النقيل (25) الرحالة مفيد الطالبين، ولى: أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن على ابن أبي العافية الشهير بابن القاضي ، والاديب الفاصل العلامة الاوحد المتفنن المفيد الرحال سيدي : الحسين بن أبي القاسم بن أحمد الدرعي تم الجوزي الملولي ـ خار الله لهما ونفعها باعتقادهما _ أن اخبرهما بمن أجازني من العلماء المشهورين والأئمة المهديين وأن أصل سندهما بهؤلاء السادة الآق ذكرهم لاسيها (26) في كتب الحديث، فاعتذرت اليهما بأنني لست أهلا لذلك فأبيا إلا تكليفي فصرت أقدم رجلا وأوخر أخرس لأنه كما قيل صاحب البيت بالذي فيه أدري، ثم توكلت على الملك الرحمان وقلت _ و بالله المستعان _ :

لقيت من العلماء المشهورين بمصر سنة اثنين وسبعين وتسعمائة الشيخ الامام محدث زمانه الشيخ نجم الدين الغيطي، ثم الشيخ الامام العلامة أبو عبد الله محمد ابن الخطيب الشربيني، ثم الشيخ الامام العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد الرملي الانصاري، ثم الشيخ الامام العلامة الشيخ محمد المحلي، واستجزت هؤلاء المذكورين فاجازوني باللفظ مشافهة، وكتبوا الي بذلك اجازة بقراءتي عليهم في مواضيع من الجامعين الصحيحين فأجازوني بذلك وبباقيهما وبجميع مالهم من

منهظوم ومنثور مقروء مسموع ومجاز واستيجاز بحق مالهم روايته عن شيخ الاسلام القاضي زكريا، عن ابن حجر العسقلاني، والسند منه الى النجاري معلوم، ثم قرأت على ابن القاضي زكريا بنفسه _ وهو الشيخ الامام العلامة من الشيخ جمال الدين بن القاضي زكريا _ مجالس كثيرة من فنون شتى من العلوم من مؤلفات والده المذكور، ومن علم الحديث وغير ذلك فأجازني بذلك وبجميع ماله من منظوم ومنثور ومقروء ومسموع ومجاز واستيجاز بحق روايته عن والده القاضي زكريا قال: وبحق روايتي أيضا عن الشيخ جلال الدين السيوطي قال في مشافهة وأنا أدركت عصره، ثم بعد أن تلفظ لي بالاجازة كتب لي بخط ييده وأنشدني لنفسه:

يارب اني عاجز والعجز باب المغفرة وعلى عذابي قادر والعفو عند المقدرة

ولقيت من العلماء بمصر أيضا الشيخ نور الدين علي بن غانم المقدسي الحنيفي، والشيخ يحيى القرافي، والشيخ نور الدين الزيادي، والشيخ محمد البلبيسي، والشيخ ابراهيم العلقمي، والشيخ عمر ابن عبد الحق السنباطي وأخوه الشيخه أحمد بن أحمد بن عبد الحق السنباطي والشيخ زيد الدين الجيزي.

والشيخ عبد الدائم البقري، والشيخ محمد البنوفري، وهؤلاء الثلاثة الاخيرة مالكيون وأجازوني باللفظ وبالكتابة ماعدا الاخير فباللفظ فقط، لقيت الشيخ الامام العلامة محمد بن ناصر الدين الطبلاوي، والشيخ العلامة محمد الصفدي الواعظ المفيد، والشيخ الامام العلامة أبو عبد محمد البرهمتوشي، والشيخ محمد بن سراج الدين الحانوتي امام الحنيفية برواق الترك داخل الجامع الازهر عمره الله موالشيخ محمد النمراوي، والشيخ محمد الذيب، والشيخ علي الطوري، وهؤلاء الخمسة الاخيرون حنفيون، وأجازوني باللفظ والكتب لي بالاجازة الا البعض منهم فباللفظ فقط، والشيخ الامام العلامة صالح بن أحمد البلقيني وأخوه الشيخ يحيى ابن أحمد والشيخ محمد البهنسي وآخرين ممن يطول ذكرهم، وقد تركتهم خوف الملل، ولي مع فرد فرد منهم مجالسات ومحاطبات ومحاورات وغير ذلك كتبوا لي الحازات اطالو فيها الا القليل فباللفظ والكل شافعيون الا من نصصت عليه.

ولقيت الشيخ الامام الانام، خاتمة علماء الاسلام الوالي، بل القطب بلا نزاع ولاخصام، شيخي واستاذي وبركتي الغوث الفرد الجامع الرباني مفتي المسلمين، مفيد الطالبين مربى السالكين: أبو عبد الله شمس العارفين محمد بن أبي الحسن البكري الصديفي سبط آل الحسن ـ نفعني الله والمسلمين ببركته وأعاد على وعليهم من سره ومداه، قُلقد لازمته مدة طويلة سكّنت عنده بداره المعروفة به ببابّ الشعرية بمصر ثلاثة أعوام فكنت أنسخ له شرح العباب تأليف والده ـ رحمها الله ـ وكنت كثير التردد الي مجالسه بالجامع الازهر وغيره.

شاهدت من أحواله مالا يمكن التعبير عنه ، أشهد بالله لقد امتحنته في اهلاك رجل بذي اللسان وقع في حق والده فها كان الاصيل ومات غريقا. أشهد بالله لقد سألته مسائل أشكل على أمرها وسألته أن يسمح لي في السؤال عنها فقال لي : سل ماشئت فهـو مغفور لكّ ومسامح فيه، فقلت له : تحير الناس في أي معلوماتكم أكثر؟ فقال لى بها نصه: الحمد لله الحيرة في هي عين الكمال، أما علم التصوف فهذا أمر مقطوع لنا به فلا يحتاج أن نقيم لك الدليل عليه، وأما علم التفسير فقد حضر مجلسي فلان من علماء العجم وكنت في آية كذا فأحذ معي في البحث في تفسيره الى أن قمنا على غير طائل، ثم قلت له : ومن الغد أيضاً، فبينها نحن في أثناء البحث من اليوم الثالث اذ حسر عن راسه وجاءني حاسر الرأس وأقسم لابد أن تمدد رجليك فاصر يقبل بطن هذه مرة والاخرى مرة أخرى في ذلك الملأ قال لى: الله اعلم من كان يتعب في المطالعة، معناه انني ما راجعت ولا طالعت في كتب التفسير، وأما الفقه، فهل حضرت مجلس قراءتي ؟ قلت، نعم، في كتاب البهجة، في باب التيمم، قال : كيف سمعتنى أقرر الفقه ؟ قلت، سمعتكم تقولون هذا من تفقري، وهذه المسألة لي ولم أر من سبقني لكل ذلك، فقال لي : يكفيك هذا حيث كنت أقول ذلك على رؤوس الاشهاد وبحضرة العلماء في الجامع الازهر، فرأيته -رضى الله عنه _ وكأن حالته تقول: أنا كامل في كل العلوم وهو كذلك، ثم قلت له : حب الناس فيكم حملهم أن قالوالي : ان النبي - على - قال لكم : لك البشري أو مرحبا بك، وسيدى أحمد البدوى قال لكم: لك البشري أو مرحبا بك، فإن كان ماتكلم به الناس حق فمرادي أن اسمعه منكم وأروي عنكم وإن كان من شدة محبتهم تكلموا بذلك فمرادي أن أعلم حقيقة الحال، فقال: اسمع ما أقول لك وأخذ يستشهد بأمور هي خرق عوائد، ويقيم البرهان حتى كان ذلك مشاهد عيان ولولا خوف الاطالة لذكرت شيئا مما قال لي. والحاصل قال لي: نعم كان ذلك، وها أنا ذكرت ذلك في قصيدتين سردهما علي، ذكر لي الواحد مقالة النبي - وفي له: مرحبا بك أولك البشري، وفي الاخرى مقالة سيدي أحمد البدوي: مرحبا بك أولك البشري، وهما مثبوتتان في ديوانه الذي أنشأه وأبدع ماشاء فراجعه (وقع الشك عندي أي لفظة النبي - ولي كانت مرحبا بك أولك إلبشري، والذي ترجح عندي هي لك البشري، بل هو كذلك، فاعلم) فقلت له: هل ورد على قلبكم تكلما بذلك أو كان ذلك من صريح الكلام وصميمه.

بحيث لاشبهة ؟ قال : نعم، كان ذلك من صريح الكلام، وصوت النبي ـ عَلَيْهُ - بذلك وكذلك سيدي أحمد البدوي - رضي الله عنه - وحضرت معه دون الثمانين وتسعمائة زيارة سيدي أحمد البدوي _ رضي الله عنه _ وبعد انفاصله عن مقامه قال من على رؤوس الاشهاد سمعت منه دعوة والله ماسمعتها من غيره قط، قال له بعض من حضر ماهي ؟ قال : قال لى : حفظك الله للاسلام، وحضرت معه أيضا في التاريخ . وقد توجه الى زيارة خليل الرحمان ـ على نبينا وعليه وعلى سائر أنبياء الله أفضل الصلاة والسلام _ وبيت المقدس _ شرفه الله تعالى _ زيارة الله موسى _ عليه السلام، وما هنالك من أماكن يتبرك بها بجوار المسجد الاقصى وقد شاهدت من أحواله ماأدهش عقلي وحير لبي فلا تسأل عن قبائل انقادت اليه تبلغه من درك الى آخر، وعلماء تمثلت بين يديه، وامراء أكبت على قدميه تقبلهما وقد امتدحته الشعراء وأطنبوا في مدحه وأرخوا تلك الزيارة فكان تاريخها رحلة قطب الانام مقبولة، ثم لما انفصل عن مقام الخليل ـ عليه السلام ـ سألته هل سمعتم من الخليل _ عليه السلام _ في هذه الزيارة ماترويه عنكم قال : نعم ، عاهدت الله تعالى أن لا أصدر عن الخضرة الابراهمية الخليلية حتى اسمع منه شيء، قال سمعت الخليل عليه السلام من القبر الشريف يقول لي : أنت من معك في ضيافتنا، انتهت.

ومدينة الخليل ـ عليه السلام ـ هي بلدي محل أنسي ومسقط رأسي، وليت امامة الشافعية بذلك المكان المشرف موافقة لغرض والدي ثم تفرغت عنها باختياري وأعدتها له ـ رحمه الله ـ أقام والدي بها اماما مدة تزيد على سبعين عاما وليها والدي محمد استقلالا عن والده يوسف، وكان يوسف جدي نائبا فيها مدة حياته أو أنه

استقبل بها اثناء مدته ووالد جدي هذا هو الامام العلامة الاوحد المفيد الرحالة الشيخ علاء الدين علي بن قاسم الاردبيلي البطايحي الخليلي المقري مفتى المسلمين، توفي في شهر ربيع الاول سنة ست وثمانهائة، وله ضريح مشهور داخل القلعة هناك - رحمه الله - والامامة بذلك المقام هي الآن بيد أخي شقيقي أبو السعادات بن محمد والتأذين بيد ولده أحمد.

ورجعنا

وكرامات الشيخ الاستاذ البكري أجل من أن تحصر فلو تصدى أحد لذكر بعضها وان أطنب واسهب وأطال ومد الباع وقال فقد قصر ولولا خوف الاطالة والسآمة والملالة لذكرت لك نبدة أخرى من مناقبه وفيها ذكرت مقنع، فإن الذكي يفهم بالمثال الواحد، مالا يفهمه البليد بالف شاهد، توفي رحمه الله ورضي عنه بعد التسعين وتسعهائة ـ، ودفن بجوار الامام الشافعي بالقرافة الكبرى بمصر.

ولقيت بمكة شرفها الله ، الشيخ الامام العلامة عبد العزيز الرامزمي وحضرت مجلسه ، والشيخ الامام محمد بن فهد ، والشيخ الامام قطب الدين العجمي المؤرخ الحنفي ، والشيخ جار الله بن أمين الحنفي أيضا ، والشيخ عبد القادر والفاكهي والشيخ الامام العلامة مفتى مكة ـ شرفها الله ـ أبو عبد محمد الخفاجي ، وقرأت عليه وأجازني وكتب لي اجازة بخطه عام أربعة وسبعين وتسعائة ، ولقيت بها اخرين - رضي الله عنهم وعنا بهم أمين . ولقيت بمدينة صفد من أرض الشام عام سبعة وسبعين وتسعائة الامامم يحي بن حامد وحضرت مجلسه في الحديث وأجازني باللفظ من جملة من حضر هناك لك .

ولقيت بدمشق الشام الشيخ الامام العلامة أبو عبد الله محمد الحجازي والشيخ شهاب الدين أحمد بن يونس العيثاوي والشيخ محمد البهنسي الحنفي والشيخ بدر الدين بن رضي الدين الغزي وقرأت عليه مواضع من الجامع الصحيح بعد أن اسمعني من لفظع الحديث المسلسل بالاولية.

وهو «الراحمون يرحمهم الرحمان ـ تبارك وتعالى ـ ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السياء». ثم ناولني الجامع الصحيح وأجازني بها قرأته عليه منه وبباقيه وبها له من منظوم ومنثور ومقروء ومسموع ومجاز واستيجاز الى غير ذلك، وكتب اجازة أطنب

فيها وكتب ما نصه أو معناه: أنا ملحق الاحفاد وبالاجداد، ومؤلفاتي تناهز المائة، منها تفسيري الذي لم اسبق اليه نظمته في مائة الف بيت وأحد وعشر ون الف بيت، ومنها شرحي لشرح الشيخ جلال الدين المحلي على المناهج الموسوم احداهما المحلي لمشكلات المحلي والاخر بجيد المحلي ومنها. . . وذكر عدة من مؤلفاته، قال : من نظمي مضمن الحديث الشريف :

عن النبي اتانا من رأى امرأة أحل في قلبه للحسن موقعها فليات زوجته وليقض حاجته فإنها معها مثل الذي معها

واثبت من نظمه في إجازته التي كتبها لي شيئا كثيرا، توفي رحمه الله فيها بين الثهانين الى التسعين وتسعامئة بدمشق رحمه الله تعالى. ولقيت من العلماء بحمص، وحماة، وحلب، وانطاكية، وقسطنطينية ما لا قرابة له ولا حصر، وقد استخرت الله عسحانه وتعالى _، وأجزت من ذكر فيه بالجامعين الصحيحين وبجميع مالي من منظوم ومنثورن مقروء ومسموع ومجاز واستيجاز وغير ذلك حسبا أجازني من أجازني لي عمن ذكر. سئل والدي _ رحمه الله _ عن سبب تسميتي امام الدين قال : رجاء أن يكون امام مسجد ابراهيم الخليل عليه السلام _ وقد حقق الله رجاءه كها ذكرت، يكون امام مسجد ابراهيم الخليل عليه السلام _ وقد حقق الله رجاءه كها ذكرت، وهذا الاسم انفردت به في بلدتي بل جلت الأقاليم فيها رأيت ولا سمعت من تسمى به غير رجل بأرض صعيد مصر في الصدر الأول وسني من الخمسة والثلاثين الى الثهانية والثلاثين وفي هذا القدر كفاية، وفي الليلة المسفرة عن خامس محرم فاتح عام تسعة وتسعين وتسعيائة.

وكتب بمنزلي «بأسبست» (²⁷⁾ من حاضرة مراكش ـ كلأها اله ـ و. . . (⁸⁸⁾ ، افقر . . . (⁹⁹⁾ أمام الدين بن محمد بن يوسف بن علاء الدين بن قاسم البطايحي الخليلي . . . (⁹⁰⁾ الخزرجي نسبا ، غفر الله لي ولوالدي ولمن دعا لهما وللمسلمين ، وعلى الله على سيدنا وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

هو امـش

- (*) سر تحقيق هذه النصوص بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد 42 ـ 43، 1987 (*)
 - (1) محطوط خاص بالرباط.
 - (2) بياص بالأصل وما بين المعقوفين إضافة من إجاراته الأحرى.
 - (3) بياض بالاصل والاصافة من إجازاته الاخرى
 - (4) بياص بالأصل.
 - (5) بياض بالاصل.
 - (6) كلمة غير مقروءة.
 - (7) بياض بالاصل.
 - (8) كتب بالاصل مكدا . (ولو أنه صدرا)، ولم مهتد الى قراءتها .
 - (9) كلمة لم نهتد الى قراءتها.
 - (10) بياض بالأصل.
- (11) بالأصل . (أن عد الله) ، وهو تحريف، والصواب ما أثبتناه ، انظر فهرس ابن القاضي ، رائد الفلاح
 - (12) كلمة لم نهتد ألى قراءتها.
 - (13) كلمة لم نهتد الى قراءتها
 - (14) بياض بالاصل.
 - (15) بياض بالاصل، والاكمال من درة الحجال، 1: 5.
 - (16) بياض بالاصل، والاكمال من المصدر السابق، نفس الصفحة.
 - (18) انظر نص الاجازة ايضا عند احمد بن القاضي، المنتقى المقصور، 2 : 800 ـ 801
 - (19) انظر ترحمته عند ابن القاضي درة، 3 · 116 رقم 1054.
 - (20) كلمة لم نهتد إلى قراءتها.
 - (21) كتب مباشرة بعد كلمة (أهله) كلمة (في يوم).
 - (22) كلمة غير مقروءة.
- (23) التدبيج من مصطلحات المحدثين، وهو أن يروي قرين عن قرين كأن يروي صحابي عن صحابي، أو تابعي عن تابعي، أو أي راو عن آخر يساويه تنا وسندا وتوسع المتأخرون فجعلوا كل رواية بين الاقران في أي علم كان تدبيجا.
 - انظر محمد حبى، الحركة الفكرية، 2 110.
 - (24) كلمة غير مقروءة.
- (25) المقيل قُ و القاموس والتاج . كأمير، الغريب والذي يقيم في القوم وليس منهم ، والكلمة في المخطوطة مشكولة بكسر المون مسددة القاف . ولعل المجير اراد بها صيغة المبالغة لتكون من باب (السكيت) و(السكير) .
 - (26) بالاصل هماك (واو) مماشرة معد كلمة (لاسيها) ولا معمى لها هنا
 - (27) حي من أحياء مراكش والناس ينطقونه «ارىزط».
 - (28) بياض بالاصل
 - (29) بياض بالأصل
 - (30) بياض بالأصل



وثائق عن أسرس مغاربة (*) بمالطا واسبانيا

موضوع الوثيقتين الأولى والثانية :

تتعلقان بأسرى مغاربة (امرأة وزوجها وخادمة لهما) بهالطا يستغيثون فيها بالسلطان العلوي المولى سليهان (1792 ـ 1822)، بواسطة رسالتين يؤكدون فيهها اتسهائهم للشرفاء الادارسة بفاس، ويشيرون في نفس الوقت إلى ما يعانوه من التعذيب من طرف فرسان القديس يوحنا بهالطا.

أما لغة الوتيقتين فهي غالبا عامية مغربية مازالت معظم الفاظها مستعملة إلى يومنا هذا.

موضوع الوثيقة الثانية:

تتعلق بمغرى تنصر في مدينة اليكانت الاسبانية، وقد بعث الى الملك الاسباني كارلس الرابع يشكو اليه حاله، ويعبر في نفس الوقت عن رغبته في الالتحاق بالاسكريال قصد تعلم اللغة اللاتينية والدين المسيحي.

الوثيقة الأولى

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

الى من يداه الله بالرضى والرضوان وختم علينا وعليه بالسعادة والغفران.

إلى من هو في الدنيا سعيد وفي الأخرة إن شاء الله شهيد.

إلى أمير المؤمنين مولى اسليان سلطان الغرب نصره الله وناصر عصاكره أمين.

السلام عليك ورحمة الله وبركاته من المسلم عليك لاله فاطنة بنت سيد محمد بن عبد الرحمان الشريف. . . كثير السلام والمر الذي نعلمك به اخير إن شاء الله يا سلطان الرحم الله ينصرك ويطول عمرك . واليوم إلى تسال راه الروم إلى مالكني اضربني واعطاني العصا اعلى جوف ورميت اولد ميت مول خمسة اشهر ونصف، ميت رحمة الله عليه ، واليوم ياسيد راه الروم إلى أنا عند ابعث الطبيب والقابل له وشهد اشهدت الزور وقالو هذك ماهش حبل باش اخذاها . . . لو . . . من عند سيدها واليوم امنين اسمع الخبر السلطان ابهذا الشيء كله سيفط ربعة اطب وقابلة اخرى وصاب الشريفة حبل ومات الجنين في كرشها وجات القابل وقبلتها مر اخر وصاب اولد مولى خمسة أشهر ونصف ميت والقابل صابت الولد ميت في كرشها مالي سبعة ايام ميت في كرشها ، جسم كله بيدين برجليه براص بعينه كله ، راد الاسم امتاع القابل (مريا مرت الاورينس بركلنط) اسم القابل بانه هي الي شافت الولد مولى خمسة اشهر ونصف .

واليوم يا سلطان، الله ينصرك، كيف اسمع السلطان امتاع مالط بهذا الشيء كله خرجها من عند والدها الى دار (نباف) صاحب سيد محمد الله يرحم وراه نحمد الله ونشكر ما يخصها الا النظر في وجهكم العزيز علينا والسلام.

الوثيقة الثانية

الحمد لله وحده

وصلى الله الله على سيدنا ومولانا محمد

الحمد لله مسبب الاسباب، ومعتق الرقاب، وخلق آدم وحو من التراب، وجعل العلم يخط بالصواب، والقرطاس رسالة بين الاحباب، اعن بذلك من يوقف عليه كتبنا ويتصل بيده صوبنا، الى سيد مولي اسليهان سلطان الغرب نصره الله وناصر عصاكره آمين.

السيد لاله فاطنة بنت سيد محمد بن عبد الرحمان كثير السلم وكل مسلم ألف سلم وسلم اعلى سيد مولى اسليمان من عند زوجها مولى امحمد ابن الحاج اعلى السبيع كثير السلم وكل سلم _ يتبعه ألف سلم _ واليوم يا سلطان الرحم الله ينصرك ويزيد في ايامك انها من الى جابون الى مالطا وعملون في الكرنتين (١) ابقيت فيها اربعين يوم بعد ذلك كيف كملت الربعين يوم الداوني الى عند السلطان امتاع مالطا وقال لى انت امنين يا وليه ؟ وقلت له : يا سلطان أنا من الغرب. بنت من انتي ؟ وقلت له : انا بنت السلطان مولى ادريس ماننكرشي اصلي وقريبت مولى محمد، وقلت لويا سلطان انا ماننكر اصلى انا بنت السلطان مولى ادريس واليوم انا من إن جيت فيدك ما جيتش بغرض اعمل كيف ما تحب فيا جيت بالسيف اعلياً وبعد ذلك قلت لو يا سلطان انا جابني الله في يدك تبقا انت تحكم اعليا خير من غيرك، وبعد دلك قال لى السلطان: انت يا بنت انا ما نقدرش نحكم فيك يحكم فيك الى جابك ايسير امتاع اما البيع اما . . . وبعد ذلك كلم المركانت (2) الي جابني وقال له هذا الشريد تبقّ عند لاتنباع ولا تنشر حتى يظهر اناس لاهيا ولا زُوجها، اجملهم في دار وحد وبعد ذلك ياسيد اعطان الشهر جوزت امليح واليوم ياسيد الله. . . . عمرك ويزيد في ايامك وقال لي الروم الى انا عند : انت عندك لمن تكتبي الورق ؟ وقالت لو أنا عند دار النبي دار سيدي مولي سليان الله ينصر ويطول عمركم ويزيد في ايامك راه كل ما جربيا انعود لك في الورق واليوم الروم الى أنا عند يقعد اعلى الكرس وايحط الدويا في حجر امتاع . . . ويشرب الدخان في حجر والدخان طالع مع حجر وجه، وقلت لو عدو الله اعلاش تشرب الدخان في حجر وقال: انت امتاع نعمل فيك كيف ما نحب وقام الى زوجها وعمل في الحديد ودار في الحبس وبعد ذلك جا المركنتيا باش يشروها اعطو فيها خمسين الف اريال مالط هي وزوجها وخادمها هم في ثلثة. واليوم قامت السيد فاطنة قالت للمركانتيني وقالت لهم انتم اتحب تشروني راه الى يشرني. . . متلفين اعله انا منيش خادم آمتع الفلوس. انا الله ينصر دار النبي الله ينصر سيد مولي اسليمان ويجعل البرك في ذرته وبعد ذلك الكافر جبلها خبز الشعير وقالت لو انا ما نكل خبز الشعيريا عدو الله، وبعد ذلك قام الكافر وغلق عليها الببا كلهم ولا خلالها شي من الضو الا وحدها ولا من يدخل . . . وبعد ذلك سمع الجران العيطان امتاع وبعثل اجاوشد الخادم واعطها العمر وجاب المصلح وطللها بالنجس حاش وبعد ذلك قالت لو الخدم انا مانديش

يا عدو الله النجس لاله ونشد الروم المكنس حاش وجه سيد بالنجس وطلها لي على وجه وقال لي : اعلى تقول انا مانش سيدك، وقلت لو يا عدو الله انا سيد مولى اسليهان الغالي الله ينصر وينصر عصاكر ياعدو الله وبعد ذلك اضربني اعلى كرشي بخبز وانا مراة حبل وبعد ذلك قعدت ثمانية وهي بالوجع وبعد ذلك جاب الطبيب والقابل شفت الشريفة وصابتها حبل والصغير ميت في جوفها مول سبعة ايام وانها من التسعة ايام ارمت الشريف اولد مولى خمسة اشهر ونصف ميت واليوم ياسيد مولى اسليهان الله ينصرك وايطول عمرك باش اتكون تعرف واليوم انظر سيد اوسع واليوم ياسيد الله ايطول عمرك ويزيد في ايامك انها من الي خلطت الورق سيد الي عند باش ذلك الساعة اسمع السلطان مالطا وحمال اربعة الطب ايدوفيا في دار (نباف) صاحب سيد محمد بن عبد الله يرحم اخديمكم واليوم ياسيد مولى سليمان الله ينصرك وايطول عمرك راه عندكم زوج انصرا. . . واحد منهم يقول له (فباف) اخديم سيد محمد الله يرحم ولاخر يقال له (افرنصيص اشكنبر) فهم الى عملين فيها الخير وسلم واليوم راهم امسلمين عليك وقال الحمد لله الى دار سيدنا مزالت عامر الله ينصر مولى سليمان الله يرحم سيد الكبير وينصر سيد مولى اسليمان واليوم يا سيد الله ينصرك وايطول عمر اللي انت ابعثت اخديمك ابعث اعلى يد الرا (3) امتاع اصبانية والرايس امتاع اصبانية (4) هو يبعث الى مالطا الى دار (نباف) اخديم سيد محمد (٥) الله يرحم ويسلم اعلى سيد مولى سليان الله ينصر من عند المجاهدين الرياس والبحرية كلهم واليوم يا سيد مولى اسليمان الله ينصرك وايطول عمرك احنا ما عندنا حد غير الله وثم انت واحنا نطلب الله فضل وفظلك راه جدك يشفع في الاخر وانتم تشفع في الدنيا الله يطول عمركم.

وتاريخ الورق انها في الثمنية ايام في شول. . .

وسلم اعلى سيد من عند الشرفا ومن عند المجاهدين والغرب وسلم اعلى سيد مولى عبد الله يعطك الله ارضات مولى عبد الله الشريف ومولى عبد السلام بنمشيش الله يعطك خاطر الله والنبى والصالحين.

وأما اليوم يا سيد مولى اسليهان الله ينصرك ويطول عمرك يا عز الغرب، واليوم هذا الحرالي اضربني الى انا عند في عمر ستة وربعين سنة واليوم الله ايطول عمر سيدي بولد ثالثة باش ما تقولش هذا صغير آليم اشتكاة للحكام امتاعهم وقالوا حنا ما نحكمش انت ايسير. . . واليوم يا سيد الله ايطول عمرك ويزيد في ايامك ولد ما نخليهش يمشي باطل ولا ليوم ياسيدي راه كيف جاو امتاعك وقال لي يابنت لوجه ما تكتبيش التربية امتاعك وانا قلت لهم : انا ما نخليش ذرة باطل . عند السلطان مولى اسليهان هو يخذ حق الله يعضه ما يتمنا عند الله والله يرحم ابا سيدي والسلام .

وهذا الروم اسمه قبطان (اشكنبر) ولد (اندزيا) الأعمى.

الوثيقة الثالثة

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا عيسى وآله

الى سيدنا نصره الله الهام المعظم المحترام سيدنا كارلش الرابع سلام على مقام سيدنا بالخير ودوام العافية ونعمت من الله شاملة.

وبعد فالذي نعلم به سيدنا نصره الله وملد ملكه انه اشتد على الحال في أمر المعيشة وكل شيء غالي وقلت صحتي بان الصدقة الذي جاد سيدنا علي بها وهي ثهانية دراهم نحاسا ورطل ونصف من الخبز في كل يوم فإنها لم تجريني الا مع الخدمة أنا وزوجتي في بلاد ذلك مدينة الاكنط وهذا ما تفضل به سيدنا الكبير رحمة الله تعالى وقدس روحه في الجنة ونطلب كرامة من سيدنا بجاه خلافته وكهال قال القائل حيث يقول:

يا ملكا زانة (كذا) لدينا خلافته والجودنال به العز الذي طلب نودك الشكر (كذا) في الدنيا وأخرة وشكر مثلك في الدرين قد وجب

ونعلم سيدنا باني شريف من قبيلة أهل سرف من مدشر أبي جديال من أولاد الشلي من ذرية مولاي ادريس بفاس وهو حاضرة المغرب واني فقيه وقرأت بلغات العرب وعلمت كثيرا منهم صغيرا وكبيرا ونعرف الذي فرض الله علي والذي يلزمني في ديني وهو دين سيدنا عيسى عليه السلام فالحمد لله الذي الهمنا الى الصواب ولم يكون رجائي إلا في سيدنا لاني ما عندي احد الا هو وإذا كانت من سيدنا حسنة تكون في حضرة الاسقريال بمدرسة الرهبان أو في موضع ءاخر لاني شائف في تعليم اللطين والدين الحقيقي لعل الله يلهمنا الى الصواب وكتب الحروف. . . .

هو امـش

نشر تحقيق هذه النصوص بحوليات كلية الأداب بالدار البيصاء، العدد الرابع، 1987

- (﴿*) توجَد هذه الوثَّائق بالأرشيف التاريخي الوطني بمدريد A.H.N (قسم الدولة) في ملف يحمل تاريخ 1798 (قسم الدولة) في ملف يحمل تاريخ 1798 . وقد تفضل الدكتور يحيى بوعزير (جامعة وهران بالجزائر) فعثها لنا، بها مشكورا، قصد نشرها.
- (1) الكرانتين . هي مدة الحجر الصحي ، من الاسبانية CUARANTENA أي أربعين يوما . وقد أوضح معناها السفير المعربي الى مدريد ابن عثمان المكناسي قائلا . «ومعناها (الكرانتين) عندهم أن يقيم الذي يرد عليهم في موضع معروف عندهم معد لذلك أربعين يوما لا يخرج منه اليه أحد ، وسبب ذلك امهم يتصرزون أن يدخل الوباء ارضهم وبلادهم لتوهمهم انه في بلادنا اعاذنا الله منه . . . فيجعلون تلك الكرنطينة احتياطا وقطعا للشك بحيث اذا كان في الوارد عليهم شيء من ذلك يطهر عليه في تلك المدة فلا يدخل الملد وحين تكمل الكرنطينة ولم يظهر عليه شيء يأتي ويقلب من هو في الكرنطينة في الناس وإلا فلا . . . »
 - انظر: الاكسير في فكاك الاسير، ص 9
 - (2) المركانت، من الأسبانية Mercante اي التاجر
 - (3) الرا: من الأسبانية EL REY اي الملك
 - (4) الرايس امتاع اصبانية: قائد البحرية الاسبانية
 - (5) تقصد السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله

الفمـرس

| 5 | تقدیم |
|-----|---|
| 7 | قضية الرق في تاريخ المغرب |
| 25 | الجالية الأندلسية بالمغرب العربي (تونس والجزائر) |
| 71 | التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي. تأصيل تاريخي |
| | من جذُّور الدوَّلة العصرية بالمغرب.محاولة بناء الدوَّلة الحدِّيثة |
| 8 1 | خلال القرن التاسع عشر نموذجا |
| | العلاقات المغربية الاسبانية خلال القرن السادس عشر |
| 89 | العهد السعدي الأول نموذجا |
| 97 | دور الكناشات في الكتابات التاريخية المغربية |
| | العلاقات العربية الافريقية في القرن السادس عشر |
| 05 | (الوجود المغربي بالسودان الغربي كنموذج) |
| 119 | الجهاد البحري في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله |
| | صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين اليمن والمغرب |
| 129 | خلال القرن السادس عشر (التهديد العثماني نموذجا) |
| | صفحة من صفحات التاريخ المشترك بين المغرب والخليج العربي |
| 141 | خلال القرن السادس عشر (الغزو البرتغالي كنموذج) |
| | ملاحظات منهجية حول كتابة تاريخ الأمة العربية |
| 149 | «المغرب في القرنين 16 و17 نموذجاً» في القرنين 16 و17 نموذجاً |
| 155 | قضية الشعوبية في التاريخ الاسلامي |
| 163 | وثائق جديدة عن الحركة الفكرية في العهد السعدي |
| 177 | وثائق عن اسرى مغاربة بهالطا وإسبانيا |

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تم الطبع بمطابع افريقيا الشرق 159 مكرر ، شارع يعقوب المنصور ـ الماتف : 25.98.14 - 25.98.13 - الدار البيضاء



ۿ \ُفريقيا\لشرق

159 مكرر، شارع يعقوب المتصور الدار البيضاء 25.95.04 25.98.13